في ضوء الرسالة

ألوان من الأدب والتاريخ

تأليف

المفكر والأديب

أحمد حسن الزيات

المتوفى ١٣٨٨ هـ

أحمد حسن الزيات

في ضوء الرسالة

ألوان من الأدب والتاريخ

الطبعة الأولى

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
شارع محمد الفاضل ٣ عابدين

قبل أن تقرأ

هذه ألوان من الأدب والتاريخ والسياسة والنقد والتراجم والذكريات والقصص كتبتها فى أحوال مختلفة وأزمان متقاربة بعد احتجاب (الرسالة) وجريت فيها على منهاج ما كتبت من قبل فى طبيعة التفكير وطريقة التعبير ونبالة الغرض ، ولذلك سميتها (فى ضوء الرسالة) .

وضوء الرسالة الإنسانية التى احتجبت قبس من ضوء الرسالة الإلهية التى لن تحتجب ، فهو لا يفنى بفناء المصباح كما لا تفنى الروح بفناء الجسد . إنه لا يزال ملء عينى وملء قلبى ، فأنا أبصر كل ذات بنوره ، وأستشعر كل معنى بشعوره . وأرسل أشعته على ظلمات ماضىَّ البعيد فتتجلى فيها عواطف صباى ومواقف كهولتى كما تتجلى للعين والنفس أحداث الأمس وأعمال اليوم ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

إن المعنى إذا اتضح فى الذهن انضح فى اللفظ . ولا يكون الغموض أو التعقيد إلا حيث تنبهم الفكرة وتختلط الصورة . والانبهام والاختلاط لا يصيبان الكاتب أو الشاعر إلا إذا فقد الضوء وضل الطريق . وما المذاهب الأدبية المنحرفة إلا ضلال الطريق أو خبال العقل . فالرمزية والسريالية واللامعقولية بدَع من الخطل الفكرى أو التعقد النفسى ابتدعها الغرور أو الشذوذ أو المرض . فالأديب السوى الذى يدرك بالفطرة ويعلم بالضرورة أن وظيفة اللغة أن تنقل ما فى ذهنه ، إلى أذهان الناس عن طريق أقرب واوضح وأسهل ، لا يسوغ فى منطقه أن يضرب على أسلوبه هذا الضباب الذى يخفى المعنى ويبعد

الغرض و يتعب القارىء إلا إذا أراد رياضة الذهن وامتحان الذكاء بالأحاجي والألغاز ، وتلك لها أحوال تقتضيها ليس منها على كل حال تأليف القصة ولا وضع المسرحية ولا نظم القصيدة .

إن الكاتب الذى يترك المستقيم إلى الجال والواضح إلى المبهم والمعقول إلى اللامعقول كاتب شارد وقف وحده على نتوء من الصخر فى حاشية الطريق وصاح بالسابلة : ها أنذا : لا أفكر كما تفكرون ولا أعبر كما تعبرون ، لأن التفرد فى أن نمتاز ، والتجدد فى أن نبتكر ، ولا يعنيه بعد ذلك أن يفكر بعقل أو بغير عقل ، وأن يعبر بلفظ أو بغير لفظ ، ما دام قد تميز فى الكتاب تميز البقعة السوداء فى النسيج الأبيض .

إن مثل هذا الكاتب الذى تقعر فى صناعة البيان حتى أغرب ، مثل الفقيه الذى تنطع فى صناعة الفقه حتى أضحك ؛ فقد ورد فى بعض الكتب أن فقيهاً تجاوز فى الفرض حد المعقول فافترض أن إماما من أئمة المساجد تولد من إنسان ونعجة ، ثم صلى بالناس صلاة عيد النحر وبحث وأطال البحث هل يجوز أن يضحى به بعد الصلاة أو لا يجوز ، وأن رجلا من المصلين صلى وعلى ظهره قربة مملوءة بغاز البطن و بحث وعمق البحث هل تصح صلاته أو لا تصح !

هذا الفقيه وذلك الأديب يعبثان بالفكر عبث الممسوس فلا يمكن أن يكون لأحدهما رأى يتبع فى الفقه ، ولا للآخر مذهب يناقش فى الأدب .

* * *

كنت أريد أن أناقش فى هذه المقدمة بعض القضايا الأدبية التى كثر عليها الكلام وطال فيها الجدل ولكنى ذكرت حديثا جرى بينى و بين

أديب إذاعى سألني

فأنا أثبته هنا نقلا عن تسجيله . قال محدثى :

(س)

فى حياة كل كاتب أدب عالمى تأثر به فى إنتاجه الأدبى . وأدباء معينون تأثر بهم فى أدبه وحياته معاً . . فما الأدب الذى تأثرت به ؟ ومن هم الأدباء الذين أعجبت بهم وآمنت بطريقتهم فى الأدب والحياة ؟

(ج)

الأدب العالمى الذى تأثرت به بعد الأدب العربى هو الأدب الفرنسى وذلك لأسباب أهمها أن اللغة الفرنسية هى لغتى الثانية ، فمن الطبيعى أن أقرأ بها وأن أبدأ بأدبها . والأدب الفرنسى كالأدب العربى يعتمد على بلاغة الأسلوب فى الصورة والفكرة ، وعلى براعة الذهن فى الخلق والتصوير . وهو أقرب الآداب الأوربية إلى أذواقنا المرهفة وعواطفنا المشبوبة ، ولعل للطباع المشتركة بين أمم البحر الأبيض دخلا فى ذلك .

أما الأدباء الذين أعجبت بهم فأكثرهم من أدباء القرن التاسع عشر كهوجو ولامرتين وشاتوبريان وفلوبير ودوديه ، وهم يمثلون الأدب الفرنسى فى أوج ازدهاره ، وقد تأثرت بهم فى تخليص أسلوبى من الفضول والحشو والسطحية والميوعة ووصف الأشياء بالتقريب لا بالتحديد ، والتعمق فى درس الموضوع والإحاطة بجملته وتفصيله وبيئته وجوه .

(س)

قمتم خلال حياتكم الأدبية المديدة بعدد من الأعمال المجيدة فى شتى حقول الأدب ، لعل أبرزها هذه الترجمات التى كانت بمثابة نافذة واسعة نطل

(و)

منها على ثقافة الغرب . ولـكن الملاحظ أن اختياركم فى الترجمة كان ذا طابع رومانتيكي بحت — تمثل فى آلام فرتر ورفائيل — فما سر التفاتـكم إلى هذا اللون بالذات ؟ ولو عدتم إلى الترجمة مرة أخرى ، فهل تعتقدون أن هذا اللون سيكون أقرب إليـكم دون غيره من الاتجاهات الجديدة المعاصرة ؟

(ج)

كان الأسلوب الابتداعى أو الرومانسى هو الأسلوب الغالب على المشاعر والأذواق فى الشرق العربى أوائل هذا القرن ، لأنه الأسلوب الذى يجمع بين الفـكر والعاطفة والخيال فى صورة جميلة من الفن ، ولأن حياتنا الاجتماعية كانت لا تزال بسيطة لم تتعقد بعد فلا تحتاج من الـكاتب التحليل والتعليل والـكشف ، ثم كنا وكان الناس يومئذ انفعاليين نتأثر بسبحات الخيال أكثر مما نتأثر بصدمات الواقع ، ونطرب للصور البيانية التى تهز القلب والوجدان أكثر مما نطرب للصور الواقعية التى تحرك العقل والذهن .

ذلك إلى أننى كنت حين ترجمت آلام فرتر ورفائيل أعانى التجربة التى عاناها جيته ولامرتين . وهذا النوع من القصص الذى يتحدث فيه كاتب عبقرى عن نفسه وعن حبه وعن ماضيه أحب أنواع القصص إلى نفسى . ولو عادت إلىّ الدوافع التى دفعتنى إلى ترجمة آلام فرتر ورفائيل لترجمت بقية السلسلة التى أعجبتنى من هذا النوع وهى هيلويز الجديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأدولف ، ودومينيك ، وماريون دلورم ، ومانون ليسكو ، وجرازييلا ، وجان دى جريف ، وما زلت أعتقد أن القصص الابتداعى هو أبلغ القصص فى تربية الذوق وتهذيب الغريزة وتقوية الروح وتنمية العاطفة ، وهى المقومات الجوهرية لشخصية الإنسان المتمدن .

(ز)

(س)

هناك إجماع من النقاد والقراء معاً على أنك رائد لمدرسة فن الأسلوب. ولقد ترك هذا الأسلوب آثاراً بعيدة الغور فى نفوس كل من عاصروه ، فهل نسمع منكم الآن تفسيراً لاهتمامكم بالأسلوب إلى هذا الحد ؟ وهل تعتقدون أن الأسلوب يمثل مشكلة فنية خاصة بالنسبة لأدبنا ؟

(ج)

الأسلوب كما عرفته فى كتابى « دفاع عن البلاغة » هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام . وهو مظهر لتلك الهندسة الروحية للملكة البلاغة النفسية ، يبرزها للحس ويصل بينها وبين الذهن وينقل أثرها المضمر إلى الأغراض المختلفة والغايات البعيدة .

والبلاغة التى أعنيها هى البلاغة التى لاتفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل . لأن الكلام كائن حى . روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفَسا لا يتمثل والجسم جمادا لايحس . وأنا حين قلت إن الأسلوب هو الطريقة الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، كنت أريد اختيار الألفاظ على النحو الذى يرتضيه الذوق وتأليف الكلام على الوضع الذى يقتضيه العقل . فالأسلوب خلق مستمر: خلق الالفاظ بواسطة المعانى ، وخلق المعانى بواسطة الألفاظ ، فليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . وتلك العناصر هى الافكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة . هذا هو تعريف الاسلوب كما أراه وأتبعه وأدعو إليه . أما خصائص هذا الأسلوب فقد شرحتها بالتفصيل فى كتابى « دفاع عن البلاغة » ومجملها أن يجتمع للأسلوب صفات ثلاث : الأصالة : وهى

ألا يكتب الكاتب كما يكتب غيره ، وإنما يكون أصيلا فى نظرته وفكرته وصورته وكلمته ولهجته ، فلا يستعمل لفظا عاما ولاتعبيراً محفوظاً ولااستعارة مشاعة . والأصالة تقوم على ركنين أساسيين: الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة، فخصوصية اللفظ دلالته التامة على المعنى المراد ، ووقوعه الموقع المناسب ، وبذلك يضمن الكاتب الدقة فى التعبير والوضوح فى المعنى والصدق فى الدلالة . وجدّة العبارة أساسها الابتكار فى حكاية الخبر وتصوير الفكرة وتقويم الموضوع .

والصفة الثانية الإيجاز : وهو الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر والتعبير بالكلمة الجامعة والاكتفاء باللمحة الدالة . وليس من الإيجاز أن يقص الكاتب أجنحة الخيال ويطفىء ألوان الحس ويترك أسلوبه كأسلوب التلغراف شديد الاقتضاب والجفاف .

أما الصفة الثالثة التى يجب أن تتوفر فى الأسلوب البليغ فهى التلاؤم أو الموسيقية أو الهرمونية . وتكون فى الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس، وفى الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الإيقاع . وسبيل ذلك المزاوجة بين الكلمات والجمل كقول الله تعالى : وأتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم . فأتيناهما مثل وهديناهما ، والكتاب مثل الصراط ، والمستبين مثل المستقيم . ولا بأس أن ينثر فى خلال السياق قليل من السجع المطبوع فى المواقف الشاعرية العاطفية . وهذا الاسلوب لايجرى على مذهب معين من المذاهب المعروفة فى الأدبين العربى والأوربى ، فهو يأخذ من الاتباعية أو الكلاسية التقيد بالقواعد المقررة والتشدد فى استعمال اللغة الصحيحة ، ومن الا بتداعية أو الرومانسية الانطلاق مع الطبع والتحرر من التقيد ، ومن الواقعية توخى الصدق فى التعبير والاعتماد فى الوصف على الواقع .

(س)

الملاحظ أن الشبان الذين لهم محاولات أدبيـــة يتأثرون بالآداب الأجنبية وعلى الأخص — الأدبين الفرنسى والأميركى الحديثين — فى مجالات القصة والرواية والمسرحية أكثر من تأثرهم بالتراث العربى .

فما رأيكم فى هذه الظاهرة ؟ وهل تعتقدون أنها تخدم الحركة الأدبية الجديدة ؟

(ج)

لأدبائنا الشباب والشيوخ العذر الواضح فى تأثرهم بالآداب الأجنبية فى مجالات الاقصوصة والقصة والمسرحية ، لأن أدبنا العربى الفصيح لم يعن بهذه الأنواع حتى يضع لها القواعد ويورد لها النماذج ، وإنما عنى بالأخبار والامثال والمقامات والمقالات والرسائل دون أن يدخلها فى أبواب البلاغة ، وترك للأدباء الشعبيين القصص طواله وقصاره. والقصص الشعبى الموروث كألف ليلة وليلة ، وعنترة ، وسيف بن ذى يزن ، يختلف كل الاختلاف عن القصص بمعناه الحديث فى بنائه وأسلوبه ومراميه . فاتجاه الأدباء إلى الأدب الأوربى والأميركى لاقتباس قواعده واحتذاء أساليبه اتجاه طبيعى سليم ، عاد على الأدب العربى الحديث بفوائد عظيمة أكملت من نقصه وزادت فى ثروته .

(س)

باعتبارك مؤلف كتاب « دفاع عن البلاغة » ما رأيكم فى الاتجاهات النقدية الحديثة فى دراسة الأدب العربى وتقويمه ؟

(ج)

الواقع أن فى أدبنا المعاصر نهضة ملحوظة فى النقد تتناول الكتاب

(ى)

والقصيدة والقصة والمسرحية ، وتتجلى فى الأندية و الإذاعة والصحافة . وهذا النقد فى الغالب يصدر عن اطلاع واسع وذوق سليم وتقدير عادل ؛ ولـكنه فى جملته لم ينبثق من طبيعة الأدب العربى ولا من بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة الأدب الأوربى وقواعده ومذاهبه ، لأن اكثر النقاد درسوا هذا الأدب وتعمقوه وتأثروا به ، ولم تتهيأ لهم الفرص ولا الوسائل لدراسة أدبهم دراسة منتجة لسوء تعليمه وقبح عرضه ، فاضطروا إلى أن يقيسوا الأدب العربى بمقاييس الأدب الغربى ، وأن يخضعوه لمذاهب غريبة عنه كالرمزية والوجودية والواقعية المتطرفة . ولو اقتصر الأمر على الأنواع المقتبسة كالقصص والتمثيل لما كان فى ذلك بأس ، وإنما البأس كله فى أن يطبقوها على سائر الأساليب ولا سيما المقالة والقصيدة . وهم لإيثارهم العامية على الفصحى ، لا يدخلون فى حسابهم مخالفة المنقود لقواعد اللغة وقوانين البلاغة . ولو اتجه هؤلاء النقاد بعقليتهم المتحررة وثقافتهم المتجددة إلى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنهما لأوجدوا فيه فنا مستقلا من النقد المبنى على العلم والخبرة والأصالة ، يتمم ما بدأ به عبد القاهر وأبو هلال وابن الأثير ، وغيرهم من مؤسسى فن النقد عند العرب .

(س)

المتتبع لحركتنا الأدبية المعاصرة يعلم أى خسارة أصابت هذه الحركة باحتجاب « الرواية » أولا . و « الرسالة » ثانياً . . ويعلم أيضاً أن الفراغ الذى خلفه احتجاب الشقيقتين لم يملأ بعد .

فهل تسمحون بإلقاء الضوء على طبيعة الظروف التى صاحبت اختفاء الشقيقتين . . وهل تعتقدون أن هذه الظروف ما تزال تقيم عقبة أمام أية محاولة فى سبيل إيجاد مجلة أدبية يتاح لها التفوق والإنتشار اللذان كانا « للرسالة » ؟

(ج)

كانت « الرسالة » بحكم ثقافة القائمين بها والمحررين فيها مجلة عربية إسلامية شرقية ، تعتمد على الأدب العربى قديمه وحديثه فى كل زمن وفى كل بلد ، وتؤثر الأسلوب الرفيع واللغة الفصحى والأغراض النبيلة . وكان ظهورها على فترة من المجلات الأدبية الجديرة بهذا الوصف . فوجد فيها الكتاب العرب مجالا للتعارف والبحث والظهور ، وميداناً للجهاد فى سبيل وحدة مشتتة ووطن مسلوب وحرية مفقودة .

والأمة العربية مفطورة على حب تقاليدها فى اللغة والأدب والعقيدة والخلق ، فلم تكد تجد مجلة ترعى هذه التقاليد وتجرى عليها حتى شعرت بأنها وجدت شيئاً كانت تفتقده وتنتظره . وكان الذوق العربى لا يزال سليما بفضل ما كان يغذيه من جهود خريجى الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية فى عهدها الأول ، والصحافة التى كانت تقوم على المقالة ، والسياسة التى كانت تعتمد على الخطابة . فلما ساء تعليم اللغة وطغى سلطان العامية فزاحمت الفصحى فى كتابة القصص والمسرحيات والأفلام والإذاعة والأغانى ، وتساهل النقاد فى قبول الأسلوب العامى أو الركيك إكتفاء بوضوح الدلالة ، وتبلد الحس البلاغى فى الناس حتى أصبحوا يستسيغون التافه ، ويستحسنون القبيح ، وينفرون من الكتاب الدسم والمجلة المفيدة ، فراجت الكتب الخفيفة وانتشرت المجلات المسلية ، وماتت مجلات « المقتطف والكاتب المصرى والكتاب والثقافة والرسالة والرواية والرسالة الجديدة » . وما دامت هذه الظروف التى ذكرت بعضها قائمة ، فلن يرجى لأمثال هذه المجلات عودة ولا بقاء ، اللهم إلا بمعونة من القائمين على شئون الثقافة تضمن لها أداء رسالتها مستقلة عن ميل الجمهور أو نفوره .

(س)

لا بد أنكم تتابعون الحركة الشعرية الجديدة فى عالمنا العربى ، والتى يؤمن أصحابها بمفهوم ومصطلح جديد للشعر .

فما رأيكم فى هذه الحركة ؟

(ج)

الشعر فى كل أمة مصدره الغناء . وكما أن الغناء لحن و إيقاع ، فإن الشعر وزن وقافية . على هذا قام عمود الشعر ، وعلى هذا تربت الأذواق وتعودت الآذان . فإذا جردنا شعرنا من موسيقاه التقليدية ، تركناه نوعا عجيبا من الكلام لا هو نظم ولا هو شعر . وهذا النوع الذى ارتضاه بعض الشعراء ليس من مبتكرات اليوم وإنما هو تقليد لنوع من الشعر ظهر فى أوربا أواسط القرن السادس عشر ، متحررا من قيود القافية وهو الشعر الأبيض ، أو متخففاً من أثقال العروض والتفاعيل وهو الشعر الحر .

ومحاولة إقحام هذين النوعين على العروض العربى تزييف على الطبع وتحامل على الذوق . وما كان مخالفاً للطبع أو مجافياً للذوق لا يمكن أن ينجح، وإن نجح بحكم الولوع بالجديد فلا يمكن أن يدوم . ولا أدرى علة لهذا الانحراف ، فإن كانت العلة هى جماله فلا جمال لكلام لا موسيقية فيه ، وإن كانت العلة هى التيسير على الشاعر فإنى أفهم أن تيسر الكتابة ويسهّل النحو ، ولكنى لا أفهم لماذا ييسر الشعر ، أليكون الناس كلهم شعراء ؟ لا ياسيدى . المسألة فى الفن استعداد واجتهاد وقريحة .

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع .

(س)

ثمة ازدواج لغوى حاد فى لغتنا الأدبية ، وطرائق شتى فى التعبير ، فهناك

(م)

من ينادى بأن تبقى الفصحى لغة الأدب سرداً وحواراً ، وهناك من يرى أن تـكون العامية لغته سرداً وحواراً ، وهناك من يقصر العامية على الحوار فقط ، وهناك من يحاول تطويع العامية ورفعها إلى مستوى الفصحى فى الحوار الأدبى .

فهل نستمع إلى رأيك فى هذا الموضوع ؟

(ج)

الازدواج اللغوى أمر طبيعى تقتضيه سنة التطور فى كل لغة ، وقد يتسع الفرق بين لغة الحديث ولغة الـكتابة حتى تصبحا لغتين مستقلتين لا يتفاهم أصحابهما إلا بصعوبة كما هو الحال بين الفرنسية والأسبانية والبرتغالية بالنسبة للاتينية ، أو العربية والعبرية والفينيقية والآشورية بالنسبة للسامية ، وقد كان هذا ممكن الحصول فى اللغة العربية لولا أنها جزء من حقيقة الإسلام ، فهى لسان الوحى ولغة القرآن ورباط القومية العربية . ولولا المحافظة عليها لما كان للعرب اليوم كيان يتعارف أو يتحد أو يتوحد . ومن المحافظة عليها تطويرها مع الزمن وتطويعها لقبول الألفاظ المستحدثة والتعبير عن المعانى الجديدة ، وتقريبها من العامية لتضييق ما بينهما من الفروق بتوخى الأساليب السهلة واستعمال الألفاظ الشائعة والمولدة مع المحافظة على الإعراب . وهذا ما يضطلع به الآن مجمع اللغة العربية . أما لغة القصة والتمثيل فيجب أن تـكون الفصحى ، لأن الـكاتب الذى يطمع فى الخلود لا يقصر كتابته على قطر واحد وزمن معين . ولا بأس أن يكون بعض الحوار باللغة العامية إذا اقتضت ذلك طبيعة المتـكلم وبيئته .

(س)

يحرص كل كاتب ، يشعر أنه أدى قسطا كبيرا من رسالته ، على تسجيل حكاية حياته الحافلة فى قصة أو مذكرات أو ترجمة ذاتية . وحتى الآن لم نقرأ لك

(ن)

ترجمتك الذاتية فى كتاب . ولعلك قد كتبت هذه الترجمة كما يقول بعض الأدباء . فهل يمكن أن تذكر لنا الخطوط العريضة لحياتك . . خاصة الجانب الأدبى منها ؟

(ج)

من أحب الأعمال إلى الكاتب إذا تقدمت به السن واقترب من ساحل الحياة أن يجتر مامضى من حوادث عمره وتجارب قلبه بكتابة مذكراته أو ترجمة حياته ، فإن الشيخ كما ستعلم بعد يعيش بالذكرى كما يعيش الشاب بالأمل . وقد حاولت فعلا أن أكتب شيئاً من ذلك فى كتاب سميته « ذكرى عهود » ، أما حياتى الأدبية فقد قضيت فيهازهاء خمسين سنة فى التعليم والتأليف والكتابة والترجمة والصحافة والإذاعة ، ولكنى أذكر منها ثلاث مراحل تميزت بأثر مستقل مباشر .

المرحلة الأولى كانت فى ثورة ١٩١٩ وكنت يومئذ مدرسا للصفوف العليا من المدرسة الاعدادية الثانوية بميدان الظاهر ، وكانت تضم أكثر من ألف طالب من الشبان الناضجين المتحمسين ، فألفوا منهم ومن طلاب مدرسة الحقوق الخديوية لجنة تنفيذية تثير الشعب على الانكليز بتدبير المظاهرات وتوزيع المنشورات وإلقاء الخطب . وكان عملى فيها كتابة هذه المنشورات والخطب بأسلوب ثورى ملتهب لتوزع سراً فى المدن والأقاليم ، فكانت تتداول وتحفظ ، وتحدث من الأثر فى ثورة ١٩١٩ ما أحدثته الأغانى والأناشيد فى حرب بورسعيد .

والمرحلة الثانية كانت فى سنة ١٩٢٩ ، حين انتدبتنى حكومة العراق أستاذا للأدب العربى فى دار المعلمين العليا ببغداد ، فاستطعت بتوفيق من الله أن أخرج طبقة من المعلمين والأدباء كانوا ألسنة صدق لمصر ورواد خير للوحدة . ثم

(س)

كان لما ألقيت من المحاضرات وكتبت من المقالات أثر فى توثيق العلاقات الفنية بين أدبنا وأدب العراق. ولا يزال الساسة والقادة والأدباء يذكرون هذه المرحلة بالخير .

أما المرحلة الثالثة فكانت فى سنة ١٩٣٣ حين أصدرت « الرسالة » . فقد استطاعت هذه المجلة فى مدى عشرين سنة أن تنشىء جيلا من الكتاب والشعراء لهم أثرهم القوى ، وأن تنشىء مدرسة فى الأدب لها طابعها الخاص، وأن تعرف أدباء العرب بعضهم لبعض على انقطاع الأسباب وتباعد الديار ، وأن تجمع القلوب والشعوب على فكرة واحدة وغاية معلومة ، وأن تكون سفيراً روحيا لمصر فى جميع البلاد العربية والإسلامية ، حتى قال الأستاذ مصطفى أمين فى « اخبار اليوم » بعد جولة طويلة فى بلاد الشرق : لو أغلقت الحكومة المصرية عشر سفارات وأبقت مجلة الرسالة لكان خيراً لها وللعرب . وقال الزعيم عبد السلام عارف للإستاذ موسى صبرى : « إننا لم نتلق دروس الوحدة والقومية والأدب إلا عن مجلة الرسالة » .

وهذا فضل يذكر لكل من عاون أو شارك فى تحرير هذه المجلة .

(س)

هناك كثير من الأدباء يتخذون من الجنس موضوعا لأدبهم .. وقد يكون هذا الاختيار هو الطابع العام لإنتاجهم أو صورة مميزة لبعض هذا الإنتاج . .

وهذه القضية تثير موضوع « الأدب والأخلاق » .. فما رأيكم فى نتائج هذه المحاولات بالنسبة للادب العالمى عامة .. وبالنسبة لأدبنا العربى خاصة .. ؟

(ج)

ياسيدى .. إن معركة الحياة من مبدئها إلى منتهاها إنما تدور على شيئين : المرأة والرغيف .. المرأة لبقاء النوع ، والرغيف لحفظ الذات . وإذا كان الكلام

(ع)

فى الرغيف وما يتصل به من وسائل ومشاكل من شأن العلم ، فإن الكلام فى الجنس وما يتصل به من عواطف وغرائز من شأن الأدب .

فدوران القصة والرواية والشعر على الأمور الجنسية أمر طبيعى لا حيلة فيه ولا مفر منه . درج الناس على هذا فى القديم والحديث وفى الشرق والغرب، ولكن الأدب الحق هو الذى يهذب الغرائز ولا يثيرها ، ويرتفع بالعواطف ولا ينزل بها . وذلك هو عمل الأديب الذى اصطفاه الله لرسالة الحق والخير والجمال . والأدب الملفوف أقوى وأبلغ وأصعب من الأدب المكشوف ، وكلاهما أدب من الوجهة الفنية له فى ميزان النقد وزنه وقيمته .

(س)

منذ احتجبت « الرسالة » لم يعد القراء يجدون لكم كتبا جديدة فى المكتبات.. فهل يعنى ذلك أنكم آثرتم البعد عن عالم الأدب فى الآونة الأخيرة ؟

(ج)

الواقع أنى بعد أن قضيت عشرين سنة فى تحرير « الرسالة » أعمل بلا انقطاع ولا راحة ، أدركنى بعد احتجابها مايدرك المسافر من التعب بعد سفر شاق طويل . ثم اتخذ هذا التعب شكل المرض فى الأعصاب والنفس ، فأخلدت قليلا إلى الراحة ، ثم عدت إلى الكتابة فى مجلة الأزهر وبعض الصحف زيادة على عملى فى المجمع اللغوى ،وأخذت أهيىء الأسباب لظهور كتابين أرجو أن يساعدنى الله على إخراجهما وهما « ذكرى عهود » و «عبقرية الإسلام» وسيكون هذان الكتابان كما أرجو خير ختام لحياتى الأدبية .

أوّلُ ما عرفتُ الأدب ...

كان ذلك وأنا في الحادية عشرة من عمري حين حفظت القرآن وأحسنت القراءة وجودت الخط استعدادا للانتساب إلى الأزهر . والأزهر يومئذ هو المعهد العلمي الذي كان الريفيون لا يعرفون غيره ، ولكنني حتى ذلك الحين لم أنتفع بما أحسنت من القراءة والكتابة ، وإنما كان ينتفع بهما (سيدنا الشيخ حسن) معلم الكتاب الضرير ، فقد كان يكلفني بعد انصراف الصبيان أن أكتب له التمائم للممسوسين والمرضى من أهل القرية ، وأن أحفظه قصيدة البردة ليتزعم بها المنشدين أمام الجنائز .

لم يكن في دارنا غير كتابين كان أبي يقتنيهما للبركة : كتاب الله وأنا أحفظه عن ظهر قلب ، وكتاب آخر كانوا يقولون إنه البخاري ولا يسمحون لي بالاطلاع عليه . فلما استقر رأى الأسرة على أن يزوجوا أخي الأكبر امتلأ دولاب المنظرة بالكتب في يوم وليلة . وسبب ذلك أن تقاليد الريفيين في تلك الأيام كانت تقضي عليهم أن يبدأوا العرس قبل ليلة الزفاف بثلاثة أسابيع على الأقل . ولم يكن أهمّ ما يشغلهم في هذه المدة «شوار» العروس أو ثياب العريس فقد كانا لضآلة شأنهما أهون الأمور ، إنما كان شغلهم الشاغل فيها طحن الأرادب من القمح التي أرصدوها لوليمة الفرح . وكانوا يطحنونها قبل أن تخترع المطاحن الآلية في الطاحون التي تديرها الدواب ، وهي تساقط القمح من القادوس حبتين حبتين ، فلا تطحن الكيلة إلا في ساعتين . لذلك كانت مدة الطحن تطول وتمل فاقتضت الحال أن يقصروا طولها باللعب ويدفعوا مللها باللهو ، فكان أهل

أقرأ (سيدنا الشيخ) في المجلد الثالث من وحي الرسالة .

القرية يجتمعون فى دار العريس كل يوم آخر النهار وأول الليل ، فيلعب الفتيان (للصينية والخاتم)(١) ، وتغنى الفتيات على الطبلة والأرغول ، ويجلس الكهول والشيوخ فى الساحة حول الشيخ منصور فينشدهم بصوته النَّدِى الأجش أشعار بنى هلال أو أخبار عنترة .

اشترى أبى لليالى الطاحون الساهرة قصة سيف بن ذى يزن ، وسيرة عنترة ابن شداد ، وألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وانعقد السامر لسماع المختار منها حول القارىء الممثل قرابة شهر ، وكنت فى الصبيان القلال الذين فضلوا سماع القصص والشعر على سماع الغناء والموسيقى . وكان مجلسى بجانب الفانوس الذى يقرأ الشيخ منصور على ضوئه ، فكنت أرى كيف يصور العواطف على قسمات وجهه ، ويمثل المواقف بنبرات صوته ، فأهتز لحماسة الأداء ، وأطرب لطلاوة العبارة ، وألتذ من جاذبية القصة . فإذا انفض السامر بقيت الصور والأشخاص والمواقع ماثلة فى ذهنى مثول الحلم الجميل بعد اليقظة ، تتسع وتنمو وتتلون فتحرك فى نفسى رغبة الاستزادة وشهوة المحاكاة . وأخذ هذا الأثر يقوى ويزداد ليلة بعد ليلة وقصة بعد قصة ، حتى مضت أيام الطاحون ولياليها ، وانقضت ملذات العرس ومباهجه ، فعادت الكتب إلى الدولاب ، وانقلب كل امرىء إلى شأنه ، إلا أنا فقد عدت إلى سيف بن ذى يزن ، أقرأ ما بقى من أجزائه ، وأعيد ما أعجبنى من وقائعه .

وكان فى حارتنا رجل من الصالحين تنفس به العمر حتى لَفَّع الشيب رأسه ولحيته . وكان الشيخ عطا هذا قد كف بصره على الكبر بعد أن غامر فى خضم الحياة بالمجداف والقلع ، فجُند فى قوة السودان ، وسُخر فى حفر القناة ، وعمل

---

(١) انظر شرح هذه اللعبة فى صفحة ٤٨ .

فى (جفلك) على شريف ، حتى قيدته الشيخوخة عن السعى ، وكفاه ابنه الوحيد وابنتاه تكاليف العيش فانقطع إلى الله .

كان أزهر اللون كالترك ، سبط الجسم كالعملاق ، سليم الصدر كالطفل . وكان أميا على الفطرة ، ولكنه كان مجبولا على نوع من الذكاء الهادىء والمنطق الرزين ، فتعلم بالتجربة ، وتأدب بالسماع ، واستفاد من كثرة التنقل ومن طول الأجل فحصل جملة مما سار على الأفواه من الأمثال والأزجال والأقاصيص ، فإذا حكاها نسب كل مثل إلى لقمان ، وكل زجل إلى ابن عروس ، وكل نادرة إلى جحا . وكان أنس الحارة من الوحشة وأمنها من المخافة حين يخرج أهلوها مبكرين إلى الحقول ويبقى هو فى مجلسه للهيب أنيس الطلعة بين ملعب الأطفال ومقعد النسوة . كانت زوجه العجوز ورد الشام تفرش له الحصيرة أمام الدار فى ظل الجدار وتضع على رأسها المخدة الغليظة ومن ورائها القلة الحمراء ، ثم يأتى هو بعد صلاة الضحى أو بعد صلاة العصر من المسجد يدب على عصاه حتى يبلغ مجلسه المعهود فيخلع بلغته على طرف الحصيرة ، ويلقى عكازته بجانب الحائط ، ثم يجلس فى سكون وصمت ، فلا يتحرك إلا ليطرد ذبابة ، ولا يتكلم إلا ليرد تحية . وكان كلما جلس هذه الجلسة حدثت حركتان متضادتان فى وقت واحد : يبتعد الأطفال حتى آخر الحارة ليأمنوا شر زوجته ، ويقترب كلبه الأبقع الضخم حتى يربض بجانب بُلغته .

سمع صوتى ذات يوم فدعانى . فلما أقبلت عليه قال : إنك ختمت القرآن ، ولا بد أنك فككت الخط ، فهات قصة عنتر وتعال .

وصادف هذا الطلب هوى فى نفسى فذهبت إلى الدولاب ، ورجعت إليه بالجزء الأول من هذا الكتاب ، وقعدت بازائه وجعلت أقرأ .

كنت أتعثر فى أول الأمر فأتوقف ولا أنطلق ، ويتخلف ذهنى عن لسانى فأقرأ ولا أفهم . وكانت الجملة تستغلق على فهمى وفهمه فيستعيدها حتى تتفتح على صواب أو خطأ . وكان قد سمع القصة مرة أو مرتين فى عمره الذاهب فعرف أعلام الأشخاص وأسماء الأماكن وأسباب الحوادث فكان يوضح ويصحح على مقدار علمه .

لذتنى القصة وأعجبنى الأسلوب وسحرنى الشعر فملأت فراغى كله بالقراءة له ، حتى انتهينا من عنترة وبدأنا فى ألف ليلة وليلة . وكان يضيق صدره بالشعر فيطلب منى أن أتركه ، ولكننى كنت أستلذه وأستسيغه فأعود إليه وحدى فأنظر فيه وأحفظ منه .

وقضيت أنا وشيخى عطا سنة على هذه الحال قرأنا فيها القصص الشعبية كلها قصارها وطوالها ، والقصص تتكرر أو تتشابه ، فحفظت الكلمات والتعابير ، وفهمت الاستعارات والتشابيه . ثم أحسست أن فراغا فى رأسى قد امتلأ ويريد أن يفيض ، وأن أجنحة فى مخيلتى قد ارتاشت وتهم أن تطير ، فبدأت أنظم الشعر ! أستغفر الله ! أكتبه ولا أنظمه ، فإن النظم يقتضى الوزن ، والبيت الذى كنت أقوله لم يكن له من الشعر إلا بياض فى وسطه وقافية فى آخره .

واطلع على شعرى المقفى غير الموزون عمدة القرية ، وكان رجلا صافى الذهن لطيف الحس ، يدمن القراءة والدرس ، ويولع بالأدب والتاريخ ، فشجعنى على النظم فى كل مناسبة ، وعلى الانشاد فى كل حفلة ! وصدّق أبى رحمه الله أنى شاعر فأهدى إلى ديوان المتنبى ، فكان أول كتاب أقتنيته ، وأول شاعر أحببته .

أما النثر فلم ألق بالى إليه إلا بعد عام من محاولتى للشعر حين أصدرت

فى القرية مجلة عنوانها (الانتقاد) وموضوعها مدح العمدة وذم خصومه بالمقال والقصيد والزجل . كنت أكتب منها نسخة واحدة بيدى ، وأقرؤها للمشتركين بنفسى ، ثم توقفت بانتقالى إلى القاهرة عند عددها الرابع .

وهكذا دخلت الأزهر وأنا كبعض الأدباء اليوم : شاعر لا ينقصى إلا العروض ، وكاتب لا يعوزنى إلا النحو !

ولعلى بعد ما أفدته من القصص الشعبية التى كونت ملكتى الأدبية لم أفد من علوم اللغة وكتب الأدب إلا ضبط أسلوبى بالقواعد ، وتوسيع أفقى بالاطلاع ، وترقية ذوقى بالنماذج الرفيعة .

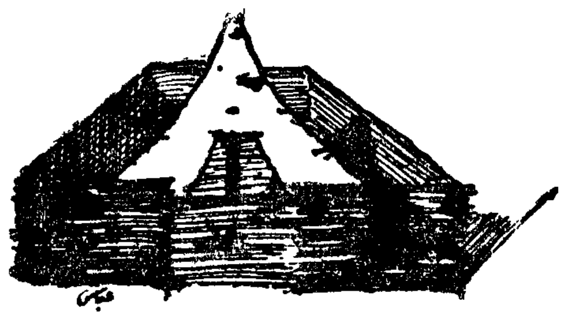

قرآنُ الفَجْر

سهرت بجانب المذياع ليلة أستمع إلى أم كلثوم فى حفلتها الإذاعية الشهرية ، وكان صوتها ينبعث من الجهاز رخيما عذبا فيملأ جوانب نفسى وحسى كأنما كنت أسمعه بجسمى كله . فإذا انقطعت (الوصلة) أخذ المذيع يثرثر بالفارغ وبعض الملآن فينقلنى من نشوة النغم المرفه إلى صحوة السأم الممض ، حتى أقبلت هوادى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغناء فى وصلتها الأخيرة . وكان الشارع قد سكن ، والبيت قد نام ، والمذيع قد فتر ، فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب فى مسمعى نقيا كرنين الفضة ، نديا كترجيع البلبل ، تقيا كتسبيح الملائكة ، فاعترتنى حال من الصوفية الشاعرة ، فيها الحب والشوق ، وفيها الفناء والعبادة . حتى إذا انتهى الغناء الآسر ، وانفض السامر النشوان ، أويت إلى مضجعى ألتمس للنوم فامتنع على ، ووجدت بى نزوعا إلى اجتلاء الطبيعة فى مجتلاها الرحب ، فصعدت إلى سطح البيت المنعزل وأرسلت عينىّ تجولان حول البيوت المظلمة النائمة ، ومن ورائهما خيالى ينفذ من وراء الجدُر والستور إلى أعماق شتى من الناس تفاوتوا فى الحظوظ وتباينوا فى الأحوال ؛ فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعوده طيف ولا يزعجه حُلم ! ومن شجى يسامره الهم ويساوره القلق فلم تكتحل عيناه بغمض ؛ ومن مريض يتململ على فراشه النابى فلا يسكن إلا ليتقلب ، ولا يسكت إلا ليئن ؛ ومن حبيب يخلو إلى حبيبه خلوة النوال بعد الرغبة ، أو الوصال بعد القطيعة ، وثالثهما شيطان يحرض أو ملك يحرس ؛ ومن زوج يسكن إلى زوجه سكون للودة والرحمة ، وتحت جناحيهما فراخهما الزغب ينعمون بالنوم السعيد فى العش الهادىء الدافى ؛ ومن مجرم يطوى أحناء صدره على السوء ، فهو يبيِّت بليل ما سيقترف غداً من العــــدوان والإثم ، ولا يجد من ضميره الغافى حسابا

على ما اقترف بالأمس من المنكر والبغى ؛ ومن مؤمن قضى موهناً من الليل يتهجد بالصلاة ويتعبد بالذكر ، ثم غفا قليلا ليهب على نسيم السحر ودعاء المؤذن إلى بيت الله القريب . كل هؤلاء ضمنتهم هذه البيوت المتجاورة المتغايرة كما تضمن السرائر نوازع القلوب ونوازى الأنفس فلا يعلمها إلا الله الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم نظرت نظرة فى النجوم وهى تسبح فى أفلاكها بين متألق وخاب ، ودان وقاص ، وصاعد ومنحدر ، فتواردت على خاطرى مختلف الآراء التى استقرت فى أذهان الناس عنها فى القديم والحديث ؛ فقد اختلفوا فى النظر إليها كما اختلفوا فى النظر إلى حقائق المعانى الثابتة كالحق والعدل ، كل يفهمها على حسب ما يستفيد منها أو يعلم عنها أو يتأثر بها ... فالمؤمن يراها مصابيح الدجى ومعالم الهدى ورجوماً للشياطين . والشاعر يراها لآلىء قد رصعت رقيع السماء ، أو أزاهر بيضا قد طفت على وجه الماء . والبدوى يراها صوراً من الأحياء على هيئة الإنسان والحيوان والطير ، تحب وتبغض ، وتسالم وتحارب ، فهو يضع لها الأسماء ، ويسرّج حولها الأحاديث ، ويؤلف عنها الأساطير ، ويقول فيها الشعر . والمنجم يراها مطالع السعد والنحس ، ومفاتح السر والغيب . والعالم يراها أجراماً هائلة تجرى فى الفضاء بتقدير العزيز العليم ، فيها الجبال والأغوار والأخاديد ، وليس فيها الجمال ولا الحياة ولا التأثير ولا الأمل . فهل آن للعلم الروسى أو الأمريكى أن يجوس بالإنسان خلال هذه الكواكب فيرود المجهول ويعلم الغيب ويحتل السماء ، وتصبح العوالم الأخرى مدبرة بمشيئته مسخرة لأمره ؟

* * *

كنت مشغولا بفكرى وخيالى فى الكونين الأدنى والأعلى حين وقع فى مسمعى تسبيح المؤذن على مأذنة (قايتباى) ، فصدت من التفكر فى الملكوت

إلى التفكر فى المسالك، وانتقلت من التوجه إلى المخلوق إلى التوجه إلى الخالق . وانبعث آنئذ من جانب البيت الملاصق صوت خاشع يقرأ سورة الإسراء بتجويد بين وترتيل حسن ، وكان القارىء المتهجد قد بلغ فى قراءته قول الله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً » فأصغيت بسمعى وقلبى إلى كلمات الله وهى تصعد إليه من فم هذا الرجل فى جلوة السحَر وخلوة المكان وقد سجا الليل ، ورق الظلام ، وعمق النوم ، واختلط سنا (الزهرة) بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقى ابيضاض اللؤلؤ ؛ وتجاوب أذان المؤذن وترتيل المرتل تجاوب الوحى والدعوة ، فذكرت بالقرآن الله الذى أوحى . وبالأذان الرسول الذى بلغ . واتحد الصوتان فى نفسى بصوت إيمانى القوى بالموحى والمبلغ ، ففنى وجودى المادى فى وجودى الروحى ، فلم أعد أشعر بالفلك ولا بالزمن ولا بالعالم . وامحى من مسمعىّ ما كان يشغلهما من الأصداء الملحة لشدو أم كلثوم ولحن السنباطى ونظم رامى . وبقيا فارغين خالصين لسُبحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانهما بقوة ولذة واستيعاب ، فيسريان فى كيانى ووجدانى مسرى البرء فى السقم ، أو الروح فى البدن ، أو الإيمان فى القلب ، لا لحسن الصوت ولا لجمال الإيقاع ، ولكن لشعور سماوى لا تدركه حاسة ، ولا تصفه لغة ، ولا يعرفه إلا من وقف هذه الوقفة مستحضراً فى ذهنه جلال الله ، مستشعراً فى نفسه جمال الطبيعة ...

انا لنسمع القرآن والأذان فى كل يوم وفى كل صلاة ؛ ولكننا حين نسمعهما لا نجد فى أنفسنا تلك الجلوة التى تنشأ عن الصفاء ، ولا ذلك الاستغراق الذى يصل ما بينها وبين السماء . ذلك لأن مشاعرنا تكون فى النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لمواحى الروح فى العالم الآخر .

أما الاستماع إليهما وقد هب للمتقون من إغفاءة الفجر اللذيذة حين لا يكون المرء إلا روحاً تَمض وفكراً يجول وخيالا يحلق ونفساً تصلى ، فتلك هى ساعة التجلى ، ساعة يندمج فيها الشاهد فى المشهود ، وينفصل العابد بالمعبود ، و يشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور السطح أنه شعاعة من نور الله إذا انقطعت عن مدده خمدت ، وهباءة فى فضاء السكون إذا أفلتت من جذبه فقدت !

* * *

وقف القارىء عند قول الله تعالى اسمه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيراً . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » حين قال المؤذن : حى على الصلاة ! حى على الفلاح ! ألصلاة خير من النوم . الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ! ثم غابت غرفة القارىء ومنارة المؤذن فى السكون الشامل ، وأخذ الفجر ينسج من خيوطه البيض غلالة شفة على وجه المشرق ، وأخذ الصبح الجميل يتنفس رويداً بين فرعى النيل الكبير والصغير من منيل الروضة ؛ وبدأت القاهرة الراقدة تتثاءب وتتمطى استعداداً لليقظة ، فسمعت من قريب سيارة نقل تتحرك ، ومن بعيد قطار حلوان يصفر ، فهبطت من السطح لأقيم صلاتى وأدرك قليلا من النوم ، قبل أن أبدأ عمل اليوم !

المعركة التي أنقذت الإسلام والعروبة

— ١ —

أيام النصر كواكب سعد تتألق فى ليل جهادنا الداجى الطويل ، أو هى أعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنا الجليل الحفيل ؛ فيوم بدر ، ويوم مكة ، ويوم اليرموك ، ويوم القادسية ، ويوم حطين ، ويوم المنصورة ، ويوم رشيد ، ويوم بورسعيد ، مراحل هادية فى طريق الركب البشرى نقلته كل مرحلة منها إلى منزلة من منازل الكمال الاجتماعى ؛ من الشرك إلى الوحدانيـة ، ومن الرق إلى الحرية ، ومن همجية الفوضى إلى مدنية النظام ، ومن فرقة الجهالة إلى ألفة السلام ، ومن قيادة الهوى الحاكم إلى سياسة العقل الحكيم ، فالاحتفال بذكرياتها احتفال بكرامة الإنسان وغلبة العدل والإحسان وسيادة العلم والنور .

وقد احتفلت جمهوريتنا منذ أسابيع بيومى رشيد وبورسعيد ، وستحتفل فى الثامن من هذا الشهر : شهر فبراير بيوم المنصورة ، وهو اليوم الأغر الذى صدق الله فيه وعده المسلمين فانطفأت على مياه (البحر الصغير) آخر حرب أوقد نارها الاستعمار الكافر باسم الصليب البرىء على أرض الكنانة فأنقذ الأمة الوسط من عاقبة كعاقبتها فى الأندلس مع الفرنج ، ومن كارثة ككارثتها فى العراق من المغول .

— ٢ —

كان العرش العباسى فى منتصف القرن الثالث عشر الميلاد قد زعزع المغول قوائمه وأوشكوا أن يقوضوه ، وكان الوطن العربى قد مزقته المطامع وكاد أهله أن يفقدوه ، وكان آل الصليب ممن وترهم صلاح الدين فى حطين يجمعون الأهبة ويتحينون الفرصة لاسترداد بيت المقدس بالعودة إلى غزو الشام وفلسطين ؛ ورأى

لويس التاسع ملك فرنسا أن الفرصة قد واتته بهجوم التتار على العراق . وعبث الحشاشين فى الشام ، وتنازع الأيوبيين فى مصر ، فاعتزم الغزوة الصليبية السابعة . ونصح له أصحاب رأيه ، وأركان حربه ، أن يستولى أولا على مصر ، لأنها معقل الإسلام وموئل العروبة ، والاستيلاء عليها يفتح الطريق إلى فلسطين وسورية والعراق فيدخلها من غير حائل ولا وائل . أليست مصر هى التى سحقت الصليبيين فى حطين فأنقذت دين الله ، وصدت التتار فى عين جالوت فأنقذت تراث محمد ؟

هنالك دعا القسيس لويس ومن شايعه من أقطاب النصرانية إلى الغزو الأمراء والفرسان وعشاق المغامرات ممن يطمعون أن يكون لهم فى مصر إقطاعيات وإمارات على نحو ما كان لأسلافهم فى بلاد الشام وشمال العراق منذ قرن ونصف . فاجتمع إليهم من فجاج الأرض زهاء خمسين ومائة ألف فارس ، واحتشد لديهم من موانى البحر ألف وثلاثمائة سفينة ، وأبحروا إلى مصر بهذا الجيش العرمرم فى هذا الأسطول الضخم ، يسوقهم الإيمان الأعمى ، ويقودهم الطمع الجشع ، ويرشدهم ضلال من سبقوهم من الغزاة المغلوبين ، ويحرضهم الثأر لمن صرعهم صلاح الدين . ولو أن الجد الناهض كان فى صف العدو لوقعت مصر والشرق العربى كله فى قبضة فرنسا منذ سبعة قرون ، ولا استحال على العرب وهم تحت سلطانها المميت المدمر أن يدركوا معنى الوجود إلى يوم الناس هذا ؛ ولكن موقعة المنصورة وهى حطين الثانية كانت كلمة من وعد الله الصادق بالنصر لحماة دينه ، فحولت مجرى التاريخ ، وغيرت وجه الأحداث ، وألقت إلينا بمقاليد القدر .

— ٣ —

فى أواخر سبتمبر من عام ١٢٤٨ م أرسى أسطول القديس لويس على شواطى (ليماسول) ميناء قبرص ، فنزل منه الفوارس الغلاظ الشداد عليهم

القمصان البيض والصلبان السود ، فسطعت فى أنوفهم من بعيد ريح الخمر القبرصية وما ينتشر حولها من وهيج الشواء وأريج النساء وفوحة الزهر ، فتلقاهم ملك الجزيرة (هنرى) بما يشتهون . فلبثوا يقصفون ويفسقون ثمانية أشهر جعلوا قبرص كلها فى هذه المدة ماخورا كبيرا وحانة عظيمة ! وكان الملك القديس فى أثنائها يجمع المئونة ويكمل العدة وينتظر من تخلف عنه من هواة الإقطاع ، ويستقبل من وفد عليه من سفراء المغول ، ليحالفوه على قبض النفوذ المصرى من الشرق بعد أن استحال عليهم ذلك . فلما قرروا الإبحار إلى مصر كتب لويس إلى ملكها الصالح نجم الدين أيوب كتابا ينذره فيه بالهجوم جريا على سنن الفروسية فى العصر الوسيط جاء فيه على ماروى المقريزى :

« أما بعد : فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنى غير مخف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء . . . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل وعددهم كعدد الحصى » .

فرد عليه الملك بجواب من إنشاء القاضى الشاعر بهاء الدين زهير نقتطف منه قوله :

« . . وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، وستعض أناملك ندما فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، ونعود إلى قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . »

— ٤ —

رسا الأسطول الفرنسى على ساحل دمياط فى اليوم الرابع من شهر يونيه

من السنة نفسها وكانت غير محصنة فاحتلتها ، ودخلها الفرنسيون دخول الطاعون الوافد ، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها وراء القائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ وتركوا منازلهم معمورة بالأرزاق ومتاجرهم مغمورة بالبضائع ، فرتعوا فيها رتوع الخنازير ، واشتغلوا بها اشتعال الجرذان ، وحول الجيش المدارس مواخير والساحات مراقص ، كما حول الملك لويس المسجد الجامع كنيسة للعذراء ، والمساجد الأخرى كنائس القديسين . وحصن القواد الأسوار ، وشيدوا الأبراج ، وأعدوا وسائل الدفاع . وظل القائد القديس يقيم القداديس ويقدم القرابين وجيشه يقيم المراقص ويأتى الفواحش أربعة أشهر ، ثم قرروا المسير إلى القاهرة عن طريق المنصورة

وكان جيشنا يستعد فى القاهرة للدفاع ، وشعبنا يتجمع فى الدلتا للهجوم . وآلاف المتطوعين يتقاطرون على معسكرات العدو يتغفلونهم بالليل ويتخطفونهم بالنهار .

ورأى القواد المصريون أن يحاصروا الغزاة فى الدلتا وألا يخلوا بينهم وبين القاهرة ، فتقدم الملك الصالح الجيش إلى المنصورة وهى قلعة مصر الشمالية ونزل بقصرها ليكون على مقربة من المعركة .

وبين عشية وضحاها انقلب هذا الشعب الأصيل الحر من فلاح يحرث وصانع يعمل وتاجر يبيع وعاطل يلهو ، كتلة واحدة من البأس تتسعر شوقا إلى الحرب ، وتفور حقدا على العدو ، وتبذل كل ما تملك فى سبيل الذياد عن الوطن والدفاع عن استقلاله . وأعجب العجب أن بلاء المتطوعين كان أشد وجهادهم كان أصدق .

تجمع الجيش النظامى فى المنصورة وانتشر المتطوعون حول جيش العدو فى الموقع المثلث الذى اختاره بين الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة ، والشمال الغربى من فرع دمياط ، والجنوب الشرقى من بحر أشموم طناح ، وكانت قيادة

العدو قد عسكرت فى شِبر مساح والبرمون ، فلم يكن بين الجيشين من فاصل إلا (البحر الصغير) وكان النيل لا يزال فى فيضانه . وتعذر على الفرنسيين عبور البحر الصغير فظلوا يكابدون هجوم العصائب من المجاهدين المتطوعين فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . ولهؤلاء الفدائيين آيات من التضحية والبطولة سجلها مؤرخو هذه المعركة . منها أن أحدهم قور بطيخة ووضع رأسه فيها ثم سبح فى النهر غائصاً حتى اقترب من الشاطىء الشرقى ، فنزل أحد الصليبيين ليأخذ البطيخة فسحبه المصرى وعاد به سابحاً إلى المعسكر .

فلما أعيا الفرنسيين الأمر لجأ ملكهم إلى الصلاة ، فيقال : إن من (كراماته) أن أعرابيا خائنا طمع فى مالهم فدلهم على مخاضة فى النهر عند (سلامون) فخاضها فريق من الجيش بقيادة الكونت دارتوا أخى الملك ، وباغتوا المصريين بالمدينة فى اليوم الثامن من شهر فبراير عام ١٢٥٠ فوقع الاضطراب وعم الفزع واغتيل القائد فخر الدين حتى قال ابن واصل المؤرخ ، وكان فيمن جاهد وشاهد : « انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام ، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرق الإفرنج فى الأزقة » . وتولى القيادة بيبرس فحصر بالمماليك البحرية الجيش المهاجم فى شوارع المنصورة الضيقة ، وأخذوهم بالسيوف والدبابيس ، وتلقفهم الأهلون قذفا بالحجارة وضربا بالحديد وخطفا باليد ، فلم يدروا كيف يتقون المنايا وقد تخطفتهم من كل مكان ، فهلكوا جميعا وفيهم (دارتوا) . وطلب الجيش والشعب بقية الصليبيين جنوب النهر ، فالتحم الفريقان وتعاقب بينهما المد والجزر . وكان الأسطول المصرى قد شارك فى القتال فحصر مراكب العدو فى النيل وقطع ما بينها وبين جيشه ، فعز القوت وفشت المجاعة وانتشر الوباء واستحر القتل ، ففقد الصليبيون أربعين ألف قتيل ومائة ألف أسير ، فلم ير ملك فرنسا بدا من أن يتقهقر هو وأركان حربه إلى

(منية أبي عبدالله) وأن ينزل في بيت امرأة فرنسية كانت من أهل ضواحي باريس ، ثم استسلم واستأسر . وتفاوض المصريون والفرنسيون في شروط الهدنة ، فاتفقوا على أن يسلم هؤلاء دمياط ، وأن يفدوا ملكهم بثمانمائة ألف دينار ، وأن يسجن حتى ينفذوا هذه الشروط .

— ٥ —

اقتيد الملك لويس التاسع هو والكونت أنجو ، والكونت بواتو ، إلى دار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء وكلف الطواشي صبيح بالقيام على أمره ، فلبث في السجن حتى ردت دمياط وأديت الفدية ، فحمل هو ومن معه على سفينة جنوية أقلتهم إلى عكا ، والمصريون يودعونه بهذه الأبيات التي قالها جمال الدين بن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به في ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكمو يستريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح .
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

وقد أجاب الله دعوة الشاعر فعاد حفدة لويس إلى ديارنا يرتكبون الجرائم ، وانتقلت دار ابن لقمان وقيدها وطواشيها من مصر إلى الجزائر !

مَثلٌ مِنَ الإلحادِ الأحْمَر

منذ أسبوعين اثنين أذاع راديو موسكو حديثاً للمحرر الأول فى مجلة العلوم السوفييتية قال فيه : إن القمر الروسى الذى انطلق أخيراً بين أجرام السماء مزوداً بالأجهزة العلمية الدقيقة التى تبصر وتسمع وترصد لم يرسل بين أنبائه ما يثبت من قريب أو بعيد تلك الدعوى التى ادّعتها الأديان المختلفة من وجود ملكوت أعلى فى السماء يستوى على عرشه إله ، وتحف من حوله ملائكة ، ويطوف بأبوابه رسل ، وتقوم على أرجائه الجنة والنار ، وتصدر عن محكمته الأقضية والأقدار . فلم يكن هناك إذن إلا وهم جسمه الجهل فى عقول الناس ، أو خداع تذرع به الطامحون إلى ملك الأرض ! !

وليت شعرى ماذا كان ينتظر هذا الأحمق الأحمر من قمره أن ينبئه به ؟ أكان ينتظر منه أن يقول له إنه رأى الله جالساً فوق كرسيه فى السماء ، وسمع الملائكة وهم يسبحون الله فى غيابات الفضاء ، وشم روائح الأجساد وهى تحترق فى سعير جهنم ، وذاق ثمار الجنة وهى تتدلى من شجر الخلد ، ولمس خدود الحور وهن يتخطرن فى خمائل عدن ؟

قطعة من الجماد يبلغ وزنها طنا وبعض طن ، أفلحوا فى قذفها إلى ما وراء الجاذبية الأرضية فاتخذت لها مداراً اضطراريا حول الأرض أو حول القمر ، فمجالها محدود وبقاؤها موقوت ، وما كان محصور المكان أو موقوت الزمان استحال عليه أن يحيط باللانهاية أو يشعر بالأبدية .

وماذا تعرف الهباءة عن الأفق الذى لا ينتهى ، أو القطرة عن المحيط الذى لا يحد ؟ !

إن الإله الذى (وسع كرسيه السموات والأرض) لا يجوز فى العقل أن يحتويه منها موضع ، وإن الجنة التى (عرضها السموات والأرض) لا يدخل فى الإمكان أن يستوعب طولها موقع ، وإن (اللعبة) التى تطفل بها العلماء على مسابح الأجرام إنما تمسكها قدرة الله لا قدرة الإنسان ، وتديرها قوة (النظام) لا قوة العلم ، فهى شاهد إثبات لا شاهد نفى ، ودليل إيمان لا دليل كفر ، ولكن المسألة ليست مسألة عقل ولا علم ، إنما هى الشيوعية التى كفرت بالله وآمنت بماركس ، وفرطت فى الروح وأفرطت فى المادة ، وأرادت أن تسلب بنى آدم فى جميع أقطار الأرض نعمة الحرية وعزة الإرادة ولذة الاقتناء ، لتجعلهم قطيعا واحداً من العُبدان على جباههم سمة (المطرقة والمنجل(١)) ، يعملون كما تعمل الآلات ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، ثم يهلكون كما تهلك الدواب . وتلك هى حياة كل شيوعى وحاله : أرض ولا سماء ، ويوم ولا غد ، وطريق ولا غاية ، وعمل ولا تبعة ، ودنيا ولا آخرة ! !

* * *

لقد رأت الشيوعية أن الأديان هى العقبة الكأداء فى سبيل إرادتها وقيادتها ، فجعلت همها الأول إطفاء النور الإلهى فى القلوب بإشاعة الإلحاد ونشر الإباحية وتسليط الغرائز وتحكيم الشهوات وإثارة الفتن ، لتكون النفوس مهيأة بعد ذلك لقبول كل مبدأ وسلوك أى مسلك . وكان الإسلام هو عدوها الألد ، لأنه الدين العملى الذى ينظم الدنيا بالدين فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فألف بين القلوب ، وآخى بين الناس ، وساوى بين الأجناس ، وعالج الفقر وهو علة العلل بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب ، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب : عالجه بالسفارة بين الغنى والفقير على أساس الاعتراف بحق الملكية والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يُدفع مالك عن ملكه ، ولا يُعارَض حر فى إرادته ، وإنما

(١) المطرقة والمنجل : شعار الشيوعية

جعل للفقير فى مال الغنى حقا معلوما لا يكمل دينه إلا بأدائه . فالأرض التى تشرق بهذه المبادىء لا تستطيع خفافيش الشيوعية أن تعيش فيها . لذلك هبأت لهدم الإسلام قوى الباطل وأسلحة الضلال فافترت عليه الأكاذيب . وطيرت حواليه الشكوك ، وقالت فى كتبها وصحفها وإذاعتها : إن الإسلام لا يعرف العدل لأن القرآن يقول : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ولا يعرف المساواة لأن القرآن يقول : « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » . ولا يعرف الحرية لأنه قيد كل شىء بقيد : قيد الرزق بالملكية ، وقيد المرأة بالزوجية ، وقيد تصرف النفوس بالعقيدة ، وقيد تداول الأموال بالإرث ، وزعمت أنها براء من كل هذه (النقائص) لأنها تقول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل شهوة طليقة ، فالمزارع والمصانع والنساء وسائل عامة للإنتاج العام ، يعطى كل على حسب كفايته ، ويأخذ كل على حسب حاجته .

وهكذا يزعم الشيوعيون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه على تقسيم رزقه ، فهم لذلك ينكرون دينه ، ويغيرون شرعه ، ويحاولون أن ينسخوا ما خلفه الأنبياء والحكماء من الشرائع والعقائد والقيم ، ليأتوا بنظام آخر لا يقصدون به العدل المطلق ولا الخير العام ، وإنما يقصدون به طغيان بشر على إله ، وسلطان شعب على عالم .

وما أدرى لم كتب الله على العراق الحبيب أن يكون فى ماضيه وحاضره مباءة للنحل الشاذة والمذاهب الهدامة ، تنبت فيه كالنبات السام ، أو تفد إليه كالوباء الفاشى ، ثم تنتقل منه فتهدد روح الإسلام ، وتبدد شمل العروبة ؟

قال القرامطة فيه بالأمس ما يقول الشيوعيون فيه اليوم : (لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح) وكان أول من بذر هذه البذرة الخبيثة فى الشرق الإسلامى بابك الخرمى فى القرن الثالث من الهجرة ، ومن بعده عبد الله

ابن ميمون ، ومن بعده الحسن الصباح شيخ الجبل ؛ وأغروا بثمارها المحرمة عباد اللذة ورواد المنكر من ضعاف العقول وصغار الأنفس ، وأمعنوا فى الغى والضلال ، واشتركوا فى النساء والأموال ، وفى سبيل ذلك نشروا الإرهاب وبددوا النظام وزعزعوا الأمن .

* * *

وفى هذه الأيام تجددت فى العراق البابكية باسم الشيوعية . فدعت إلى الإلحاد والإباحية جهرا بعد الخفوت ، وقهرا بعد الحيلة . وأخذت تهاجم الله وكتابه ، والإسلام وأهله ، بسفاهات من القول البذىء والفعل الفاحش ، وهى فتنة حمراء لن يحترق فى لظاها إلا الطامعون الخداعون الذين أضرموها بثقاب الشعوبيين ووقود الروس ، ولكن الإسلام الذى تغلب على كل نحلة وفتنة نجمتا فى العراق من قبل ، سيتغلب على هذه الفتنة اليوم ، فإن له منبعين من كتاب الله وسنة رسوله لا يزالان يتدفقان بالصفاء والطهر ، فكلما تلوثت مجاريه البعيدة ، بمثل هذا الدنس أقبل الفيض الإلهى فطهر ماؤه النقى كل رجس ، وجرف تياره القوى كل حاجز . « فأما الزبد فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

مِنَ الفتوة الإسلاميَّة

— ١ —

روعت أوربا وأخذها للقيم المقعد حين علمت أن صلاح الدين قد استرد مدينة القدس وقوض مملكة اللاتين فى فلسطين وسورية . وورد على انجلترا وفرنسا من قوة الجيش المصرى وقدرة العاهل الأيوبى ما أقلقهما على حاضر الإقطاع الصليبى فى الشام ، ومستقبل الاستعمار الأوربى فى الشرق ، فألبتا عليهما الفروسية المسيحية بقساوتها وضراوتها وتعصبها وحقدها وغدرها لتقلم أظفار الجيش الظافر ، وتحبس عنان القائد الطموح . وكان موقف فيليب وريكاردوس من صلاح الدين هو موقف حفيديهما جى موليه وإيدن من جمال عبد الناصر . والسبب الأول للموقفين واحد ، هو خطر الجيش المصرى القوى على الغزو الصليبى الذى بدأ فى آخر القرن الحادى عشر واستمر حتى منتصف القرن العشرين ! .

أقبلت جيوش الغزوة الصليبية الثالثة إلى الشام سنة ١١٨٩ م يقودها سبعة وعشرون ملكا وأميراً يتقدمهم فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريكاردوس قلب الأسد ملك بريطانيا ، وفريدريك باربروس ملك بروسيا ، فبدأت بحصار عكا ، ثم انتهت بعد ثلاث سنوات بهدنة الرملة . وحسبى من حديث هذه الغزوة أن أجلو لك من صفحاتها صفحة الفتوة أو الفروسية التى تجلت فى شجاعة صلاح الدين وشهامته ونبله :

طلب إليه الملوك الصليبيون قبل القتال أن يجتمع بهم ليسمع منهم ويسمعوا منه . فسار إليهم فى كتيبة من أقوياء جنده وسألهم ماذا يريدون . فقالوا له : إن أوربا رمتك بما لا قبل لك به من ملوك وجيوش وقادة . وإن من الخير لك ولقومك أن تجلو عن بيت المقدس وإلا ذقت وبال أمرك .

فقال صلاح الدين : إنكم تعتزون بكثرة العدد ونحن نعتز بقوة الإيمان ، وإنكم تحبون الدنيا وتتعلقون بها ، ونحن نحب الآخرة ونعمل لها . ولن ينتصر من أحب الحياة ، ولن ينهزم من طلب الموت .

فنهض ملك انجلترا من بين الملوك وقال للترجمان : قل لصلاح الدين : إنى أنا قلب الأسد والقوة عندنا هى كل شىء . وسأريه البرهان . ثم دعا بقضيب من الحديد قطره ثلاثة سنتيمترات ووضع طرفه على منضدة وطرفه الآخر على منضدة ، ثم سل سيفه وأهوى به على القضيب فاخترطه نصفين . ثم عاد إلى مكانه بين تصفيق الحضور ولغده منفوخ وأنفه شامخ . فضحك صلاح الدين ضحكة المستهزىء وقال لريكاردوس : ليست الحرب صلابة سيف وقوة ساعد . وإنما الحرب مضاء حد وسداد يد . ثم أخرج من منطقته منديلا من الحرير الرقيق وقذف به إلى أعلى ثم تلقاه بسيفه فشطره . ثم تناول شطرى المنديل بشباة سيفه وألقاهما فى حجر قلب الأسد وهو يقول : بمثل هذا السيف سنلقاكم غداً ! وانصرف وترك الملوك والفرسان مبهوتين مشدوهين ينظر بعضهم إلى بعض وقد استولى عليهم صمت عميق . ثم انفجروا معجبين بصلاح الدين حين حاول ريكاردوس أن يقطع المنديل بإمراره على حد سيفه فلم ينقطع !

— ٢ —

قال العماد الأصفهانى كاتب صلاح الدين فى كتابه (الفتح القدسى) : « وصلت فى مركب ثلثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متزينة ، قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجرائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء ، وأنهن لا يمتنعن من العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، ولا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، فعجبوا كيف

تعبدوا بترك النخوة والحمية » . ومضى العماد يذكر ماذا كان يفعل أولئك النسوة فى استغواء الأغرار واستراق الأخبار واستلاب الأنفس . وتكتيب الغوانى فى جيوش الاستعمار سياسة سنتها فرنسا ونهجتها انجلترا ، وصادفت هوى فى نفوس الصهيونيين فطبقوها على نطاق واسع فى السياسة والتجارة والحرب ، ولا يزال إخواننا الفلسطينيون يذكرون سوء عقباها فى التمهيد لقيام إسرائيل !

* * *

كان بين هؤلاء الحسان المجندات فتاة استخلصها الملك ريكاردوس لنفسه ، فكانت تقوم على خدمته فى خيمته ، وتعنى براحته مع أخته وزوجته ، وكانت الفتاة على حظ عظيم من جمال الوجه ورقة القلب وخفة الروح ، فأحبها قلب الأسد كل الحب ، وأخلصت هى له كل الإخلاص ، فكانت عينه على أقرانه وأذنه بين قواده ، فعلمت من طريقها الخاص أن فريقا من القادة قد ضاقوا بحدة طبعه وشراسة خلقه فائتمروا به ليقتلوه . فأخبرته بما علمت ، فاتهم الخبر وأبى أن يصدق أن أحداً من خلق الله يجرؤ على مواجهته بالسيف . وكان من عادة ريكاردوس أن يطوف بالليل على قواده وأجناده ليتعرف حالهم ويطمئن بالهم . فافتقدته الفتاة فى خيمته ذات ساعة من الليل فلم تجده . فخرجت تبحث عنه فضلت الطريق ودخلت فى معسكر المسلمين ، فظنها الحراس جاسوسا فرماها أحدهم بسهم فسقطت على الأرض تتلوى وتئن . واتفق حينئذ أن مر صلاح الدين فى طوافه بهذا المكان فسمع الأنين فاقترب من مصدره فإذا الفتاة مضرجة بالدم فاقدة الوعى ، فاحتملها على ذراعيه إلى أول خيمة فى المعسكر . ودعا لها بطبيب أخرج النصل من فخذها وتعهدها بالعلاج حتى برئت . وكان صلاح الدين يسأل عنها الحين بعد الحين . فلما مثلت بين يديه بعد البرء راعه ما رأى من جمالها فأضمر حبها فى قلبه ، وأنزلها على الرحب من عطفه .

وفى إحدى الأماسى عرض قواده عليه بعض كبار الأسرى وهو فى خيمته فعرفت الفتاة من بينهم قائداً من خواص قلب الأسد فاستأذنت السلطان أن تتحدث إليه فأذن . فلما سألته عن مولاه أخبرها أنه سمع اليوم أثناء المعركة أن خصومه من الفرنسيين والانجليز قد قرروا اغتياله فى هذه الليلة . ولولا أنه وقع فى الأسر لذهب إليه يحذره . فجزعت الفتاة على مليكها ، ولم تملك سوابق دمعها ، فاسترسلت فى البكاء . فسألها صلاح الدين عما بها ، وعما قاله الأسير لها ، فأفضت إليه بجلية الأمر .

لو لم يكن صلاح الدين مطبوعا بحكم نشأته وعقيدته على خلال الفتوة الإسلامية لاغتبط بهذه المؤامرة التى ستكفيه شر عدوه وهو عماد الحرب الصليبية وفارسها الأول ، ولكنه فعل ما نشر فى آفاق الغرب فضله ، وخلد على وجه الزمان ذكره ! أرسل إلى مكان المؤامرة الذى عينه الأسير سرية من أشجع فرسانه لينقذوا ريكاردوس من كيد خصومه .

وكان قلب الأسد قد خرج على عادته بعد المعركة يتفقد أحوال جنده . وكان قد خرج فى هذه الليلة وحده ، لأن القواد الثلاثة الذين كانوا يرافقونه فى جولاته أسر أحدهم وقتل الآخران فى اليوم نفسه . أخذ يمشى فى ساحة القتال ساهما حزينا يتوسم الوجوه ويتسمع الأنات فيترحم على القتلى ويتألم للجرحى ، وينحنى على من يعرفه منهم فيودعه بالرحمة أو يشجعه بالأمل . حتى رأى قائداً ملقى على وجهه ، فجثا على ركبتيه يقلبه فعرف فيه قائداً فرنسيا كان يقدمه ويكرمه ، فاشتد حزنه عليه وأطال وقوفه عنده . فلما أدار ظهره إليه لينصرف نهض من رقدته ونفخ فى بوق صغير فإذا رجال يقومون من بين القتلى ويحدقون بريكاردوس وقد شهروا السيوف ! فدهش الملك من المفاجأة أول الأمر ثم تذكر سيفه فأعمله فيهم وكاد يأتى عليهم لولا أن احتوشوه فى الظلام وطوقوه بالكثرة

فأيقن أنه هالك . وفى هذه اللحظة الحرجة جاءته نجدة صلاح الدين فصرعتهم من حوله . ثم طلبوا إليه أن يصحبهم إلى السلطان فسار معهم مطمئن القلب لاعتقاده أن الملك الذى ينقذ عدوه من القتل ، يستحيل عليه أن يسلم ضيفه إلى الأمير .

وكان لقاء السلطان للملك لقاء جميلا نبيلا كأنهما لم يقتتلا طوال اليوم ، ولن يقتتلا طوال الغد ! وبالغ صلاح الدين فى إكرام ضيفه فدعا بحبيبته إليه . فلما رآها تخرج من خيمة السلطان خالجه فيها الشك وساوره عليها الغضب ، ولكن بطل الإسلام ورمز الفتوة أخبره بما كان منها وبما حدث لها . فضمها الملك مسرورا إلى صدره ، وخرج بها مخفوراً إلى معسكره .

* * *

كان صلاح الدين قد أحب الفتاة كما قلت ، وكان فى مقدوره ومن حقه أن يتخذها سبية حرب ، ولكنه حين علم منها أن الملك يحبها وأنها تحبه لم ينس أنه صلاح الدين . فمحا صورتها من ذهنه ، وغلّب فى أمرها وفاءه على حبه ، كما غلب فى أمر ملكها مروءته على بغضه !.

المرابي الذي دخل الجنة

سعادة في شقاء :

لا أريد بالسعادة ما تناله من لذاذات العيش فُتاتا أو على أجزاء كلقاء صديق بعد فرقة ، أو وصال حبيب بعد قطيعة ، أو قضاء ساعة في ملهى ، أو انبساط قلب في نزهة ، أوانتشاء نفس من منادمة ، أو استغراق حس في جمال ، فان تلك الحالات فلتات عرضية كالانطلاق والضحك والأنس ، تنفك ولا تلزم ، وتنقطع ولا تدوم . إنما أريد بالسعادة تلك الحال التي تغلب على المرء في أكثر عمره فيستلذ معها ألم التعب وذل الحرمان ومض اللوم وقبح السمعة وهي حال لا أستطيع تعيينها بحد ولا توضيحها بتعريف . وقصاري ما أستطيعه أن أسوق إليك مثلا من أمثالها الكثيرة المختلفة ستجد في ذاكرتك من غرائبها ما يؤكد لك أن السعادة لا تعرف الإطلاق وإنما هي بالإضافة إلى كل إنسان ما ينبثق من الرضا في نفسه ، ويصح من الهوى في اعتقاده .

عرفت وأنا في سن الحداثة رجلا في أعقاب العمر كان يعيش في قرية مجاورة. كنت أراه وهو يمر بقريتنا على الطريق الزراعي العام ذاهبا إلى البندر في الصباح أو آيبا منه في المساء ، فيلفتني إليه جثته الضخمة على بغلته السوداء ، وعمامته المكورة على رأسه الحليق ، وجبته الجرداء على جسمه البدين ، ووجهه المطهم على صدره العريض ، وبطنه المنتفخ على بردعة بغلته المضلعة ، فأملأ عيني من منظره العجيب ، ثم أتبعه بصري إلى أن يغيب .

وكان في موعدي غدوه ورواحه أدق ضبطا من قطار الصبح في ذهابه إلى دمياط ، ومن قطار المغرب في عودته إلى المنصورة ، فكان أصحاب الحقول

الواقعة على جانبى طريقه يوقتون بهما ، فيقول أحدهم للآخر : سأعاق الساقية أو سأحل المحراث عند مرور الشيخ (على).

وترددت بحكم الجوار القريب على قرية الشيخ على فعلمت أن له فى حياة الناس شأنا لا يقل عن شأن القدر والحظ . كانت بغلته كبغلة العَشر التى توزع الذهب واللؤلؤ على الموعودين فى ليلة عاشوراء كما تقول الأسطورة : كان خُرجها كحواصل الطير يغدو فارغا إلى البنك ثم يروح ملآن إلى القرية ، فيجد أصحاب الحاجات من رجال ونساء قد تكدسوا أمام الباب وفوق المصطبة ينتظرون ساعة الفرج ومع كل منهم قطعة من نحاس فى يده ، أو حلية من ذهب فى جيبه . فيدخل الشيخ الحجرة الخاصة ويتبعه كاتبه مبروك أفندى ، فيجلس بجانب الخزانة المغبرة ، ويقعد الكاتب أمام المنضدة العتيقة ، ثم يدعو المنتظرين واحدا بعد واحد ، فمن كان رهنه ذهبا وضعه فى الخزانة ، ومن كان رهنه نحاسا ألقاه فى المخزن ، ومن كان رهنه عقارا أخذ منه سند الملكية ، ثم يختم الراهن ويوقع على بياض ثم ينصرف ! حتى إذا خلت المصطبة والزقاق من المأزومين والمعوزين صلى المرابى العشاء وتبلغ بشىء من الخبز اليابس مفتوتا فى اللبن الحليب ، ثم أخذ يباشر هو والكاتب تحقيق الأشخاص وتقويم الرهون وتقرير السلفة وتقدير الفوائد وتحرير الصكوك ، حتى ينقضى الهزيع الثانى من الليل فينصرف الكاتب ، ويعمد هو إلى الخزانة فيحكم القفل ، وإلى المخزن فيوثق الرتاج ، وإلى الدهليز فيغلق الباب . فإذا اطمأن قلبه على أولئك كله تسلل إلى حجرة نومه دون أن يتيح الفرصة لزوجته الصابرة فتطالب النفقة ، أو لأولاده التسعة فيشكوا الضيق ، فينام نوم المهموم القلق حتى يطلع الفجر فيصلى . ثم يجد الخادم قد وضعت بجانبه على العادة موقد الكحول وبكرج اللبن ورغيفين من الخبز الرقيق الجاف ، فيشعل النار ويغلى الحليب ويفت الخبز ويفطر ، ثم يتهيأ للانتقال إلى حجرة العمل

فيختبر فى طريقه إليها الأبواب ويفحص الأقفال ثم يفتح الخزانة باسم الله ويمد عينه ويده إلى كل موضع من مواضعها الظاهرة والباطنة ، حتى إذا لم يجد ما يريبه أخرج النقود المطلوبة على حسب البيان الذى كتبه فى الليل مبروك ، وجاء المقترضون بعد بزوغ الشمس ليقبض كل منهم المبلغ الذى قدره له رهنه وشأنه . ثم تقف بغلة الشيخ فى ميعادها المألوف على الباب فيركبها إلى المنصورة ، ليقدم إلى محاميه مستندات قضية ، أو ليحضر معه جلسة الحكم فى نزع ملكية !

* * *

لم يكن الشيخ على يذوق اللحم إلا مدعوا ، ولا يشترى الثوب إلا مضطراً، ولا يعرف معنى الأنس فى أسرة ولا مجلس ، ولا متعة الحديث فى قهوة ولا دار ، فيئست زوجته من عطفه فانصرفت إلى الدجاج والبط ، وقنط أولاده من عونه فتصرفوا فى الربا والتجارة ، وحصر هو دنياه فى البغلة والخادم ، وفى الخزانة ومبروك ، وفى المحكمة والمحامى ، وفى البرصة والسمسار ، فأصبح لا يجد سعادة نفسه ولا لذة عيشه إلا فى مال يقبضه ، أو حكم يكسبه ، أو ملك ينزعه ، أو عقار يشتريه . أما الألم الذى يسببه الحرمان ، والذل الذى يجلبه الطمع ، والندم الذى يبعثه الضمير ، فقد مات كله فى شعوره ، وغاب أثره عن باله . عنده البنون ولا يجد فيهم عزا ولا زينة ، وفى بيته الخير ولا يبلغ به رضا ولا سكينة ، وفى يده المال ولا يأكل فى الدار إلا الخبز فى اللبن . ولا فى القهوة إلا السميذ فى الشاى . وكل عزه وغاية رضاه أن يرى المحتاجين يترامون على بابه باكين أو ضارعين يتوسلون إليه أن يعجل السُّلفة أو يؤجل السداد أو يرفع الحجز ، وهو يزورُّ عنهم ويتدلل عليهم رافعا رأسه من التيه ، لا ويا شدقه من الكبر.

ومرت الأعوام على خطوات البغلة وصفقات المرابى فخربت دور لتعمر دوره ، وغاضت موارد لتفيض موارده ، وطفحت الخزانة بالذهب فترك البغلة وركب القطار ،

وأنكر المنصورة وعرف الإسكندرية ، وأفرغ خزانة النقود ، ليضارب في برصة العقود ، فلم يحل عليه الحول حتى خسر تسعين ألف جنيه عينا . وحينئذ أحس بالشقاء وشعر بالفراغ ، وأدرك أن كل شخص يزدريه ، وأن كل شيء يعوزه : فلما رجع مبروك أفندي صفى معه الحساب فوجد أن ما خسره في المضاربة هو كل ما ربحه من الربا ، فانبعث في صدره إيمان كان قد مات ، وتيقظ في ضميره شعور كان قد رقد ، ورأى أن هناك غير المال الذي عبده إلهاً آخر لا يضيع في البرصة ولا يغيب في المصيبة ولا يتخلى في الشدة . فرجع إلى الله وأصبح يصلي ووجهه إلى القبلة بعد أن كان يصلي ووجهه إلى الخزانة . ثم ضم زوجه إلى قلبه ، وآوى بنيه إلى عطفه ، وأطلق أيديهم فيما بقي من ثروته وهي الأرض الطيبة والتجارة الحلال ، وتفرغ هو لاستقبال التوجيه السماوي الخير ، فمسح بالصدقة دموع الربا ، وفرج بالمعروف كروب المنكر ، وتغير في ذهنه مدلول السعادة فاعتقده في إيثار الغير لا في أثرة النفس ، وفي بسمة الشاكر لا في دمعة المحتاج . وانحصرت في دنياه حدود الغبطة فلم تتعد الإيمان بالله والإحسان إلى الناس ، فحج البيت وتطهر فيه ، وبنى المسجد ووقف عليه . ثم تنفس به العمر حتى شارف المائة فانتقل إلى جوار ربه وحياته الحافلة بالكد والدأب والربح والخسارة والشر والخير مصداق لقول الرسول الكريم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » تغمده الله بالغفران على ما أساء ، ومن عليه بالرضوان على ما أحسن .

آخر فارس في آخر مدينة

ظل نور الاسلام يشع فى سموات الأندلس بالهدى والحضارة والعلم ثمانية قرون كان فى أربعتها الأولى شديد السطوع والشيوع لأنه كان ينبثق من مصدر متحد ، ويشرق فى صحو شامل ، فلا غيوم كانت تحجب ضوءه ، ولا عواصف كانت تبدد سناه . فلما وهنت اليد المصرفة ، ووهى السمط الجامع ، انتشر الرأى الجميع ، وانفرط العقد النظيم ، وانقسم ملك عبد الرحمن الناصر إلى دويلات تتنافس فى الحكم ، وتتخاذل فى الشدة ، وتتواطأ مع العدو .

ثم انطفأ فى قلوب المسلمين نور الله فضلّت الهداة وتعادت الإخوة وتحاربت الجيرة وجف الثرى بين بعض البلاد وبعض ، على حين كانت أسبانيا النصرانية تتقارب وتتجاذب حتى اتحدت ممالكها الخمس فى مملكة قشتالة . ثم أخذت تغير على أسبانيا المسلمة مستعينة على إخضاعها وابتلاعها بأمثال الجلاوى من البربر ، وأشباه نورى السعيد من العرب ، حتى لم يبق فى أيدى المسلمين منها إلا غرناطة !

وكان الملك فى هذه المدينة الباقية قد استقر فى بنى الأحمر وانتهى إلى آخرهم الملك أبى عبد الله محمد . وكان هذا الملك مأفون السياسة مغموز الوطنية خوار العزيمة ، فلم يكد يعلم أن فرديناند الخامس ملك قشتالة قد مد عينيه إلى غرناطة عروس الأندلس وموضع الحمراء وآخر ما بقى فى ملك العرب من الفردوس المفقود حتى أشفق على نفسه وملكه فترك الدفاع وآثر العافية . وأرسل إلى العدو سرا من يفاوضه فى تسليم المملكة على أن يُقطعه بعض الأرض ليحكمها تحت لوائه وفى ظله . وأبرمت المعاهدة فى الظلام . وحان موعد التسليم ، فعارض فيه

جماعة من فرسان غرناطة لا تزال فيهم بقية من نخوة العروبة ونجدة الفتوة .

* * *

وكان على رأس هؤلاء الفتية فارس من سلائل الملوك يقال له موسى بن أبى الغسان كان مثلا للفروسية العربية التى تركت طابعها البارز فى الفروسية الغربية . وكان مجمعا للصفات الجمالية التى جعلته موضع إعجاب الشباب ومهوى قلوب الأوانس . وكان منقطع القرين فى أدب السيف وأدب اللسان . ومغامراته الحربية والغرامية كانت حديث المجالس فى أسبانيا النصرانية والإسلامية . ومن العجيب أنى أنقل حديث هذا البطل عن المصادر الأوروبية ، لأن المصادر العربية لا تكاد تفصح عن أمره ! قال ابن أبى الغسان للملك الهلوع الرخو فى لهجة الغضبان الأنوف .

« يا ملك المسلمين قل لملك النصارى : إن العربى لا يقبل الحيف ، ما دام يحمل السيف ، وإن الأبى الحر يفضل أن يكون له قبر فى أنقاض غرناطة ، على أن يكون له قصر فى رياض أندرش » .

وأندرش هى مقر الإقطاعية التى رضى أبو عبد الله أن يعيش على ريعها فى حمى فرديناند وإيزابيلا ، فلم يسع أبا عبد الله إلا أن ينزل على حكم السادة والقادة فطوى المعاهدة واتخذ الأهب للدفاع .

وأصبح الناس ذات يوم فإذا هم يرون فى أودية (شنيل) ثمانين ألفا من جنود قشتالة يقصدون مرج غرناطة ليحاصروها . وكان موسى حبيب الجيش والشعب قد قسم الدفاع عن المدينة بين الرؤساء والقادة ، وتولى هو قيادة الفرسان يعاونه محمد بن زائدة ونعيم بن رضوان . واتقدت نار الحرب بين قشتالة يناصرها أرجون وليون ونافار ، وبين غرناطة لا يناصرها إلا البأس والصبر والإيمان .

وكان لفروسية ابن أبي الغسان في وقائعها حملات مظفرة أرهقت قوات العدو وعوقت أمداده وقطعت سبله . ولكن القشتاليين أحكموا الحصار على غرناطة وأهلكوا ما حولها من الزروع ، وحالوا بينها وبين المدد من البحر والبر .

وأقبل الشتاء فغطى الحقول والمروج بالثلج فلم يستطع الفرسان أن يتسللوا إلى الخارج ليجلبوا الميرة والذخيرة . ودام هذا الحصار الشديد سبعة أشهر قل فيها القوت وضاق الوسع وأوشك الصبر أن ينفد . فتقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك إلى مجلس الحكم وقرر أن الجوع آت لا ريب فيه ، وأن الدفاع عناء لا جدوى منه . فابتدره موسى بقوله : « إن نفوس المجاهدين الصابرين لا تعرف اليأس » ثم أمر ففتحت الأبواب وخرج بكتيبته إلى لقاء العدو وجها لوجه ، وقال لفرسانه : « لم يبق لنا من الأندلس كلها إلا الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية » ثم حمل بهم على المحاصرين حملة صادقة فكشفوهم عن المدينة ، ولكنهم عادوا فأطبقوا عليها . واستمرت المعركة أياما على المد والجزر حتى مس الجنود الضر وساورهم اليأس فارتدوا إلى المدينة حتى لم يبق في المعركة غيره .

وفي مساء ذلك اليوم عقد الملك في بهو الحمراء مجلسا من الفقهاء والزعماء والقادة قلبوا فيه الأمر على وجوهه المختلفة ثم اجتمع رأيهم على التسليم .

وهنالك نهض موسى وحده يفند الرأى ويعارض الاستسلام ويحاول أن يبعث في النفوس القانطة روح الرجاء . قال فيما قال :

« يا قوم إن وسائلنا الدفاعية لم تنفد بعد ، فما زلنا نملك الوسيلة التى تبطل المستحيل وتصنع المعجزات وهى اليأس ! فلنحى فى نفوس الشعب روح التضحية، ولنضع فى أيديه السلاح ، ولنقاتل نحن وهو حتى نفنى جميعا . وإذا لم يجد كل منا

القبر الذى يواريه ، فإنه لن يعدم السماء التى تغطيه . والخير لنا أن نحصى فيمن جاهدوا وقتلوا ، من أن نحصى فيمن سلَّموا وسلِموا . . » .

ولكن بلاغة موسى لم تصادف فى هذه المرة هوى فى النفوس فأعرضوا بأسماعهم عنها . وأجال الملك التعس نظره فى الجلوس فلم يجد على الوجوه إلا السهوم والوجوم ، فصاح بأعلى صوته : أللّه اكبر ! فلتكن إرادة الله ! فردد القوم ما قال وبكوا ، إلا موسى فقد ظل صامتا لا يتكلم ، شاخصا لا يطرف .

* * *

فلما رأى بعض الوزراء يخرجون ليفاوضوا العدو فى تنفيذ المعاهدة ثار الدم فى وجهه وقال : « يا قوم لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن الأسبان إذا عاهدوكم يفون . إن الموت أقل ما تخشون . وسترون إذا سلمتم أن مدينتنا تخرب وأموالنا تنهب ونساءنا تستباح ومساجدنا تدنس ونواصينا تذل وأجسادنا تساط ودماءنا تراق وبقيتنا تنفى . سترون كل ذلك وأفظع منه يامن تضنون بنفوسكم على الموت الكريم ، أما أنا فوالله لن أراه » .

ثم نهض مسرعا من مكانه فاجتاز (بهو الأسُود) من قصر الحمراء ومضى لا يلوى على أحد حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده ثم خرج من باب (البيرة) إلى ظاهر غرناطة .

وهنا يقول المؤرخ الأسبانى القس أنطونيو أجابيدا : فى عشية ذلك اليوم الذى خرج فيه بطل الأندلس على هذه الحال كانت كوكبة من الفرسان الأسبان يسيرون على نهر شنيل فأبصروا فى ضياء الغروب الشاحب فارسا مسلما قد غاص هو وفرسه فى الحديد ، فاستوقفوه ليعرفوه ، فعمد إلى كبيرهم فانتزعه من سرجه

وضرب به الأرض . ثم حمل عليهم حملة من يطلب الموت ، يهجم ولا يدافع، ويضرب ولا يتقى ، حتى قتل أكثرهم .

ثم تناوشته السيوف من كل جهة فجرح ، وأصابت الرماح فرسه فصرع . فلما خر مضرجا بدمه ترجل الفرسان ليحيوه أو ليأسروه ، فجثا على ركبتيه: واستل خنجره وأخذ يثخن فيهم حتى خارت قواه من كثرة ما نزف من دمه وخشى أن يقع فى أسر عدوه فارتد إلى الوراء وقذف بنفسه فى النهر فغاص من ثقل دروعه إلى قاعه .

فهل تجد فرقا فى غير الزمن والعدد بين أبطال بور سعيد وبطل غرناطة ؟ إن للوراثة سرا يسكن فى الدماء ، وإن للجنس عبقرية تنتقل من الآباء إلى الأبناء .

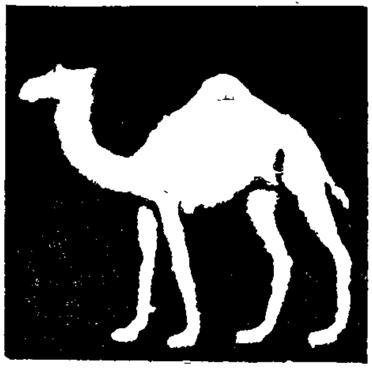

لماذا يقدس المصريون الخبز!

من العادات التى اعتادها المصريون دون غيرهم من سائر الناس تقديس الخبز دون غيره من سائر الأقوات . فترى المصرى ولا سيما القروى يرى بقايا اللحم أو الخضر أو الفاكهة مطروحة على الأرض فلا تلفت نظره ولا تشغل باله .

وربما سقط من يده أو من فمه بعض البيضة أو الثمرة أو السجارة فيأنف أن يلتقطها ولا يكلف نفسه أن يجنبها وطء الأقدام التى تليه . ولكنه اذا وجد كسرة من الخبز على سواء الطريق أو على جانبه وقف وانحنى وبسمل وتناولها بخشوع ونفخ ما عليها من التراب وقبلها ثم حملها معه أو دفنها فى مكان أمين !

وترى القرويين اذا قعدوا للأكل جماعة حرصوا على أن يضعوا الخبز على شمائلهم أو فوق مناديلهم ، فاذا انتثر منه فتات على الأرض سارعوا إلى التقاطه وتقبيله . فاذا ندت عن أحدهم فتيتة ولم يبادر اليها نهروه وقالوا « الى ما يلم النعمة (يعمى) » وهم يطلقون على الخبز وحده لفظ (النعمة) أو لفظ (العيش) لانه سبب النعيم والحياة

ومن آيات حبهم للخبز أنهم يسرفون فى أكله ، وأنهم يضعونه بركة فى أساس البيت الذى يقيمونه ، ويجعلونه تميمة فى حزام الطفل الذى يعزونه . فما السر فى هذه القداسة ؟ وما السبب فى هذا الحب ؟

* * *

كان القمح وحده هو مادة القوت منذ درج المصريون على جنبات الوادى (لان الذرة جاءتنا متأخرة من أمريكا) . وكان فلاحنا القديم عبدا لهذه الحبة ،

لا يعمل الا لها ، ولايهتم الا بها · يبذرها فى غرين النيل حين ينحسر الماء بعد مائة يوم من شهر مسرى ، ثم يطلق الخنازير فى الحقل لتدفن البذور بأرجلها فى التربة ، ثم يتتبع أطوارها المتعاقبة من إيراق وإسبال وإحصاد ، فيستفيد بالملاحظة والتجربة بعض العلم يصوغه فى ضوابط مسجوعة لا تزال الأفواه تتناقلها من جيل الى جيل ، كقولهم مثلا : اذا صح قمح بابه ، غلب النهابة . هاتور ، أبو الذهب المنثور . فى برمهات ، اسرح الغيط وهات . فى برموده ، دق بالعمودة. وهكذا تدور أمثالهم وتقصر أعمالهم على إنتاج هذه الحبة ، وكان إنتاجها موقوفا بحكم الجفاف على فيضان النيل ، وكان النيل بحكم الطبيعة يفى ويخلف .

فاذا وفى انطلق المنادون بالبشرى فى الشوارع والأزقة ، واحتفلت الحكومة بوفائه فى العواصم والأقاليم ، وجرت الجوارىء لى مائه الذهبى بالبهجة والغبطة ، فيرقص النساء ويغنى الرجال ويكون من كل أولئك عيدقومى يدخل الأنس فى كل بيت والسرور فى كل قلب . ذلك لأن وفاء النيل معناه وفرة القمح ورخص القوت وتخلف الوباء . واذا أخلف اقشعرت الأرض وماتت الحياة واشتد القحط وغلا القوت وفشا الطاعون وأصاب الناس بلاء عظيم .

* * *

كان نقص الفيضان نذيرا بالغلاء والوباء والانحلال والفوضى . وفى المقريزى وابن إياس وأبى المحاسن والبغدادى من مؤرخى مصر صفحات سود عن المجاعات التى كابدها المصريون فى السنين العجاف التى دبر أمثالها من قبل نبى الله يوسف بن يعقوب .

من هذه المجاعات التى لازمها الطاعون (الشدة العظمى) التى ضربت على مصر

الجوع والخوف والموتان ثمانية أعوام فى عهد المستنصر بالله الفاطمى سنة ١٠٥٣ م حتى أكل الناس القطاط والكلاب ثم أكل بعضهم بعضا !

والمجاعة الكبرى التى حاقت بالبلاد فى عهد الملك العادل سنة ١٢٠١ م فحولتها فى بضعة أعوام مقبرة هائلة وارى فيها الموت الأسود أكثر الأحياء من غير لاحد ولا شاهد ! وكان يزور مصر وهى فى هذه المحنة عبد اللطيف البغدادى الكاتب العالم المؤرخ فكتب يصفها ! « ودخلت سنة سبع (٥٩٧ هـ) مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار ، وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء وهربوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السودان والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا ، ودخل الى القاهرة منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ، ووقع فيهم الموت ، واشتدبالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والقطط والكلاب والبعر والأرواث . ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم ! فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . . . ورأيت صغيرا مشويا فى قفة وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما . . . ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم . ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ، ومنهم من يفعله استطابة ! . . . وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس أن يشتروهم أو يبيعوهم .

وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان . . ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ..

وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه ، وإنما هو شيء صادفناه اتفاقا ، بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره »

* * *

ذلك بعض ما كان يقاسيه المصريون فى سنى يوسف من فقدانهم حبة القمح وحرمانهم لقمة الخبز وما يتبع ذلك بالضرورة من انتشار الطاعون واضطراب الأمن. فاذا أدبرت السنون العجاف وأقبلت الأعوام السمان امتلأت الأجران بالحبوب الذهبية وأقبل الناس عليها فرحين مستبشرين يقلبونها بالأيدى ، ويقبلونها بالأفواه ، وينزلونها من أنفسهم منزلة حبات العيون وحبات القلوب فلا يتركون منها سنبلة فى حقل ولا حبة فى بيدر ولا عودا فى طريق !

ثم يذكرون كلما رأوها تسيل دقيقا فى الطاحون ، أو تستدير رغفانا فى الفرن ، أو تستحيل لقما فى الفم ، كيف كانوا يمسكون رمقهم فى غيبتها بأكل الميتة وما هو شر من الميتة ، فيزداد حبهم لها وضنهم بها فينسبون إليها الأعاجيب ، وينظمون فيها المواويل ، وينسجون حولها الأساطير ، فيقولون مثلا : إنها الحبة الوحيدة التى هبطت مع آدم وحواء من الجنة !

تلك عهود خلت ! وهيهات والحمد لله أن تعود !

فمنذ العام الثانى من هذا القرن أمنا بخزان أسوان الموت الأغبر وهو موت الجوع . وأمنا بالطب الوقائى الموت الرخيص وهو موت الوباء . وعلى الرغم من ذلك ما زلنا متأثرين بآلام الماضى ومآسيه فنسمى الخبز بالعيش (أى الحياة) وندعو على العدو بالكبة (أى الطاعون) ! وأغلب الظن أن هاتين الكلمتين المأثورتين لن تموتا من لغتنا المصرية حتى بعد (السد العالى) الذى سيحول الصحراء جنة، وسيجعل الناس من طغيان الصحة والقوة جنة !

* * *

من أمجاد الجيش المصري

ديسمبر سنة ١٩٥٦

— ١ —

كانت الأمة العربية فى آخر القرن الخامس الهجرى وما بعده قد أوهنتها العلل السياسية والاجتماعية حتى تركتها فى نزاع الروح . كانت تسير فى طريقها المظلم إلى مصيرها المبهم من غير قائد يقود ولا ذائد يذود ولا صالح يصلح ! كان وطنها قد تقسمته الأطماع وحكمته الفوضى ، وكان دينها قد أفسدته الأباطيل وشوهته الجهالة .

وكانت الأقدار تجرى على سنة الله فى المستضعفين من خلقه . تهيىء الأسباب لعدوان القوى ، وتعد الوسائل لسلطان القاهر : كانت تهيىء بطرس الناسك ليهاجمها بعصبية الصليب من الغرب ، وتعد هولاكو الفاتك ليداهمها ببربرية التتار من الشرق . وقضى الله أن يقهر الصليبيون القدس وأكثر بلاد الشام ، وأن يجتاح التتار بغداد وأكثر بلاد العراق . وصحب هذين الوباءين فواجع فى الأنفس والأعراض والأموال لا يقاس بها ما قاسته بور سعيد على فظاعته ! ذبح الفرنسيون الذين استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ بقيادة جود فروا دى بويون سبعين ألفا من المسلمين ذبح الخراف ، وقد بلغت دماؤهم المسفوكة فى محراب داود ومسجد عمر ركبتى الفارس الصليبى كما قال المؤرخ الفرنسى « فنك برنتانو » ، وظن السفاكون الذين رسموا على قمصانهم أشراط الصليب أن المسلمين قد ابتلعوا ما يملكون من النقود فكانوا يبقرون بطونهم ليبحثوا فيها ، فلما أتعبهم شق البطون وفتق المصران كدسوا جثث الأحياء والأموات أكداسا وأوقدوا فيها النار وأخذوا يبحثون فى رفاتها عن الذهب المصهور والجوهر المكنون ! ومثل ذلك وأفظع منه فعله التتار فى بخارى و بغداد !

وعلى هذه الوحشية الطاغية ظل أجداد (جى موليه) ينشرون الفزع والجوع والذل فى فلسطين والشام إحدى وتسعين سنة تبددت فى عواصفها أضواء الإسلام، وتطامنت فى زلازلها كبرياء العروبة . ووقع بعد قرن ونصف من الزمان ذلك الطوفان الدموى الذى فار فى الشرق بتغلب التتار على الخلافة فى العراق ثم انتشر حتى اجتاح الشام وهدد مصر ، فدجا الظلام حتى كاد يسطو على نور الوحى ، وكلب الزمان حتى كاد يعفى على تراث النبوة . ولولا أن تداركهما الله بالجيش المصرى فسحق الصليبيين فى (حطين) ، ومحق التتار فى (عين جالوت) لحلت الكارثة !

-٢-

سار صلاح الدين سلطان مصر بجيشه المظفر إلى إمارات الفرنج بفلسطين وسورية مخترقاً جبال سيناء الوعرة فى وقدة القيظ حتى احتل طبرية . وفطن الأمراء الصليبيون لما يريد فاستنفر بعضهم بعضا وتجمعوا بصفورية . وفى اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ م التقى الصليب والهلال على تلال « حطين » .

فلما تراءى الجمعان ثارت فى دماء المصريين حمية الجهاد فسحوا اللاتين بالسيوف وكسحوهم بالخيل حتى قال المؤرخ الفرنسى م . بوجولا فى كتابه تاريخ أورشليم : « لقد استحر القتل والأسر بالصليبيين حتى كان من ينظر القتلى يظن أن المسلمين لم يأسروا أحدا ، ومن ينظر الأسرى يظن أنهم لم يقتلوا أحدا »

وانخلعت لهذا النصر المبين قلوب الأمراء المستقلين بالمدن الساحلية من فلسطين وسورية فاستسلموا لصلاح الدين ونزلوا على حكمه . وبذلك تطهرت فلسطين من رجس الدخيل الباغى فلم يبق فى أيدى الفرنج منها إلا القدس وقد لجأ إليها المنهزمون من المدن المفتوحة ، فسار إليها السلطان البطل من عسقلان ، وكان حريصاً أن يجنبها ويلات الحرب لقداستها المشتركة بين الأديان الثلاثة . فاستوفد

إليه بعض زعمائها وطلب منهم تسليم المدينة فأبوا إلا القتال فأقسم ألا يأخذها إلا بالسيف . وأمر الجيش فسلط على أسوارها المنيعة قذائف الدمار . فلما استيقن « يليان » أن السور لا يمنع وأن القتال لا يدفع ، طلب الأمان فأباه عليه السلطان لئلا يحنث فى يمينه . فقال له « يليان » بلهجة اليائس : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليك بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ، ويدمروا متاعهم وأموالهم ، ثم يقاتلوا حتى يُقتلوا . فارتاع صلاح الدين لهذا التهديد واستفتى الفقهاء فى يمينه فأفتوه بأن ما وقع من القتال وراء السور كاف لإبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب . فأخذ بهذا الرأى وجعل الفداء عشرة دنانير عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة ، وديناراً عن كل طفل . وأجلهم أربعين يوما يؤدون إليه فيها الفداء . فمن وجد منهم فى المدينة بعد انقضاء الأجل المضروب أصبح مملوكا للسلطان. ودخل جيشنا المدينة دخول المهاجرين يثرب : ذكر الله على لسانه ، وتقواه ملء قلبه ، فلا عين تمتد إلى متاع ، ولا يد تنبسط بمكروه . وقام الجباة على الأبواب ، فخرج « يليان » ومعه سبعة آلاف فقير أدى عنهم الفدية . وأقبل فى عقبه البطريرك الأكبر ومعه كنوز الكنائس من جواهر وذخائر وأموال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن يأخذ إلا الدنانير العشرة المقررة . ثم انقضى الأجل ولا يزال فى المدينة آلاف من الفقراء الذين لا يملكون الفداء فأصبحوا أرقاء . قال المؤرخ الصليبى « أرنول » وكان فيمن شهدوا ذلك اليوم : « فتقدم العادل إلى أخيه صلاح الدين وقال له : سيدى ، إنى أعنتك والحمد لله على فتح هذه البلاد ، فهب لى ألفاً من أرقاء هذه المدينة . فلما أجابه إلى ما طلب أعتقهم من فوره . وتقدم « يليان » والبطريرك إلى السلطان بما تقدم به العادل ، فوهب كلا منهما ألفاً فأعتقاهم . والتفت صلاح الدين إلى من حوله وقال : لقد أدى أخى صدقته وكذلك فعل « يليان » والبطريرك ، وبقى أن أؤدى أنا أيضاً صدقتى . ثم أمر بأن ينادى

فى المدينة أن العاجز عن أداء الفدية حر لوجه الله وله أن يخرج ! فاستغرق خروجهم بياض النهار لكثرتهم كما قال أرنول :

فأين ما فعل صلاح الدين مما فعل جود فروا ؟ أليس الفرق بين الفعالين هو الفرق بين الكفر والإيمان ، وبين الوحش والإنسان !

— ٣ —

استولى السفاح هولاكو على العراق سنة ٦٥٦ ﻫ ثم اندفع منه إلى الشام اندفاع السيل الجارف عليها . ثم وقف بجنوده القساة على حدود مصر . فلو أنه فتحها لفتح المغرب العربى كله ودمر الحضارة الأوربية تدميرا لا حيلة فيه ولا نجاة منه كما يعترف بذلك المؤرخون الأوربيون أنفسهم . وتلك يد أخرى للجيش المصرى على العالم بأسره .

أرسل هولاكو إلى سلطان مصر الملك المظفر يتوعده ويتهدده إذا لم يبذل الطاعة ويقر بالخضوع . فثارت به الحمية وملكته عزة النفس واستنفر المصريين لجهاد التتار فنفروا خفافا وثقالا وهم يعلمون أن العدو الذى لم يهزم قط بلاء لا يكشف وقضاء لا يرد ، فسار بهم إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس وجرت بين المصريين والتتار موقعة عظيمة عند عين جالوت فى شهر رمضان من سنة ٦٥٨ .

يقول المقريزى فى وصف هذه المعركة : « فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان اصطدم العسكران وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء فتحيز التتر إلى الجبل ، فاضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن

رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وحمل بنفسه وبجيشه حملة صادقة فكسروا التتار ثلاث كسرات فى ثلاث مرات . وقتل قائدهم كتبغا وانهزموا هزيمة منكرة صدتهم عن مصر وأجلتهم عن الشام وردتهم إلى العراق .

هذان مجدان من أمجاد الجيش المصرى كان فيهما مثابة لأمن الشرق وملاذا لثقافة الإسلام وحمى لحضارة العالم . ولن يكون مجده فى بور سعيد آخر أمجاده ، ولا جهاده الصادق فيها أعظم جهاده .

ساعة حرجة من يوم عصيب

كنا نشيع جنازة الشهداء الأربعة الذين قتلهم جنود الاحتلال الانجليزى فى المظاهرة الكبرى التى قامت فى اليوم الثامن من شهر أبريل سنة ١٩١٩ واشترك فيها علماء الأزهر وقساوسة الأقباط ورجال القضاء والمحاماة وضباط الشرطة والجيش وطلبة المدارس والمعاهد وموظفو الدولة والشركات وأعضاء الجمعية التشريعية وتجار القاهرة وشيوخ القبائل وسائر الطبقات من العمال والصناع والباعة، ومن ورائهم جميعاً أرتال السيارات والعربات تحمل السيدات والأوانس . وتعرض لها الأستراليون الغلاظ بالرصاص، ورد عليهم المتظاهرون العزل بالطوب ، فقتل منا أربعة وجرح كثيرون . وتفرق هذا الجمع الحاشد الحاقد ليجتمع فى ضحوة اليوم التالى ليشيع جنازة شهدائه ، ويتحدى ببسالته نذالة أعدائه .

ولم يكد المشيعون يبلغون ميدان القلعة حتى وجدوا الطريق إلى مقبرة (الإمام) مسدوداً بكتل من الجنود الحمر فى أيديهم السلاح وفى عيونهم الشر ، فتركوا النعوش تمر وحجزوا من خلفها السيل الدافق من الناس ، وانهالوا عليهم دعساً بسنابك الخيل، وطعنا بأسنة البنادق ، وترويعاً بطلقات الرصاص، فتدافع من تدافع ، وتراجع من تراجع ، وتمزقت الجموع المزعورة فى كل طريق .

ووجدنا أنفسنا فى حى السيوفية نختفى تارة ونظهر ، ونسرع حيناً ونبطىء ، وصفير الرصاص تسمعه من كل اتجاه ، وفزع الناس تراه فى كل مكان ، حتى دفع بنا الطريق إلى شارع عبد العزيز فاذا بنا فى وسط معركة دامية بين الشعب والإنجليز، فيها المتاريس على مدارج الطريق ، والخنادق على أفواه الأزقة ، والناس مستبسلون فى الدفاع ، يتلقون بصدورهم رصاص الإنجليز والهنود من الشوارع ، ورصاص الأرمن واليهود من البيوت . فتدللنا لواذاً إلى المسالك الضيقة المتشعبة ، فتسكعنا

فيها طويلا حتى قرت الفورة وهدأت الحركة وتفرق الجمعان . وآن لنا أن نستريح قليلا من الفزع والإعياء فدخلنا قهوة (نيوبار) بميدان الأوبرا .

كنا ثلاثة أحدنا الأستاذ يوسف الجندى رحمة الله عليه وكان قد لجأ منذ أيام إلى القاهرة فاراً من القوة الأسترالية التى احتلت مدينته (زفتى) .

وكانت زفتى كسائر مدن الوادى وقراه قد رفعت علم الثورة ، فدمرت السكة الحديدية ، وقطعت المواصلات التلغرافية والتليفونية . وتألفت بها لجنة لقيادة الثورة برياسة الأستاذ الجندى ، فأعلنت استقلال المدينة بشئونها السياسية والإدارية ، وانضوى اليها مأمور المركز والذين معه من رجال الشرطة .

وتأدى الخبر إلى السلطة العسكرية البريطانية فجهزت إلى زفتى قوة من الجنود الأستراليين لمحاصرتها، واستعد الأهلون للدفاع فأعدوا البنادق ، وحفروا الخنادق ، وأقاموا السدود . وتهيأ الأستراليون للهجوم فنظموا القوة وصوبوا المدافع وشرعوا الأسنة . وأوشكت الواقعة أن تقع لولا أن تدارك الخطب مأمور المركز فنصح لأهل المدينة أن يسالموا ولا يقاوموا فانتصحوا بقوله . ودخل الجنود زفتى ، وهمهم الأول أن يقبضوا على أعضاء لجنة الثورة فلم يجدوا فى القوم من يرشد إليهم. وكان يوسف حاكم زفتى قد توقع هذه العاقبة فتزيا بزى الفلاح وخرج من المدينة المحاصرة بليل . ومضى على وجهه يتنقل من قرية إلى قرية حتى دخل القاهرة ونزل على أصدقائه الأدنين ومن أخصهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد . وظل مطلوبا إلى المحكمة العسكرية حتى أفرج عن سعد وتألف الوفد .

أما أنا فكنت يومئذ ألبس الجبة والقفطان وأدرس الأدب العربى فى المدرسة الإعدادية الثانوية التى أسسها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان طلابها يربون على الألف وأكثرهم ممن أخرجوا من مدارس الحكومة لوطنية السلوك أو علو السن . فلما حان حين الثورة كانوا هم وطلاب مدرسة الحقوق أول من جمعوا لها

الحطب وأوقدوا فيه النار . ومن هاتين المدرستين تألفت اللجنة التنفيذية للطلبة وكان عدد أعضائها خمسة وعشرين ، وكان عملى فى هذه اللجنة أن أشارك من بعيد فى تحرير المنشورات الثورية التى كانت توزعها سراً فى أنحاء البلاد . وكنت أحمل منها دائماً صوراً مخطوطة أو مطبوعة .

وبينما كنت أقرأ على صاحبىّ مسودة منشور جديد ونحن جلوس إلى إحدى الموائد الداخلية ، إذ حاصر الإنجليز القهوة من كل جانب وأمروا الناس ألا يتحركوا ، فالقاعد لا يقوم ، والقائم لا يقعد . وأخذوا يفتشون عن الأسلحة والأوراق وبدأوا التفتيش من خارج القهوة . وكان معى ورق ومع يوسف مسدس . والعثور فى جيوبنا على هذا وذاك عريضة اتهام صريحة إلى المحكمة العسكرية البريطانية . وإذا شهد خطى على بأنى أحرض المؤمنين على القتال ، وأثبت التحقيق أن يوسف هو (امبراطور زفتى) الهارب . كان الحكم الذى لا دافع له ولا رحمة فيه .

سارع الجالسون إلى جيوبهم أثناء الفزعة المفاجئة فألقوا بمسدساتهم على الأرض فى القهوة بعيداً عن الموائد . وأخفى بعضهم ما معه منها فى (الطاولات) وأطبقوها على الأقشطة والزهر . واحتل الجنود القهوة ليراقبوا حركات الجلوس أثناء هذه (العملية) . وكان المرحوم يوسف قد أخرج مسدسه من جيبه ثم أعجلته الحال فلم يملك أن يرده إليه ولا أن يلقيه عنه فوقفت به يده تحت المنضدة . وحاولت أن أجد مخرجاً من هذا المأزق المهلك فانحنيت قليلا على المائدة ومددت يدى فأخذت المسدس وغيبته فى جيبى . ثم تململت فى كرسىّ كأنني أريد أن أريح جسمى بوضع آخر .

ولم تغب هذه الحركة عن عين الجندى المراقب فأقبل على والغضب فى وجهه يزمجر بكلام لم أفهمه . ونظر إلى فلم أقل شيئاً ، ونظر إلى الأرض فلم يجد شيئاً . فوقف على رأسى وقفة السياف يتربص بى حكم القدر . وخشعت الحركة فى القهوة وعم الصمت ، وجاشت الهموم فى الصدور وزاد القلق ، وشغلتنى رهبة الموقف عن

التفكير فيما نحن فيه وفيما نصير إليه . وفيم يفكر السائر الأعزل إذا دهمه قطاع الطريق ، أو الأسير المقيد إذا أحدق به جيش العدو ؟ إن الأمل الوحيد الذى كان يشيع فى اضطراب نفسى ، ويشع فى ظلام يأسى ، هو أن العامة ربما توهمهم أنى من رجال الأزهر ، وهم على قسوتهم يظهرون شيئاً من الرحمة برجال الدين .

وجاء دورنا فى التفتيش ، ففتش الضابط صاحبى تفتيشاً دقيقاً فلم يدع جيباً من جيوب الجاكتة والبنطلون إلا مر عليه بيديه . ثم أشار إلىّ أن أقف فوقفت ممتقع اللون واجف القلب، ووقف الرجل أمامى لحظة لا يتكلم ولا يتحرك . حار فى أمرى ، كيف يفتش ثوبى ، وأين يجد جيبى ؟ انه يعرف جيوب (الأفندية) لأنها كجيوبه ، أما جيوب (المشايخ) فلا يعرف أين تكون . أتكون فى الأعلى أم فى الأسفل ، أم تكون فى الخلف أم فى الأمام ؟

وكان لابد للضابط أن يخرج من حيرته وسكونه ، فاكتفى بأن مر يديه مرا خفيفا فوق صدرى وتحت إبطى ، وكان للخبأ لو علم يتدلى على ركبتى ! ثم ابتسم وانصرف إلى غيرى !

* * *

وانتهت (الكبسة) بأن أمر جنوده فالتقطوا المسدسات المطروحة على الأرض وخرج بهم إلى قهوة أخرى

وتنفسنا الصعداء وانفجرت صدورنا بالتشهد !

وكنا كلما جرنا الحديث إلى هذا الحادث نقول : إننا مدينون بحياتنا أو بحريتنا لذلك القفطان المبارك ! وهذا الدّين هو الحسنة الوحيدة التى أذكرها لهذا الزى ، وكفى بها حسنة !

قريتي منذ ستين سنة :

صورة من الذاكرة

ترتد حياة الشيوخ إلى الماضي حين تصطدم بالنهاية فهم يعيشون بالذكرى. وتندفع حياة الشباب إلى المستقبل حين تنطلق من البداية فهم يعيشون بالأمل. فالعيش في الشيخوخة اجترار، ومن لوازم الاجترار التفكر والتأمل، والعيش في الشبيبة أكل، ومن لوازم الأكل الاستمراء والتذوق. فأنا حين ألتفت بقلبي إلى ذكريات الطفولة ومسرات الحداثة أطاوع هذه النزعة الطبيعية في كل شيخ. ولا أقصد ما يقصده أصحاب الحاضر الفارغ حين يجدون أنفسهم عاجزين عن مجاراة العصر في تنعمه وتقدمه فيقولون في حسرة نفس وهزة رأس : « والله كان زمان ! ».

إن حياة القرية التي أصور لك جانبا من جوانبها في هذا الحديث لا يقاس بحياتها التي تحياها اليوم، لا في اتصالها الوثيق بالشعور العام، ولا في إدراكها الصحيح للوطن المشترك، ولا في تأثرها المباشر بالحضارة الحديثة، ولا في تمتعها النسبي بالعيش الناعم. كانت حين فتحت عيني على الدنيا وحدة من الناس والأرض لا يربطها بالعالم الخارجي إلا سبب ضعيف من الإدارة أو التجارة. كان لا يدخلها على أهلها إلا مفتش الصحة كلما فشت الحمى فيأمرهم بالكنس والرش وتبييض الجدران ثم يذهب ولا يعود إلا مع الوباء. فإذا أقبل شهر أكتوبر من كل عام أقبل عليهم تجار القطن من الأروام إقبال الربيع، فتمتلىء الأيدي بأعواد القصب والبرتقال والبلح، وتشرق دور العرسان باللعب واللهو والمرح. أما قرية اليوم فقد غدت بفضل السيارة واتساع الحضارة ضاحية من ضواحي المدينة تنعم بما تنعم به من طيبات الرزق ومرفهات المدنية، ولكن هل استطاعت

بأغانى الإذاعة وملاهى السينما وأحاديث المقاهى أن تنعم بما كانت تنعم به قرية الأمس من سعادة النفس وسلامة القلب وهدوء البال ؟ ذلك ما أشك فيه .

من الصور التى لاتزال عالقة بذاكرتى من صور القرية القديمة صورة العرس، وهى إحدى الصور التى محاها أو شوهها التطور الاجتماعى الحديث . ومن الخير أن تسجل أصلها فى محفوظات الفن وسجلات التاريخ .

كانت الأعراس فى الريف ، تقام غالبا فى الخريف بعد أن يستبدل القرويون الذهب الأصفر وهو الجنيه بالذهب الأبيض وهو القطن ، فتدور الطاحون على قمح الوليمة ، ويجتمع النساء فى دار العرس يغربلن ما يحمل إليها ، وينخلن ما ينقل منها ، وهن يغنين الأغانى التقليدية بأنغام ساذجة محدودة يستوى فى أدائها الصوت الحسن والصوت المنكر .

فإذا أقبل المساء أوقدت القوانيس وغصت الدار والساحة بالشباب والكهول لا يتخلف منهم إلا الشيخ الفانى والمريض الموجَع ، فبعضهم يلعبون الصينية وهى لا تلعب إلا فى الأعراس إذ يفترق اللاعبون فرقتين ثم يأتون بصينية القهوة ويصفون الفناجيل على شكل دائرى ، ثم يخبىء رئيس الفرقة البادئة خاتما تحت فنجال من الفناجيل ويطالب من الفرقة الأخرى كشفه بالتخمين . فإذا كشفه هو أو أحد رفاقه انتقلت الصينية إليهما . ولهم فى الربح أو الخسارة اتفاق يحدث من تنفيذه كركرة وتصفيق وهتاف يشيع فى الدار الأنس والبهجة . أما الآخرون فبعضهم يجتمعون على الزمر بالأرغول أو الناى ، والنقر على الطبلة أو على الطست ، وبعضهم يتحلقون حول شاعر ينشد أو قصاص يحكى ، وتظل القرية على هذه الحال ، حتى إذا لم يبق على يوم الزفاف إلا أربعة أيام ذهب نفر من أهل التجربة إلى البندر فقاولوا الطبال والفراش والطاهى وقضوا لكل منهم حاجة عمله .

وفى ضحى اليوم السابق ليوم العرس يسيل طريق القرية بالحمير والجمال تحمل هؤلاء وما معهم من فراش وآلة . فإذا بلغوا مدخل البلدة نزل الطبالون فنقروا على الطبول ونفخوا فى المزامير ودخلوها فى موكب من الناس عظيم .

وأول ما كان يعمل صاحب الطبل أن يخرج من الفرقة طبالا وزمارا ومهرِّجا ليجمعوا من الدور الخرق والأطباق والقدور ، فكانوا يسيرون فى الأزقة وعن يمينهم كاتب وقلم ، وعن يسارهم حمار وكيس ، ومن حولهم حشد حاشد من الأطفال يساعدون النقر والزمر بالصياح والجلبة ، فيكون من ذلك كله افتتاح طنان لمهرجان الفرح . كانوا يقفون على كل دار ريثما تخرج إليهم صاحبتها بالخرقة فيضعها صاحب الحمار فى الكيس ، أو بالطبق فيكتب صاحب القلم على ظاهره اسم المرأة ، فإذا رجعوا أخذ الطاهى القدور ليركبها على الوحاق ، والأطباق ليملأها بقمر الدين . وانفرد مهرج الطبل بكومة الخرق البالية ليلفها طبقات على جرائد النخل أو على أعواد القطن ، ثم يشد كل منها بالخيط حتى تتجمع ، ثم يغمسها بالزيت حتى تتشبع . وهذه هى المشاعل التى تستضيء بها زفة العريس بالليل .

هاهم أولاء فى عصر ذلك اليوم وقد نصب السرادق وصُفّت الدكك ، وتربع فوقها القوم وأدخل أبو سعد فى فمه المزمار ، وأقبل المزين يحمل حقيبته ويجلس فى وسط السرادق على حصير ، فيهيء العدة ويضع بجانبه الطاسة التى يبول بمائها الشعر . ثم يأتى العريس والصبيان الذين سيزفون زفة الختان من إخوته فيجلسون بين يديه فيجرى موساه على رءوسهم بأشكال من النقش والزينه تختلف فى رأس العريس عنهما فى نواصى المطهرين .

وفى أثناء ذلك تقرع الطبول وترجّع المزامير وتجلجل الزغاريد وتتساقط قطع النقود فى طاسة المزين . ثم ينصرفون إلى داخل الدار ويلحق بهم الحلاق فيغسل أجسادهم بالصابون ويخضب أطرافهم بالحناء .

ثم ينتقل الحفل كله إلى دار العروس فتفعل الماشطة بها مافعله المزين بالعريس . ويبيت العروسان ساهرين على كرسيين لايبسطان يداً ولا يحركان قدما ومن حولهما الأقارب والأصحاب يغنون ويرقصون ويسمرون حتى مطلع الفجر . فإذا صلى الناس العصر من يوم الزفاف أقيمت فى السرادق حفلة كحفلة الأمس ، وجاء العريس فوقف فوق إحدى الدكك ، وأقبل المزين وفى يده صرة فيها ثياب الفرح من عمامة وجبة وقفطان وحزام وحذاء ، فينزع عن العريس الواقف ثيابه القديمة قطعة قطعة ، ثم يلبسه الجديدة قطعة قطعة . وكلما نضا عنه ثوباً وألبسه ثوباً تغيرت دقة الطبل ونغمة المزمار وزغردة النسوة وقيمة النقوط حتى يأخذ زينته كاملة فيعود إنساناً آخر عليه رواء الغوانى وأبهة الملوك . وحينئذ يأتونه بفرس مطهم فيستوى عليه ، وقد يركبون العروس خلفه ، أو يفردونها فى محمل على جمل . ثم يسير موكب الزفاف يتقدمه هواة « البرجاس » ثم لاعبو « الحطب » ثم فرقة الطبل ، ثم هودج العروس ، ثم المطهرون يسندهم على صهوات الخيل بعض الشباب ، ثم القرية كلها تغرق هؤلاء جميعاً فى موج حى يصطفق بالسرور ويصطخب بالمرح . ويستمر الموكب دائراً حول البلدة حتى يعود إلى حيث بدأ . وهنالك يحمل العريس عروسه على صدره بين الزغردة والتصفيق ورش الملح ويمشى بها متثاقلا حتى يلقيها على السرير فى غرفتها الخاصة . ثم يعود إليها فى منتصف الليل بعد زفته الصاخبة فيغلق الباب ويؤدى مع الماشطة عملية جراحية من غير مخدر ، فيعلو الصراخ فى الداخل ، ويغطى عليه زياط القوم فى الخارج ، حتى تخرج من غرفة العملية امرأة من أهل العروس تزغرد وهى ترفع بيديها شاشة بيضاء قد بقَّعها الدم فيتهلل المنتظرون ويضجون بالأغنية المعروفة « بيضت الشاش ياعروسة ! »

وفى تلك الهوسة يخرج العريس كالقذيفة هارباً إلى الحقول وينطلق فى أثره الشباب الأعزاب ، فإذا أدركوه تناولوه باللكم والقرص والعض وعادوا به دامياً

كالعروس ! وفى الصباح توزع الفطائر وبقايا الحلوى على كل من أعان أصحاب العروس بخدمة أو دابة أوماعون ، بينما يكون الطبالون قد أخذوا يعملون الصباحية فينصب رئيسهم راية فوق السطح ، ويخطب خطبـــة فى الدهليز ، ويشنق أم العريس بشال عمامته ولايفك عنها إلا إذا فداها أبوها وأخوها بقدر من المال !

تلك هى الخطوط المشخصة لعرس القرية القديمة رسمتها على أسلوب المقالة ، ولو رسمتها على أسلوب القصـــة لكانت الألوان أزهى والظلال أدل والتفاصيل أكمل .

جزيرة الروضة في التاريخ

نحوت الشمس على سطح داري بجزيرة الروضة ، وكانت برودة الريح قد ضربت في حرارة الشمس فدفء الجو دفئاً معتدلا يلذ الشعور به ويطيب المكث فيه . وإذا عمك الدفء وشملك السكون وعزلتك الوحدة فلا مفر من حديثك إلى نفسك وانطوائك على وعيك .

وكان الذي مهد الحديث بيني وبين نفسي وقوع بصري على جامع قايتباي الذي بناه القاضي فخر الدين ناظر الجيش سنة ٧٣٠ هـ وجدده الملك الأشرف قايتباي ، وهو قبالة داري من جهة الغرب ، فتمثل لخاطري الشيخ جلال الدين السيوطي وهو يغدو إليه كل يوم من داره المجاورة له فيعقد فيه مجلساً للعلم والأدب يغشاه طلاب المعرفة من القاهرة والجيزة . ثم يخرج في أيام الثلاثاوات إلى « المشتهى » وهو منتزه أريض كان يقع في شرق هذا الجامع ويطل على الفرع الصغير للنيل . وقد طاب مقام السيوطي بجزيرة الروضة وأحبها فاقتضاه هذا الحب أن يكتب في تاريخها كتاباً جامعاً سماه « كوكب الروضة » .

ثم رجعت بي الرؤيا الخيالية إلى ماضي هذه الجزيرة التي خلقتها الطبيعة على صورة سفينة هائلة أرست على مدى قصير من ساحل مصر القديمة ، مقدمها اليوم قصر المناسترلي والمقياس ، ومؤخرها المستشفى الجامعي وفونتانا ، فوجدتها على توالي القرون وتعاقب الدول قد كانت إما حصناً يحفظ الأموال والأنفس ، وإما روضاً يمتع الأرواح والحواس .

اعتصم بحصنها القديم المقوقس حين استولى العرب على قصر الشمع فحطم الجسر ثم مكث بها هو ومن تبعه من الروم والقبط ردحا من الزمن ، ثم أخلاها

المدنية العربية فقامت بها القصور والدور والرياض في ولاية عبدالعزيز بن مروان . وكان مقياس النيل في حلوان ، فلما سقط عموده هناك أمر سليمان بن عبد العزيز عامله أسامة بن يزيد أن يقيمه في الطرف الجنوبي من الجزيرة ، فأقامه ولا يزال .

وكان على الأرض الواقعة على الشمال من المقياس دار الصناعة فنقلها محمد بن طغج الإخشيد إلى ساحل الفسطاط سنة ٣٢٥ وشاد في مكانها قصراً سماه المختار كان آية في جمال الفن وغاية في حسن الزخرف ، وظل بستانه متنزه الخاصة في عهدي الإخشيدية والكافورية وأوائل عهد الفاطمية . وكان البنيان في الجزيرة قد اتصل والعمران قد استبحر حتى عينوا لها والياً وقاضياً وقالوا في التقسيم الإداري لحاضرة الدولة : القاهرة ومصر والجزيرة . فلما استبد الأفضل بن أمير الجيوش بأمور الخلافة خط له في شمال الجزيرة بستاناً وقصراً سماه الروضة فسميت الجزيرة كلها باسمه .

* * *

وكان الخليفة الآمر بأحكام الله مولعا بالبدويات الحسان ، فترامى إليه أن بالصعيد أعرابية بارعة الحسن تقول الشعر وتجيد الحديث تسمى العالية ، فتزوجها جفوة السلطان ونقلها إلى قصره فضاقت نفسها فيه واشتهت الفضاء ، فبنى لها على النيل في جنوب الروضة قصراً على طراز فريد سماه الهودج .

وكانت العالية تحب فتى شاعراً من بني عمها يقال له ابن مياح ، فنازعتها نفسها إليه وبرمت بمقامها عند الخليفة . ولهج المصريون بحديث العالية وابن مياح ، وشاع في الناس أن الشاعرة أرسلت إلى الشاعر هذه الأبيات :

يابن ميَّاح إليك المشتكى مالكٌ بعدكمو قد ملكا
وأنا الآن بقصر موصد لاأرى إلا خبيثاً ممسكاً
كم تثنينا كأغصان النقا حيث لانخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها بقوله :

بنت عمى والتى غـــذيتها ‏ ‏ ‏ ‏ بالهوى حتى جـــلا واحتبكا

بحت بالشكوى وعندى ضعفها ‏ ‏ ‏ ‏ لو غــدا ينفع منا المشتكى

مالك الأمر إليه يشتكى ‏ ‏ ‏ ‏ هالك وهو الذى قدا أهلكا

شأن داودٍ غداً فى عصرنا ‏ ‏ ‏ ‏ مبدياً بإتيه ما قـــد ملكا

وبلغت هذه الأبيات مسامع الخليفة فقال : لولا بيته الرابع لجمعت بينهما على شريعة الله .

ولهذه القصة سابقة ولاحقة . فأما السابقة فقصة ميسون زوج معاوية فقد أتى بها من القفر إلى القصر ولكنها لم تلبث أن قالت :

لبيت تخفق الأرواح فيـــه ‏ ‏ ‏ ‏ أحب إلى من قصر منيف

ولبس عباءة وتقرّ عينى ‏ ‏ ‏ ‏ أحب إلى من لبس الشفوف

وخِرق من بنى عمى نحيف ‏ ‏ ‏ ‏ أحب إلى من علج عنيف

وأما اللاحقة فقصة البدوية التى تيمت الخديو فؤاد عباس الأول فتزوج منها وأنزلها قصراً فى ظاهر القاهرة وأخذ يختلف إليها سراً حتى أنقذها منه من اغتاله فى قصره بينها .

وسار على الأفواه حديث هذه البدوية فنُسجت حولها الأساطير ونظمت فيها الأغانى . ولا يزال المغنون يرددون هذه الأغنية : « ياحالى ع البدوية » .

* * *

وفى أواخر الدولة الأيوبية ابتنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة بهذه الجزيرة فخرّب المختار والمودج ؛ ودمر الدور والمساجد ، وقطع النخل والشجر ، ثم رفع أبراجها الستين على المثلث الجنوبى كله من الروضة . ثم جعلها مقر ملكه ومعسكر مماليكه ومستودع أسلحته . وكان من مفاخر هذه القلعة الإيوان الملكى

الذى افتنت فيه الأيدى الصناع فصفحوا أبوابه بالذهب، وجللوا جدرانه بالمرمر ووشوا سقوفه بالزخرف، وزينوا أرضه بالجزع. ثم جعلوا من وراء سوره معرضاً لسباع الوحش والطير يتفرج به السلطان، ومن خلف معرضه مروجاً يتدفق فيها النيل، فيكون لها منظر رائع وهى المنيل.

فلما حكم المماليك تقسموا أبراج القلعة ونقلوا ما كان فيها من رخام وحجر وخشب فبنوا به بعض المبانى العامة. ثم جرت بعد ذلك على الجزيرة جوارٍ بالانس والوحشة وبالنعيم والبؤس حتى استهل العصر الحديث فاختط ابراهيم باشا البستان الكبير فى طرفها الشمالى وجاب إليه النوادر من الشجر والزهر، والأوابد من الوحش والطير، وشق به القنوات وسلسل فيها الماء، وأرسى الروابى ونمنم فوقها النبت، على نحو ما نرى اليوم فى بستان الخديو اسماعيل بالجيزة « حديقة الحيوان »، ثم جعله منتزهاً للناس يرتادونه فى الأعياد والمواسم. وبنى حسن باشا المناسترلى كتخدا مصر فى عهد عباس الأول قصره فى طرفها الجنوبى. ثم قضى نظام الطبقات أن يسكن العامة الجانب الغربى على النيل الكبير، وأن يسكن الخاصة الجانب الشرقى على النيل الصغير، فبنى اسماعيل قصره وبستانه فى الشرق من جامع قايتباى وهو قصر محمد على الذى صار متحفاً فى عهد الثورة. ثم تتابع الامراء على البناء فقامت قصور قاسم باشا وذى الفقار وعلى شريف وسليم الجزائرى، ونشأت بساتين شاكر بك والبارودية والمندورة، ثم عبثت يد الفناء بالناس، وعصفت ريح البلى بالدور، فذهبوا وبقيت الأطلال!

ثم جرى على هذه الأطلال حكم الديمقراطية فتوزعها الشعب وأقام على القصور دوراً ومدارس، وعلى الدوائر عمائر ومتاجر، وعلى اللهو إنتاجاً وخدمة.

* * *

على أن الروضة كانت فى عهودها المختلفة أرحب البقاع صدراً بالشعب، فكانت متنفسه فى الضيق ومستراده فى النزهة ومحتفله فى المواسم، وبخاصة فى يوم شم النسيم وفى ليلة الغطاس، وهى الليلة الحادية عشرة من شهر طوبة، وكان

الأقباط يحيونها فى الروضة فيوقدون النيران ويشعلون المشاعل ويتبسطون فى القصف والعزف واللهو حتى تحين الساعة فيغطسوا وينصرفوا . .

وكان المسلمون حتى الخلفاء يشاركونهم فى أحيائها بالوقود واللهو ، قال المسعودى فى مروج الذهب « حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر ، والإخشيد فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشموع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة ألوف من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لايتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب وآنية الذهب والفضة والجواهر والملاهى . . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولاتغلق فيها الدروب . ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض » .

تلك صور الروضة ومنيلها فى شتى العصور منذ الفتح ، مرت بخاطر السيوطى فجعل منها كتاباً ، ثم مرت بخاطرى فجعلت منها مقالة !

كانت وكنّا، ثمّ صارت وصرْنا

كانت انجلترا فى حين من الدهر الغافل قد أصبحت بفضل المكر والصبر والمراوغة والبرود والأسطول المركز العصبى فى رأس العالم كله. تقول للدولة كونى فتكون، وللحكومة قومى فتقوم، وللأمة اخضعى فتخضع، وللبحار والجزر أطيعى فتطيع، لا يخالف عن أمرها شعب، ولا يدور فى غير فلكها كوكب، ولا تغيب عن ملكوتها شمس. ملكت عوالم الرومان والهنود والعرب، وهزمت جيوش نابليون وغليوم وهتلر. وسخرت لأمرها أقطاب العلم والعمل والمال فحولوا مجارى الأرزاق فى كل بقعة من بقاع الأرض إلى جزيرتها الجديبة فرضيت وغضب الخالق، ونعمت وشقى الخلق!

وكنا كما كان غيرنا مدفوعين بالكره إلى مدارها المظلم، مجرورين بالقوة فى تيارها البارد، لا ندرك لذاتنا وجودا مستقلا، ولا نعرف لحياتنا غاية معينة. وكان الذين دفعونا إلى ذلك المدار، وألقونا فى ذلك التيار، رجالا يحترفون السياسة أو يتجرون بالدين، ركبهم شيطان الاستعمار فباعنا بعضهم له بيع السماح، وزوجه بعضهم من مصر زواج الأبد!

كان عرشنا فى القاهرة وملكنا فى لندن، وحكومتنا فى ميدان لاظوغلى ورئيسنا فى دوننج ستريت[1]. فلا وزارة تسقط أو تقوم، ولا قانون يصدر أو ينفذ، ولا أمر يبرم أو ينقض، ولا موظف يعين أو يقال، الا اذا وافق قصر الدوبارة[2]!

وما ننس لاننس تأليف احدى الوزارات المصرية بمرسوم من الدبابات البريطانية استخذى له الملك الضخم ولم يعارض، واستكانت المعارضة ولم تعترض، واكتأب له الشعب ولم يغضب! وأساءت هذه الوزارة نفسها الحكم وأفرطت

(١) الشارع الذى تقيم فيه رئاسة الحكومه البريطانيه فى لندن (٢) قصر السفارة البريطانيه فى القاهرة

فى الإساءة ، حتى ضجت الصحافة وسخطت الأمة واحتجت الأحزاب وقدموا باحتجاجهم عريضة إلى القصر « التمسوا » فى ختامها قبول الولاء وإقالة الوزارة ! فتنسم الشعب نسيم الأمل ، وتوقعت الأحزاب نجاح المسعى ، واشرأبت أعناق المستوزرين إلى الكراسى الخالية ، وجرت أقلام الديوان الملكى بالمراسيم الجديدة ، واذا ببرقية من الوزير الانجليزى إيدن تهبط على السفير البريطانى كيلرن تقول فى عبارة موجزة آمرة : نوتشنج : « لا تغيير » فقرت فورة من فار ، وخاب رجاء من رجا ، وتصاغرت كبرياء من استكبر ، وانسابت « جمعية المنتفعين » من حزب الوزارة فى شوارع القاهرة يهتفون بعبارة البرقية الإنجليزية نوتشنج ! نوتشنج !

كذلك كانت انجلترا وكانت مصر فى الزمن الذى غفا فيه الشرق وزهق الحق وفجر الاستعمار وطغت القوة .

ثم فعلت الشيخوخة بانجلترا فعل الخريف بالشجرة العتيقة ، زعزع جذعها النخر ، وأسقط ورقها الذابل . وهبت عليها العاصفة من شطئان النيل وكثبان القناة فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فهزتها هزة الزلزال فتقلص ظلها فى إفريقيا وانقبض نفوذها فى آسيا . وكان عقلها قد خرف وصبرها قد وهن وبرودها قد فتر وأسطولها قد بلى فصارت إلى الغروب الذى يعقبه الظلام والبرد واليأس . وكان ليلنا الطويل قد آذن بالإصباح ، وكان الشروق فى هذه المرة قد بزغ من « عين شمس[1] » ، وكان الأحرار من شباب الجيش هم الذين هتكوا عنه الحجب فشع بالنور والحرارة والهداية والأمل ، فهربت الخفافيش التى يعميها الضوء ، وبادت الجراثيم التى يقتلها الطهر ، ووقفت مصر النقية الفتية لعدوها الكافر بالحق ، الفاجر بالباطل ، فاقتلعت جذوره السامة من أرضها الطيبة ، وأخرجته منها محسورا مدحورا كما أخرج الله إبليس من الجنة لم تغن عنه وسوسته ولا أفعاه .

---

(١) المكان الذى اندلعت منه نار الثورة الناصرية

فلما أممنا شركة القناة الفرنسية الانجليزية أوهمه ضلاله القديم أن الفرصة قد سنحت ليعود إلى فردوسه المفقود ، ولكن جون بول قوى الذاكرة ، لم ينس هجمات الأسود فى الليالى السود على جنوده الضاربين على ضفاف القناة ، فاستنصر مريان(١) ويهوذا وهما يتسعران بالحقد الأسود على مصر لوقوفها موقف الذائد الحامى من عرب الجزائر وفلسطين . وهجم الأعداء الثلاثة هجوم الغدر على سيناء وبورسعيد ، وأنساهم خذلان الله أن بورسعيد غير التل الكبير ، وأن عبد الناصر غير محمد توفيق ، وأن الجيش الذى كان يعد بالألوف وهو أعزل ، أصبح يعد بالملايين وهو مدجج ، وأن مصر الثورة قد أصبح لها فى الميزان الدولى وزن يقام ورأى يرجح ، وهى توشك أن تجعل من الأمة العربية والأمم الشرقية كتلة ثالثة تقتل الاستعمار فتقتل العدوان ، وتضمن الحياد فتأمن الحرب .

أراد الأحمق إيدن أن يكون هذا الهجوم الدنىء على مصر، وأراد الله أن يكون على انجلترا نفسها . وقدر الغبى أن تكون النصرة له فى أسبوع، وقدر القدر أن تكون عليه فى هذه المدة . وخرجت مصر من الحرب وقد أصابت كل شىء ، وخرجت منها انجلترا وقد أصيبت فى كل شىء : أصابت الحرب مجدها فجعلته حطاما ، وأصابت شرفها فقلبته نذالة . ثم أصابت اقتصادها فجعلته أزمة لا تنفرج ، وأصابت حاضرها فى الغرب فجعلته ماضيا لا يعود ، وأصابت مستقبلها فى الشرق فجعلته وهما لا يتحقق . وعاون عبد الناصر قضاء الله فى بريطانيا الباغية بدفاع حربى مجيد وهجوم سياسى بارع : دافع بالصبر والصدق والبسالة والاستماتة ، وهاجم بالحق والقانون والأمم المتحدة والدول الحرة . وكانت هذه المعركة التى نشبت بين دولتى الاستعمار ومصر أول معركة فى تاريخ الإنسان احتشدت فيها أمم الأرض جمعاء بألسنتها وأسلحتها بجانب دولة لم توضع عن عنقها الأغلال إلا منذ أربع سنين لتظاهرها على دولتين من كبريات الدول تعاونتا على العدوان والإثم ، وتآمرتا على الأمان والسلم .

(١) مريان فتاة حسناء يجعلها الفرنسيون شعارا لهم ويهوذا علم جنس على اليهود

وابتلى الله إيدن بالفشل وأتم عليه الخيبة فانسحب من بورسعيد كما انسحب أستاذه تشرشل من دنكرك ، ولكن شتان بين انسحاب تم بعد هزيمة ، وانسحاب وقع بعد جريمة !

ثم أخذ يستعرض فى خياله فلول جيشه والسفن تجرى بهم على أثباج البحر موتى أو جرحى أو مرضى ، ويستعيد فى ذهنه ما جره على وطنه وقومه من الجوائح والفضائح ، وينظر فى الوقت نفسه فى أمر خصمه الألد عبد الناصر فيراه قد بلغ من توفيق الله اياه أن صار رجل العالم فى سنة ١٩٥٦ وأن مصر قد صارت بقيادته قبلة الأنظار ومهوى الأفئدة ومثابة العروبة ، فانسحقت قواه وانهارت أعصابه واشتدت أوصابه فانتحر بكتاب الاستقالة الذى قدمه إلى مليكته وهو محزون ، فتقبلته وهى مسرورة ! وهذه هى المرة الأولى التى تُسقط فيها مصر وزارة انجليزية ، بعد أن ظلت انجلترا طول الاحتلال تسقط كل وزارة مصرية !

وهكذا صار أمر بريطانيا إلى دولة غير عظمى ليس فى طوقها وسع ولا فى يدها زمام ، وصار أمر مصر إلى دولة زعيمة لها فى روسيا شأن وفى أمريكا مقام .

بين الواقعية والكلبية

الواقعية مذهب من مذاهب الأدب عند الإفرنج في القرن التاسع عشر بعد الميلاد . والكلبية مذهب من مذاهب الفلسفة عند الأغريق في القرن الرابع قبله . فالجهة الجامعة بين المذهبين لاتتمثل في الذهن ، لا من الزمن ولا من الموضوع ولا من الغاية . فما الذي حملني على أن أجمع بينهما في هذه الكلمة ؟

استمرّ على كل حال في القراءة فلعلك واجد فيما تقرأ علة هذا الجمع وطبيعة هذه العلاقة .

الكلبية كما فهمها (ديوجين) ، والواقعية كما فهمها (بلزاك) ، والطبيعية كما فهمها (زولا) ، تتفق جميعاً في تنظيم حياة الإنسان أو الفنون على مقتضى الطبيعة .. فالكلبيون كانوا يرون الحكمة في رفض الثراء ونبذ الفضول ، والعزوف عن اللذة ، والزهد في الرفاهية ، والتحلل من كل قيد للاجتماع ، والخروج على كل نظام للسلوك . وكان زعيمهم يسكن في برميل ويمشي حافياً ويغترف الماء بيده ، ويستتر برداء واحد على اللحم ، وينام تحت السماء في أروقة المعابد طول العام . وسُموا بالكلبيين لأنهم كانوا يحملون على عابري السبيل بالتهكم اللاذع فشبهوهم بالكلب العقور .

والواقعيون كانوا يرون البلاغة في تصوير الطبيعة على الواقع المحسوس ، وتفسير غوامضها على المعنى الحق . والواقع يكون خيراً كما يكون شراً ، والمعنى يكون حسناً كما يكون قبيحاً ، ولكنهم يحملون بالهم إلى دقائق الحياة المبتذلة القبيحة أكثر مما يحملونه إلى دقائقها المصونة الجميلة ، لاعتقادهم أن الشر في الناس هو الأصل ، وأن القبح في الطبيعة هو الجوهر .

شق الطربوش الذهبي في فم الإنسان تجد الناب ، واخلع القفاز الحريري عن يده تجد المخالب .

فالواقعية تلاحظ الطبيعة وتنقلها نقلا موضوعياً محايداً أميناً لا تدخل الفنان بشعوره الشخصي فيه ، ولا تحفل بإظهار السمات الجمالية به ، ولا تقصد إلى استنباط المغزى الخلقي منه .

والواقعية فى معنى من معانيها بذرة فى شعر عبد الله بن المعتز ، فقد كان يعرف الشر ويبرر هذه المعرفة ، ويهوى القبح ويعلل هذا الهوى . فهو فى الشر يقول :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيه
فمن لايعرف الشر من الناس يقعْ فيه

ويقول فى القبح :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه

على أن هذه البذرة الضائعة فى حقول شعره كانت أضعف من أن تثمر المذهب الواقعى فى الأدب العربى ، لأنها خاطرة عن خواطر شاعر ، لافكرة من فكَر فيلسوف .

والواقعية مجالها القصص والمسرح لا الشعر والقصيدة .

والطبيعيون يشاركون الواقعيين فى تصوير الواقع ، ولكنهم ينفردون عنهم بطريقة تفسيره ، فالواقعى يكتفى بالملاحظة والتسجيل والتعليل ، والطبيعى يزيد على ذلك التجربة والوراثة والعلم . وهؤلاء وأولئك يشترطون (الفنية) فى المذهب . فلا يخرجون على قواعد اللغة ولايتمردون على قوانين البلاغة ، ولا ينقلون عن الطبيعة نقل المصور الفوتغرافى يقف عند جهد الآلة ولا يضيف إلى الصورة نوراً من فكره ولا لوناً من خياله .

صحيح أن الواقعية من حيث الفكرة تعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة ، ولكن من الصحيح أيضاً أنها من حيث الصورة لاتقص أجنحة الخيال ولاتطفىء ألوان الحسن . أليس من زعماء الواقعية وأساطينها (فلوبير) صاحب (مدام بوفارى) ؟ إن واقعيته فى الموضوع لافى الشكل ، وإن شعبيته فى الفكرة لافى الصورة ، وإن أسلوبه آية فى البلاغة والدقة ، وغاية فى الأناقة والجمال .

كتب قصته الجميلة (سلامبو) عن الحضارة الفينيقية فى قرطاجنة ، فاقتضته واقعيته التى تعتمد على الوثائق أن يقرأ فى موضوعها ثلاثة وخمسين كتاباً ، وأن يزور أطلال هذه المدينة فيستنطق الآثار ، ويستوحى المنازل ، ويجمع الأسانيد ، ويرصد الأحاسيس ، ويصور المناظر . واقتضته (فنيته) التى تعتمد على الألوان أن يصوغها فى نظام من البلاغة مونق باللفظة المختارة ، مشرق بالعبارة العذبة .

وقل مثل ذلك فى سائر زعماء المذهب كبلزاك وموباسان وزولا .

فإذا فهمنا الواقعية فى أدبنا المعاصر على أنها تصوير للناحية الدنيا من حياة الشعب الكادح بما فيها من عناء وشقاء وألم ، وما بها من شذوذ وعوج ونقص ، ليوقظ الطموح إلى الكمال فى شعور العامة ، ويحرك النزوع إلى الإصلاح فى نفوس الخاصة ، كان هذا الفهم حقاً لاجدال فيه .

* * *

أما إذا فهمناها على أنها الانطلاق من كل قيد ، والتنكر لكل عرف ، والاستخفاف بكل قيمة ، والنزول بالفن نفسه إلى مستوى إدراك الرجل العامى وذوقه ، فنكتب له الأدب بقلم « العرضحالجى » ، ونعزف له الموسيقى بزمارة الراعى ، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش ، فتلك هى الكلبية لا الواقعية .

أنا أميل بطبعى إلى الواقعية بمعناها الفنى الصحيح ، ولكنى أكره لنفسى ولغيرى غلو الغالين فيها بنقل الطبيعة والحقيقة نقلا آلياً ، فبحاً بقبح ، وعرياً بعرى ،

وغثاء بغثاء ، دون أن يسمحوا للذوق أن يهذب ولا للفن أن يجمل . وأرجو أن تظل الواقعية كسائر للذاهب الجدية محدودة بحدود الفن محكومة بأحكامه . وحيثما يكن الفن يكن الجمال .

إن الفن كما أعتقد لا تُطلب منه الحقيقة التى تُطلب من العلم . إنما يطالب منه أن يعرض شبهها مجملا بألوانه مزينا بوشيه . وكأنما وُضع بين الفن والنفس ميثاق ترخِّص له الحواس بمقتضاه أن يزوِّر الحقيقة . وهو فى مقابل تلك الرخصة يحقق لها السرور واللذة .

فرخصة الشعر أن يتكلم بالوزن والقافية ، ويعبر بالمجاز والاستعارة ، ويرتفع بالقصيدة أو المسرحية إلى مستوى لا يكون فى الحقيقة . ورخصة التصوير أن ينقح الواقع كما يحب ، ويغير الوضع كما يشاء ، ويرتفع بالصورة أو المثال إلى مستوى لا يوجد فى الطبيعة . ورخصة الموسيقى أن تذهب فى الإيقاع مذهب الإبداع فتؤلف من اختلاف الأصوات وتنوع النبرات وتعدد الطبقات لحنا متكاملا متلائما لا يطرق الآذان له مثيل فى الواقع . وهذه الرخص التى تموه الحقيقة لا بد منها للفن على اختلافه ليبدع ما لم تبدعه الطبيعة من الجمال الذى يبعث الإعجاب ويحدث اللذة .

إن فى الفن شيئا أكثر من التقليد المحض . اسمع آلة تقلد تغريد البلبل كما هو بسذاجته ورتابته فلا تجد فيما تسمع جمالا يعجب ولا لحنا يطرب ، ولكنك اذا سمعت الآلات الموسيقية تعبر عنه فى سمفونية أعجبت كل الإعجاب وطربت غاية الطرب ، لأن الفن قد دخل التقليد فى هذه الحال فنقح وصحح وزاد .

لم توجد فى الطبيعة سمفونية (بتهوفن) ، ولم توجد فى الخليقة فينوس ميديتشى . وانما الفن وحده هو الذى ألف من النبرات الرخيمة المتفرقة فى أصوات

الطبيعة هذه السمفونية ، وصاغ من الملامح الجميلة الموزعة على أجسام الخليقة هذا التمثال . وعلى نحو من ذلك تقول فى الشاعر الذى ينظم من الأحاسيس الذاتية والمناظر الطبيعية قصيدة ، وفى الكاتب الذى يؤلف من الوقائع الفردية والطبائع الانسانية قصة . ومن الجائز ألا يكون لهذه القصيدة مثال فى الكون ، ولا لهذه القصة وجود فى المجتمع ، ولكن العبرة فى الفن الحدوث الممكن لا الحدوث المحقق .

ذكرت العلاقة بين الفن والطبيعة لأقول إن الواقعيين الغلاة الذين يتوخون الحقيقة ويتحرون الواقع ويؤثرون الدون وينكرون الذات إنما يكفرون بأثر الفن فى رفع النفوس ودفع البؤوس وتجميل الحياة .

الواقعية لا تعادى الفن

عقب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى محرر الصفحة الأدبية فى جريدة (الشعب) على كلمتى فى الواقعية والكلبية فبدأ تعقيبه بكلام ينم عن حرجه من نشر ما يخالف رأيه أو يعارض مذهبه . ثم خفف عن ضميره ثقل التبعة بأن ألقى علىّ مسئولية ما كتبت، وفوض الأمر فى الرفض أو القبول إلى القارىء الذى يثق به، والعامى الذى يعتمد عليه ، ودعا جميع الواقعيين المصريين إلى مناقشتى فيما رأيت ، أو محاسبتى على ما جنيت !

وكنت أحب للأستاذ الشرقاوى أن يبدأ بغير هذا الكلام ، فانى أعيذه بالله أن يجرى على خاطره معنى من معانى الحجر على حرية الفكر وهو من (الذين اندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام) .

وكلمتى التى كتبتها لأحدد فيها العلاقة بين الواقعية والفن والطبيعة لم تمس بوجه من الوجوه عقيدة من عقائد الدين ، ولا فضيلة من فضائل الخلق ، ولا مادة من مواد القانون ، ولا سنة من سنن العرف .

ولم يخطر ببالى وأنا أكتبها أدباء معينون لا من الشباب ولا من الشيوخ . ففيم إذن هذا الضيق ؟ ولم إذن هذا الغمز ؟ وعلام إذن هذا الاستعداء ؟ يظهر لى ولمن قرأ المقالين أن الأستاذ الشرقاوى قد حاول جاهدا أن يلتمس فيما كتبت المقالين موضعا للتعقيب فلم يجد ، ولكنه وعد بأن يعقب فاكتفى بأن يقول : « إنه أحد الذين لا يوافقون على كل ما فى هذا المقال من أفكار » واضطر إلى أن يخرج على مبادىء الواقعية فترك الموضوع وأمسك بالذات ، وأهمل المكتوب وتعلق بالكاتب !

ضربت المثل فى مقالى بفلوبير ، وضرب المثل فى رده بمنيرة المهدية ، وهو لا يقصد بالطبع إلى أن منيرة من زعيمات الواقعية ، وإنما يقصد إلى أنها « لم تحترم ذكرياتها فوقفت تغنى منذ ثلاثة أعوام ، كما كانت تغنى منذ ثلاثين عاما » فهو يضربها مثلا لأمثالنا (الذين رفضوا أن يندفعوا مع حركة الزمن إلى أمام) ثم لا يزالون يكتبون ! وكان الأجدر بالأستاذ الشرقاوى أن يضرب المثل بأم كلثوم ، فقد عاصرت (منيرة) ولا تزال أميرة الغناء العربى فى العالم كله دون أن تنزل إلى مبتدعات عبد الوهاب والطويل !

على أن ملكة الكاتب لا يعتريها ما يعترى حنجرة المغنى من الخشونة والضعف بتقدم السن . وليست الكتابة بقوة العضل واكتناز اللحم ، وإلا لم يظفر بجوائز نوبل شيخ من شيوخ الأدب والعلم . ثم تلطف الكاتب الشاب فنعتنى بأستاذية الأدب القديم ، ونصحنى أن آخذ فى كلام غير الواقعية وأسمعنى من (زركشة الأكفان) و (برودة الرخام) ما لم أفهم ، وقولنى عن الواقعية،وفلوبير مالم أقل . وكل ذلك لغو لم يوجبه خطأ واقع ولا ضغن قديم ولا خلاف حادث ، وإنما هو الاعتقاد الشائع بإن النقد أو الرد يحدث من الدوى بلسع اللسان وافتراء الباطل أكثر مما يحدثه بسداد المنطق واتباع الحق !

وكان الظن بالأدباء الشباب الذين يدعون إلى أدب أفضل وأسلوب أحسن أن ينهجوا للنقد منهجا يتفق مع سمو الشعور ورقى العقل .

لندع هذا ولنعد إلى حديث الواقعية ، وليغفر لى الأستاذ المعقب إعراضى عن نصيحته هذه المرة ، فانى إن سكت لاينحسم بسكوتى الخلاف بينى وبينه . ولكن أى خلاف ؟

أنا لا أعلم بينى وبين الأستاذ الشرقاوى ولا بينى وبين غيره خلافا فى مدلول الواقعية العالمية ، لامن حيث الينبوع والموضوع ، ولامن حيث الطريقة والغاية .

وأظننى قد اتخذت من أصولها مذهبا لنفسى جريت عليه منذ كتبت لا يختلف عنها إلا بتقويم الجمال وتقدير الخلق. وما كان لى أن أكتب على غير هـذا المذهب بعد ما فرضته علىّ الطبيعة والبيئة، فقد نشأت فى قرية صغيرة فقيرة من قرى مركز طلخا، وهو أوحد المراكز المصرية جميعا فى خش النظام الإقطاعى وجوره.

كان يملكه طوسون والبدراوى ومحمد على وسيف الدين وسرسق ووزارة الأوقاف، فلم يكن للفلاح الذى يعيش فيه إلا أمتار ينام فوقها وهو حى، وأشبار يرقد تحتها وهو ميت.. وفى المدة التى تفصل بين انتقاله من ظهر الأرض إلى بطنها كان عبدا المالك يستذله ويستغله ويملك عليه الحياة والموت. كان يعمل ولا يجد القوت، ويمرض ولا يجد الدواء، ويُظلم ولا يجد الرحمة.

فى غمرة هذا البؤس الذى لا حد له ولا حيلة فيه نشأت وعشت، فرأيت الأمير كيف يطغى وينسى الله، والباشا كيف يبغى وينسى العدل، والفلاح كيف يذل وينسى الحرية، والأجير كيف يهون وينسى الحياة.

ومن ينبوع هذا الشقاء الذى لا ينضب معينه ولا يسكن تياره استمددت موضوعاتى التى ضمها كتابى (وحى الرسالة) فى مجلداته الأربعة. والقراء يذكرون أنى أول من كتب عن أعدائنا الثلاثة : الجهل والفقر والمرض، ووضعت لمكافحتها المنهاج المفصل لوزارة الشئون الاجتماعية فى سنة ١٩٣٦.

ربما كان الخلاف بين الواقعية المصرية والواقعية الأوربية، أو بين الواقعية المتطرفة والواقعية المعتدلة، أن من الواقعيين المصريين من يريد أن يهبط باللغة والأسلوب إلى مستوى الأميين فيكتب لهم بالعامية ويدنى المعانى من أفهامهم بتجريد الأسلوب من خصائصه البلاغية وسماته الجمالية حتى لا يكون الأدب فى ذاته غاية يصفو به الذوق وتسمو به الروح وتجمل به الحياة، والواقع الذى تحققته من اختلاطى بالشعب فى حياة القرية وتحرير الرسالة أن القارئين من الزراع والصناع يفضلون الشعر على الزجل، ويتأثرون بالمقال البليغ أكثر مما

يتأثرون بالقول الساذج . والأدب هو الجزء السماوى فى الإنسان ينزع به دائما إلى ما هو أعلى وأكمل ؛ فهو له كالجناحين للملاك ، يرفعه من كثافة المادة إلى لطافة الروح . ومن واجب الأديب أن يقوى هذا النزوع فى نفوس الشعب بتصوير المثل العليا للجمال والفضيلة وحمله بطريق التثقيف على أن ينظر إليها من فوق رأسه لا من تحت قدميه .

إن الحياة فيها المسجد والسوق، وفيها المدرسة والمصنع ، وفيها الحديقة والمطعم ، وفيها الإستديو والورشة ، وكل جهة من الجهات المعنوية تعدل الجهة التى تقابلها من الجهات الحسية ، فلماذا نُكره الأدب على أن يتقلب فى الجهات الدنيا لا فى الجهات العليا ، وأن يعيش مع ابن آدم فى حيوانيته لا فى إنسانيته ؟

إن الأدب للشعب كله ما فى ذلك خلاف ، ولكنه إذا نزل إلى عامته فإنما ينزل ليرفعهم إلى السطح لا ليغوص معهم إلى القاع . وقول من يقول إن الأدب للأدب يدخل بهذا المعنى فى قول من يقول إن الأدب للحياة .

إن الواقعية بمعناها العام مذهب من مذاهب الأدب . والأدب عند الأمم جميعا فكرة سليمة فى صورة جميلة ، وجمال الصورة فى كل لغة لا يتحقق أولا و بالذات إلا بسلامة العبارة من الخطأ والغثاثة .

والواقعية لا تعادى الفن ولا تنافيه . والواقعيون أجمعون هم من الكتاب الأفذاذ الذين أوتوا ملكة البيان وفقهوا أسرار البلاغة . وما نعرف أحدا منهم تعاطى الكتابة فى لغته وهو ينكرها كل الإنكار ويتنكر لأدبها كل التنكر ، فهل يريد الواقعيون المصريون أن يكونوا بدعا من سائر الكتاب فيفصلوا بين الواقعية والفن وبين الكتابة واللغة ؟

إن كانوا يريدون ذلك فهو الخلاف الذى لا ينتهى بيننا وبينهم ، وإن كانوا يدعون الى واقعية مصرية تنبثق من حياة الشعب ، وتحرص على تقاليد العروبة ، فتؤثر الفصحى وتقدس الخير وترعى الجمال فانا وإياهم على كلمة سواء .

الأدب يُوجِّه ولا يُوجَّه

ليس الكاتب أو الشاعر الخليق بهذا الوصف إنسانا كسائر الناس تبين له الوجهة وتعين له الغاية ، و إنما هو إنسان أعلى ، ميزه الله بقوة الفكر وحدة العاطفة وسمو الخيال ، ليشارك فى عملية التقدم العام لركب الخليقة ، يدفعه بحوافزه العظمى إلى الأمام ، و يرفعه بمثله العليا إلى فوق .

فهو من أصحاب الرسالات الفكرية الذين يشعرون قبل غيرهم بالنقص لقوة الحس فيهم ، ويفكرون أكثر من غيرهم فى الكمال لصفاء النفس منهم ، و يتخيلون دون غيرهم ما وراء الواقع لخصوبة الخيال لديهم . وحكمهم فى تبليغ رسالات الله عن طريق الإلهام ، حكم الأنبياء الذين بلغوا رسالاته عن طريق الوحى؛ إلا أن طبيعة الرسالة الأدبية تختلف عن طبيعة الرسالة الدينية : رسالة الأدب تغذية الشعور بالجميل والجليل ، ورسالة الدين تقوية الضمير بالخير والحق .

والأدباء كالأنبياء يصطفيهم الله من خلقه ، ويصنعهم على عينه ، ويؤتيهم العلم من لدنه . . فقول رجال الدين : « ما اتخذ الله من نبي جاهل ، ولو اتخذه لعلمه » يصدق على الأديب . فهو ميروس ودانتى وشكسبير وموليير و برنارد شو فى الغرب ، ولقمان وكونفشيوس وزهير وعلى وابن المقفع والمتنبى فى الشرق ، كانوا فى العلم اللدنى أشبه بموسى وعيسى ومحمد فى الرسل ، لم يتلقوا الآداب عن أستاذ ، ولم يتخرجوا فى العلوم من جامعة ، وإنما أفاض الله عليهم من علمه ، وكاشفهم بالمحجوب من غيبه ، فانبثقت فى أفئدتهم أشعة الهداية ، وتفجرت على ألسنتهم ينابيع الحكمة ، فأتوا بما لم يأت به فيلسوف ولا عالم !

فالأديب الموهوب زعيم بالفطرة ، توجهه نفسه الكبيرة بطبيعتها إلى أن يحرك فى شعبه الشعور بالنقص ، و يوقظ فى وعيه الطموح إلى الكمال ، بتلك

الصرخات التى يرسلها فيه ، مؤلفة فى كتب، أو منظومة فى قصائد ، أو مصورة فى مقالات ، أو محلّلة فى قصص ، أو ممثلة على مسرح .

يفعل ذلك من تلقاء نفسه لا عن تلقين ملقن ولا توجيه موجه . وإلا فمن الذى وجه ديدرو ومونتسكيو وروسو إلى التمهيد للثورة الفرنسية ؟ ومن الذى وجه تولستوى وجوركى وتورجنيف إلى التمهيد للثورة الروسية ؟ ومن الذى وجه الأفغانى ومحمد عبده والبارودى ونديم إلى التمهيد للثورة العرابية ؟ فقول السادة القائلين بأن الأدب يجب أن يوجّه إلى الحياة أو إلى الشعب ، وأن يقصد به بعد الجلاء إلى اليمين أو إلى اليسار ، قول من يعتقدون أن الأدب آلة لا نفس ، وصنعة لا طبع ، وعماية لا إلهام ، وفى هذا الاعتقاد نزول بالأدب إلى منزلة الوسائل المادية للعيش ، يوجّه إلى القصد الذى تريده الجماعة ، كما توجه العمارة أو النجارة إلى الطراز الذى تقتضيه الحضارة ! وليس هذا من عمل الأدب أو الفن ، وإنما هو من عمل العلم أو التعليم . العلم وحده هو الذى يوجّه إلى تحقيق تلك الوسائل وتطبيقها على الوجه الملائم لحاجة الشعب ورفاهيته .

أما الأدب فهو السياسة العليا للأمة كما سموه بحق ، زعامته مستقلة ، ورسالته متبعة ، يوجِّه ولا يوجَّه ، ويقود ولا يُقاد . وإذا جاز للجيش أن يوجه القائد، جاز الشعب أن يوجه الأديب .

ومن المحال أن يجوز ذلك ، لأن الشعب ينفعل بالأدب ولا يفعله ، ويتأثر به ولا يؤثر فيه . ولا تعترض علىّ بالمأثورات الشعبية « الفولكلور » ، باعتبارك إياها إنتاجا للشعب ، فإن أولئك الأدباء المجهولين الذين أرسلوا الأمثال والحكم ، ونظموا المواويل والأغانى ، وألفوا الأساطير والنوادر ، وصاغوا الضوابط الزراعية والمناخية من نحو قولهم : « قمح بابه ، غلب النهاية » و « فى برمهات ، إسرح الغيط وهات » و « فى توت ، عيان الحمير يموت » أولئك الأدباء الموهوبون قوم تميزوا على نظرائهم من العامة بما آتاهم الله من صحة التفكير وقوة التعبير وصدق النظر ، فارتفعوا فى طبقتهم وبيئتهم إلى مقام القادة ، يأخذ الناس بتجاربهم

فى الأمور ، وينزلون على أحكامهم فى القضايا . ولا فرق بينهم وبين الأدباء المعلومين إلا أنهم جهلوا لغة الخاصة فاستعملوا لغة العامة ، فغض ذلك منهم ، وصرف عين التاريخ عنهم ، ولكن البلاغة ليست مقصورة على قوم دون قوم ، ولا خاصة بلغة دون لغة .

وقصارى ما أقوله للسادة الذين يريدون أن يخلقوا الأديب بالأمر ، وينشئوه على القواعد ، ويسددوه بالنقد ، أن الأديب من صنع الله ومن إعداد الطبيعة ، فانتظروا حتى يرسله فإذا أرسله فاتبعوه ودعوه يعمل على سجيته . لا ترسموا لرسالته الحدود ، ولا تقيموا لقريحته الحواجز ، ولا تحبسوه فى القفص الذى حبستم فيه البلبل ، ولا تعوقوه بالسد الذى عوقتم به النهر . دعوه يرسل التغريد فى كل أفق ، ويسلسل الخرير فى كل اتجاه .

ولا يشتبهن عليكم أمره فإن له علامات تميزه وتدل عليه :

إنه إنسان متمرد متجدد منطلق . لا يرجع القهقرى ، ولا يطيق الركود ، ولا يقبل الإسفاف . . لا يهتم بقواعد البلاغة لأن قوانينها مقتبسة من فنه ، ولا يعبأ بمذاهب النقد لأن مقاييسها مقدّرة على كلامه . يبصر فى الظلام أبعد مما يبصر فى النور ، ويشعر فى الشدة أقوى مما يشعر فى الرخاء ، وينتج فى القيد أبلغ مما ينتج فى السراح ! لأن الرسول إنما يرسله الله حين يطغى الظلم ويبعد الضلال ويبغى المنكر ، حتى إذا بلغت الرسالة واستكان الجور واستبان الطريق ، فتر الوحى وهدأ الجهاد وقرت النفس وعادت الأنوار إلى مشرقها الأول .

أما إن كان غفلا من هذه الدلائل ، خلوا من تلك الصفات ، فهو من طبقة المتشاعرين والمتكاتبين الذين يمسكون الأقلام الحديد ، كما يمسك خطباء المساجد السيوف الخشب !

أنتم وشأنكم معه ! قيدوه بما شئتم من القيود ، ووجهوه بما استطعتم إلى خارج الحدود !

قصة الشعر المرسل

كتب إليّ السيد محمد رضا من أدباء الثغر بكرموز يسألنى عن هذا النوع من الشعر الذى يقرأه من حين إلى حين فى الصحف فلا يدرى كيف ينسبه إلى بحر من بحور العروض، ولا كيف يرجعه إلى فن من فنون القريض، ويشكو من أن أذنه لا تسيغه وذهنه لا يهضمه . . والسائل الأديب يقصد ولا شك تلك المقطوعات العاطفية التى ينظمها بعض الشعراء الشباب مطلقة من قيود القافية، وذلك ما تسميه بالشعر المرسل ويسميه الأفرنج بالشعر الأبيض.

وكان أول من استحدث هذا النوع الشاعر الإيطالى « تريسينو » سنة ١٥٢٥ فأنكره قوم وعرفه آخرون، ولكن الآذان لم تلبث أن ألفته وصغت إليه فانتشر فى أوربا ونظم منه شكسبير بعض دراماته . ثم تطور وغلا فى التطور حتى اشتق منه نوع آخر يتخفف من بعض أثقال العروض ويقبل أن يتألف بيت من تفعيلة أو اثنتين وبيت يليه من أربع أو أكثر، وذلك هو « الشعر الحر ».

وكان أكثر ما يستعمل النوعان فى الملاحم والمسرحيات والمطولات إشفاقا على الشاعر من جرائر القافية كالتكرار والحشو والغرابة . وكان من العوامل التى مهدت لقبول الشعر المرسل فى العروض الأوربى أن القافية بمعناها العربى لم تكن عنصرا جوهريا فى الشعر الأفرنجى، وإنما كانت القافية فيه نوعا من الاتحاد الصوتى بين الكلمة والكلمة وهو « أسونانس » كما يكون بين كتاب ونظام وبين عظيم وقدير . فلما اتصل « التروبادور » وهم شعراء جنوب فرنسا فى القرون الوسطى بعرب الأندلس اقتبسوا منهم القافية بحكم الجوار والخلاط .

قال المؤرخ الفرنسى « لويس فياردو » فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ

العرب والبربر فى أسبانيا : « كان الشعر الفرنسى مضروبا على مثال الشعر الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى ، لأن الأسبان لم يقفوا على الشعر اليونانى ولا على الشعر الرومانى قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوها . ولقد أخذنا صناعة الشعر ونظام القوافى عن العرب ، جاءتنا مع التجار الأسبان عن طريق مرسيليا وطولون » .

أما الشعر العربى فله خصيصتان يتميز بهما على سائر الشعر : إحداها القافية الواحدة للقصيدة مهما تطل ، والأخرى بناء كل بيت فى القصيدة على عدة التفاعيل فى بناء البيت الأول ، فتكون القصيدة كلها كاملة أو مشطورة أو مجزوءة على حسبه .

وللقافية سلطان طبيعى قوى على النفس العربية . لذلك لازمت الشعر فى طوره البدائى وهو طور السجع ، وفى طوره الراقى وهو طور الرجز ، وفى طوره الأرقى وهو طور القصيد . ولم يحاول شاعر فى العصور الأولى أن يتخلص منها بالشعر المرسل إلا ما روى أبو عبيدة لابنة أبى مسافع وقد قتل أبوها يوم بدر :

فما ليث غريف ذو   أظافير وإقـــدام
كحبي إذ تلاقوا و   وجوه القوم ألوان
وأنت الطاعن النجلا   ء منها مزبد آن
وبالـكف حسام صا   رم أبيض خذام
وقد ترحل بالركب   وما تحن بصحبان

وإلا ما روى غيره لغيرها من نحو قول الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تـكن أم مالك   بملك يدى أن الـكفاء قليل
رأى من رفيقيه جفاء وغلظة   إذا قام يبتاع القلوص ذميم

فقال أقلا وأنركا الرحل إننى   بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل   لمن جمل رخو الملاط نجيب

وهذان المثالان وغيرهما مما روى ولم نطلع عليه إنما صدر عن ذوق متخلف طبع متكلف فلا دلالة فيه على مذهب نشأ ولا على تطور حدث .

على أن من شعراء الأندلس والعراق من ضاق بتماثل النغمة وتكرارها فى التزام روى واحد فى القصيدة المطولة فعالجوا ذلك الرتوب بتنويع القافية على نحو مافعلوا فى الموشح والزجل . ولكن شعراء هذا العصر الحديث حينما دُفعوا بحكم التطور إلى نظم الروايات المسرحية والمطولات القصصية قاسوا من التزام القافية رهقا شديدا وقعوا منه فى الغرابة أو الركاكة أو الفضول أو النبوّ ، فدعوا إلى إرسال الشعر من غير قافية وقصروا هذه الدعوة على الشعر القصصى والتمثيلى ومافى حكمهما من القصائد ذوات الحوادث المتعددة والمواقف المختلفة .

بدأ ذلك الأستاذ محمد فريد أبو حديد فنشر فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٣ استفتاء فى الشعر المرسل كانت مادته ترجمة بالشعر المرسل لخطبة أنطونيو فى رواية يوليوس قيصر لشكسبير ، فاستطار حولها الجدل وتقسم فيها الرأى ، ومضى يؤيد رأيه بالعمل فنظم بالشعر المرسل « مقتل سيدنا عثمان » و « خسرو وشيرين » و « زهراب ورستم » : وحذا حذوه المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى فترجم بهذا الشعر رواية « ممنون » لفولتير ، و « ترنيمة أتون » لبرستيد .

ومن قبل هذين الرائدين عالج الشعر المرسل السيد توفيق البكرى فى قصيدته « ذات القوافى » وجميل صدقى الزهاوى فى « المؤيد » وعبد الرحمن شكرى فى « الجريدة » .

ثم فترت الدعوة وخشع الدعاة واستمسكت القافية على عرك النقد وشدة التطور حتى أتاح الله لها داعيا جديدا بعد فترة دامت عشر سنين هو الأستاذ

درينى خشبة فجددها فى « الرسالة » ١٩٤٣ وأيدها بقوة. ولكن الأذواق لا تقارَع بالمنطق ولا تجابَه بالدليل ولا تتغير بالأمر، فظل الشعر الحر أمنية فى بعض النفوس وحديثا فى بعض المجالس، حتى أصيب الغناء المصرى فى العهد الأخير بالتجديد المسيخ المفتعل فزيف شعور أهله وقطع تيار ماضيه ووضع فى الأغنية الواحدة أنغاما من كل لحن وأصواتا من كل أمة. والغناء أصل الشعر، والشعر مادة الغناء، فتأثير أحدهما فى الآخر تفاعل من عمل الطبيعة يحدث من غير اكتساب ولا قصد. فكما أراد بعض الملحنين أن يخضعوا الغناء المصرى للغناء الاوربى فى الموسيقى، أراد بعض الناظمين أن يخضعوا الشعر العربى للشعر الأوربى فى العروض، فأصبحنا نقرأ ما ننكر كما نسمع ما نكره!

وأكثر ما ينشر اليوم من المرسل هو الشعر الحر الذى يتخلص غالبا من التزام القافية، ويتجرد دائما من تساوى الشطرات. والشعر الحر يُقبل فى الأغانى والموشحات، كما يقبل الشعر المرسل فى الملاحم والمسرحيات. واستعمالها فى غير ذلك قلب للأوضاع، وحرب على الأذواق والأسماع، ونزول بالقصيدة الرصِّينة المحكمة إلى مستوى هذه الرقاعات الصوتية التى ينطبق عليها كل اسم تشاء ماعدا الغناء!.

كل شىء يجوز النزول به الا الفن. وكل فن يجوز التيسير فيه إلا الشعر. وكل تيسير يجوز النظر فيه الا القافية. ذلك أن الشعر يتميز من سائر ضروب الكلام بخصائص ثلاث: موسيقية شديدة الحساسية، وصعوبة عسيرة التسهيل، وقدرة على تثبيت الفكرة بلفظها فى الذاكرة. فالشعر الحر يستطيع أن يدرك شيئا من الموسيقية إذا زاوج الشاعر بين الأبيات واستفاد من الحرية التى أوتيها، فتخير الألفاظ وعدّل الأقسام وألف الألوان وحرك المعانى ونوع الصور. وأخشى بعد ذلك كله ألا يرتفع عن النثر البليغ المحكم.

ولكن الصعوبة التى تلقى الشاعر فى كل بيت عند القافية فيسلط عليها

ذهنه وفنه وذوقه ولغته حتى يفجأ أذنك، وهى تنتظر فى غير صبر، بتلك الحيلة الفنية والفتة الذهنية والكلمة الصادقة الموسيقية ، لا تجدها فى غير الشعر المقفى . . كذلك يعجز الشعر الحر عن أن يهيىء الذاكرة فى التمثيل على الأخص ما تهيئه لها القافية من نقط الارتكاز وعلائم الطريق حتى لا تجور ولا تضل .

على أن تسهيل الشعر بإلغاء القافية يخمد الذهن ويجدب القريحة ، لأن الصعوبة ترهف الفكر فيدق إحساسه ، وتوقظ العقل فيزيد إنتاجه ، وتبعث الفن فيحيا بين إلهام الشاعر وإعجاب القارىء .

والواقع أن القافية لم يشكها شاعر مطبوع ولا ناظم مطلع ، فان الطبيعة الغنائية للشعر العربى من جهة ، ووفرة الثروة اللفظية للشاعر من جهة أخرى ، تجعلان القافية من أخص لوازم الشعر وأسهل فنونه . ولنا فى الأراجيز القديمة والموشحات الحديثة وسائر ما استحدث المولدون من الأنواع القائمة على موسيقى القافية دليل ناهض على ما نقول .

فاذا وقع شاعر اليوم فى رهق من بناء القافية لقلة محصوله من اللغة أو لمعالجته التمثيل أو القصص الطويل ، كان له فى تنويعها مندوحة عن هذا النوع الذى تذبذب بين النثر والنظم فوقف من الأذن موقف الغصة من الحلق ! بذلك استطاع البستانى أن يترجم الإلياذة ، وتسنى لشوقى أن يبدع فى مسرحياته .

* * *

وبعد فإنى أفهم لماذا نيسر الكتابة ونسهل النحو ، ولكنى لا أفهم لماذا نيسر الشعر ونسهل الغناء ، أليكون الناس كلهم مغنين وشعراء ؟ لا ، يا أخى ! المسألة فى الفن استعداد واجتهاد وقريحة .

إذا لم تستطع شيئا فدعه　　　وجاوزه إلى ما تستطيع

قوى الإسلام الثلاث

الإسلام دين القوة . وكيف يكون غير ذلك وشارعه هو الجبار ذو القوة المتين، ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ، وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ، ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ، وقواده « الخالديون » هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ، وخلفاؤه « العمريون » هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب .

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .
هو قوة فى الرأس ؛ لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

وهو قوة فى اللسان ، لأن البلاغة هى معجزته وأداته . والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد ، لأن موحيه وهو الحكيم الخبير ، قد علم أن العقل بسلطانه ، واللسان ببيانه ، لا يغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس ، وتحكمت النفس ، وعميت البصيرة ؛ فجعل من القوة المادية ذائدا عن كلمته ، وداعيا إلى حقه ، ومنفذاً لحكمه ، ومؤيداً لشرعه : كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه ، وفرض عليهم إعداد القوة والخيل إرهابا لعدوهم وعدوه ، وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح ؛ لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وهذه القوى المتفرقة إنما تتضام وتتجمع فى قوى ثلاث ذوات صيغ ثلاث ، قوة الفرد بالإيمان ،وصيغتها : « الله أكبر » وقوة الجماعة بالوحدة ، وصيغتها : « لا إله إلا الله » ، وقوة العالم بالألفة ، وصيغتها : « السلام عليكم » .

فالتكبير والتهليل والتسليم هى هُتاف المسلم فى أذانه وصلاته ، وهى شعاره فى أعماله ومعاملاته . ولا أجد للإسلام خلاصة تستوعب أسراره ومعانيه ومغازيه خيرا من هذه الصيغ الثلاث .

فالله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد ، وسر الجهاد ، وسر الفداء ، وسر النصر : ولاشتمالها على هذه الأسرار كانت ركنا جوهريا فى الصلاة : يدخل بها المصلى إلى الله ، ثم يرددها فى ركوعه وسجوده ، وفى قيامه وقعوده . ثم كانت هتافا حماسيا فى الحرب ، يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر فى نفسه النصر ، ويصغر فى عينه الخطر ، وكان غالبا ما يكون هذا الهتاف : الله أكبر . فتح ونصر . فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوى نشيدا قوميا ينشده المجاهدون فى كل مسجد ، ويردده المصلون فى كل عيد ،وهو:الله أكبر كبيرا . والحمد لله كثيرا . لا إله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ، وأقدر من كل قدير ، وأعلى من كل علىّ ، فهو فى حمى هذا الاعتقاد يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ، ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالى . وكيف يخشى ضررا أو يبالى خطرا ، والله الذى تفرد بالسلطان الأعظم ، واختص بالقدرة العليا ، يحميه مَن وراءه ويكفيه مَن أمامه ؟ .

والتكبير فى حقيقته إعلان عما يجيش فى النفس من إجلال للمثل الأعلى ، وإعجاب بالعمل الأرفع ، فنحن نكبر الله حين يملأ قلوبنا جلاله ، وحين يملك شعورنا صنعه . ونحن نكبره كل يوم فى الأذان والإقامة والصلاة ، لأن الإسلام

قائم بأركانه الخمسة على القوة أو على ما تحصل به القوة . فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية المال بالتطهير ، وتمكين للمجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسويق ؛ فلولا قوته الروحية فى الصلاة ، وقوته الاقتصادية فى الزكاة ، وقوته الاجتماعية فى الحج ، وقوته المادية فى الجهاد ، لما استطاع المسلمون أن يفتحوا أكثر الدنيا القديمة فيملكوا معظم أفريقيا وأطراف أوربا من الغرب ، ومعظم آسيا وأطراف أوربا من الشرق .

و « لا إله إلا الله » هى كلمة التوحيد . والتوحيد ركن من أركان الإسلام وعنوان بارز من عناوينه . يقصد به فى الأصل توحيد الله ، ثم قصد به من طريق اللزوم توحيد الكلمة ، وتوحيد القبلة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا . فهى من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل جماعة وأمة. ذلك لأن أشد ما تجتمع به القوة وتنسق عليه الحال ، الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإسلامية .

فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى البناء الذى قام ، ومن ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة. فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يُقتل ، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين يقاتل ؛ والحاكم الذى يُضل قومه السبيل يعزل والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة على الأقل فى كل عمر .

أما « السلام عليكم » ، فهى الصيغة للمعنى الإسلامى الذى يقابل معنى

الجاهلية قبل الرسالة ، ومعنى الجهاد بعد الدعوة ، ومعنى التكبير فى أول الصلاة .

ومقابلة التكبير وهو رمز القوة بالتسليم وهو رمز الرحمة ، دليل على أن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والعدل ، لا قوة السفه والجور ، فهى قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان : قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس . فالمصلى يدخل فى الصلاة إلى الله بالتكبير وهو خشوع وعبادة ، ويخرج منها إلى الناس بالتسليم وهو أمان ورحمة

(والسلام عليكم) بعد أولئك كله تحية للسلم لنبيه فى الصلاة . وتحية المسلم لأخيه فى كل وقت ؛ يلقيها عليه حين يلقاه فيضمن له الأمان من نفسه ، ويحمله على أن يطمئن إليه بأنسه .

فأنت ترى أن القوة الحكيمة التى تصدر عنها العزة والمروءة والحرية والعدالة هى طبيعة الإسلام ووصيلته . على ذلك كان إسلام محمد وأبو بكر وعمر ، وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف للباطل . وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد فى (نيقفور) مالا يفعل الجيش ؛ وبلغوا من المروءة أن سيّر المعتصم جيشا إلى (عمورية) لإنقاذ امرأة !

فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ؛ يؤمن بالوحدة ، ويحرص على الجماعة ، ويخلص للقومية ، كان مسلما من غير إسلام ، وعربيا من غير عروبة ؟

الإسلام سر الفدائية

قاوم عشرون جنديا مصريا يقودهم العريف محمد أحمد عيسى فى (أبو عجيلة) جيش إسرائيل بدباباته ومصفحاته وطائراته ست عشرة ساعة هزموه ثلاث مرات قتلوا فيها مائتين من جنوده ودمروا اثنتى عشرة من مصفحاته[1]. ثم لحقوا بجيشهم دون أن تمسهم جراح، أو يفقد من أحد منهم سلاح! فحققوا بذلك قول الله تعالى: «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» فما سر هذه القوة التى تجعل من القلة كثرة، ومن الضعف قوة، ومن الأنانية فدائية؟ سرها يعرفه الإسلام وحده، فقد كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة. فلما اصطفاهم الله لإعلان كلمته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت القوة. تلك الروح هى السر الإلهى الذى لا يزال كامنا فى الجهاد والاستشهاد والإيثار من يوم شُرع القتال إلى يوم هوجم القنال، لم ينفك أبداً عن مسلم، ولم يخذ له أبداً فى حرب. كان يتمثل له فى صور الملائكة تقاتل معه، ويتحقق عنده فى الوعد الصادق من الله بالنصر أو بالجنة. ثم يقويه فى نفسه على توالى الأعقاب والأحقاب الانقياد لله وللرسول وقد جمع الله له تدبير الحروب فى آيتين من كتابه: «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا»، «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا»؛ والإيمان بالقضاء والقدر، وقد قال الله لنبيه: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا». فالمؤمن بمقدور الله يرمى بنفسه فى وجه الموت لا يبالى أن يقتل أو يُقتل، لأنه فى إحدى الحالتين سيظفر بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وكان فى أكثر هجماته يصيب وفى أقلها يصاب. ولذلك قالوا عن عقيدة وتجربة: اطلب الموت توهب لك الحياة. والحذر لا ينجى من القدر.

(١) فى معركة العدوان الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى على مصر سنة ١٩٥٦.

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تموت جبانا
ولو أن الحيـــاة تبقى لحى   لوجـــدنا أضلنا الشجعانا

وفى واقعة اليرموك قال عكرمة بن أبى جهل لرفاقه من المجاهدين : « من يبايع على الموت ؟ » فكان لهذه الكلمة فى نفوسهم فعل السحر فتدفقوا على علوج الروم بالسيوف حتى دحروهم . وكان سيف الله خالد بن الوليد يود لو يظفر بالشهادة فى سبيل الله فلم تكتب له ، فقال يتحسر وهو فى سياق الموت : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، فلا نامت أعين الجبناء ! » .

بهذا الروح المنبثق من روح الله فى نفوس المجاهدين خرج البدريون وهم زهاء الثلثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف ، فكبكبوهم قتلى فى وادى بدر ، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى . وبهذا الروح المبثوث من روح الله فى دماء المجاهدين خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق القفر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف القوة إلى لقاء الإمبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على مُلك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر . وبهذا الروح الإلهى الملتهب فى أعصاب المجاهدين أذلت زوارق الطربيد المصرية كبرياء الأسطولين الإنجليزى والفرنسى فى مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر . وبهذا الروح الخفى الذى يغمض كنهه ويستدق فهمه على عقل الإنسان صمدت بور سعيد فى وجوه مائة وستين ألفاً من جنود العدو ، ووقف عشرون جنديا فى أبو عجيلة أمام جيش إسرائيل بأسره . ذلك لأن الشجاعة من مدد القلب لا من عدد الجيش .

الجهاد فى سبيل الله أو فى سبيل الوطن فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون فى خطر عام لايقدر على دفعه قوم دون قوم كالاستعمار والصهيونية. والقيام به لايتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس . مثله فى ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام ، ولكنه يختلف عنها فى أمر دقيق . ذلك أن المسلم قد تضعف فى نفسه الدواعى إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ، ويهمل الزكاة والحج ، وإذا ذكَّره بها واعظ أو حثه عليها خطيب جعل قوله دُبر أذنه . ولعل السبب فى هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع له إلا من ضميره . أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهى لا تزال حية فى النفوس على طول الزمن وشدة الترك ، كالنار فى البركان الهادىء ، تسكن ولا تنطفىء ، وتكمن ولا تظهر ، حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان أو لوطن يهاجم انفجرت فى نفوس المؤمنين انفجار الحمم فلا تذر من شىء أتت عليه إلا أهلكته . بذلك نفسر هذه الصيحة العامة التى أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر العدوان على مصر وتستعد لدفعه عنها بالمال والنفس . وليس عطف العرب على الجزائر ولا غضب المسلمين لمصر ناشئين عن عصبية الجنس أو عن حق الجوار وإنما نشأ عن تلك الحفيظة الدينية التى أوحاها الله فى الكتاب ، وبينها الرسول فى السنة ، وفصلها الفقهاء فى الفقه .

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم . و إن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة مايتألف منه قانون الحرب فى الإسلام . ومن تلك السور سورتا التوبة والأنفال .

ومن المغـازى الدقيقة للقرآن الـكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة .

« يا أيهـا الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفـاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله »

عاد الشعر في العالم كما بدأ

بدأ الشعر غنائيا فى كل أمة تهيأت له بحكم الفطرة وفعل الإقليم . والمراد بالشعر الغنائى مايقوله الشاعر تعبيرا عن خوالج نفسه وتصويرا لمدارك حسه وتسجيلا لخواطر ذهنه ، كالغزل والمدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والعتاب والشكوى مما لا يخرج عن شخص الشاعر ولا يدخل فى شأن غيره . أما نسبته إلى الغناء فلأنه كان فى الدهر الأول ينشد على القيثار فى المعابد تسبيحا للآلهة وتأثيرا فى الناس . وكان الكهان وهم الشعراء الأولون يتخيرون لأناشيدهم اللفظ المصون المذب ، والأسلوب الجميل الفخم ، ليكون الكلام الذى يرفع إلى السماء أسمى وأجل من الكلام الذى يقال للأرض .

فلما انتقل الشعراء من المعابد إلى القصور ، ومن مدح الآلهة إلى مدح الملوك ، احتفظوا للشعر بلغته الخاصة وعبارته المختارة وإنشاده الموقع ، فظلوا ينشدونه فى المحافل والمجامع بلحون تختلف باختلاف البحور وتتفاوت بتفاوت الحناجر . وقد سموا الأعشى صناجة العرب لحلاوة صوته وحسن إنشاده . واستمر ذلك دأبهم بعد الجاهلية فكان الشاعر ينشد قصيدته قائما بين يدى الخليفة أو الأمير ، فإذا لم يكن حسن الإنشاد اقتنى غلاما رخيم الصوت ليقوم عنه به . وقد قالوا إن الرشيد كان يطرب للإنشاد أكثر مما كان يطرب للغناء .

ونشأة الشعر فى المعبد وصلته بالغناء يتفق فيهما كل شعر فى كل أمة . ولا يزال الأوربيون يقولون كما كان يقول الإغريق والرومان والعرب ، أنشد الشاعر شعره أو غناه ، ولا يقولون ألقاه أو أداه .

* * *

ثم انتقل الشعر مرة أخرى من القصر إلى المدينة ، وخرج الشاعر من دنياه إلى دنيا الناس ؛ وكانت الآلهة قد صنعت الخوارق ، والأبطال قد أتوا بالمعجزات ، فنسجت حولهم الأساطير ، واستفاضت عنهم الأحاديث ، وتناقلتها الأفواه جيلا بعد جيل ، فجاء الشعراء فنظموا هذه الوقائع ملاحم وأنشدوها الشعب ليذكروه بأمجاد قومه ويثقفوه بسير أبطاله . وهذا هو الشعر القصصى ، ومنه فى تاريخ الأدب العالمى الإلياذة لليونان ، والإينياد للرومان ، وماهابهاراته للهند ، والشاهنامة للفرس ، وسيرة بنى هلال للعرب ، والملهاة الإلهية للطليان ، والفردوس المفقود للانجليز ، وهنرياد للفرنسيين .

ثم انتقل الشعر مرة أخيرة من الخيال إلى الواقع ، ومن الكلام إلى الحركة ، ومن المدينة إلى المسرح ، وكان الفكر الإنسانى قد نضج ، والأثر الفلسفى قد شاع ، والنظام الاجتماعى قد تعقد ، فاتخذ الشعراء القصص الشعرى وسيلة للإصلاح بتمثيل أبطال القصة على المسرح وجعلهم يقولون بألسنتهم ويعملون بأيديهم ما رواه القصاص عنهم ، ابتغاء تقوية النفوس المريضة بالعواطف النبيلة والمُثل العليا كما فى المأساة ، أو تقويم المعوج من الأخلاق والعادات باتخاذ أهلها مضحكة للناس كما فى الملهاة ؛ وهذا هو الشعر التمثيلى .

فأنت ترى أن الشعر قد تطور فى تاريخ الإنسان أطوارا ثلاثة يتطورها كل شاعر فى ذاته وكل شعب فى مجموعه : وهى الغناء المهدهد فى الطفولة ، والقصص الحامى فى الشبيبة ، والتمثيل الفلسفى فى الكهولة . ففى الأول يتغنى الشاعر بما يلم به ويتخيله ، وفى الثانى يقص مايسمعه أو يعمله ، وفى الثالث يصور ما يلحظه ويتمثله . ومنبع الأغانى الوهم والخيال ، ومنبع الحماسة العظمة والجلال ، ومنبع التمثيل الحقيقة والواقع . ومظاهرها فى عمر الخليقة هى التوراة والإلياذة وشكسبير . ولم يجر الشعر بهذه الأطوار الثلاثة مدفوعا بقوة السليقة جاريا على سنة الطبيعة إلا عند الأغريق لأسباب فطرية وإقليمية ، أما عند الرومان ومن خلفهم من الأمم

اللاتينية فلم تتم لشعر هذه الأطوار إلا بتقليد الإغريق والأخذ عنهم .

أما الشعر القصصى وهو يقوم على الأعاجيب والأكاذيب والخوارق فقد كان له بلاغه فى العقول ومساغه فى الأذواق حين كان الناس لايزالون يعيشون للحرب والحب ، ويفتتون بالبطولة والقوة ، ويصدّقون بالهواتف والرؤى ، ويؤمنون بالكهانة والسحر ، ويعتقدون فى الأبطال والملوك . فلما قوى العقل واستبصر الفكر وكشف العلم للإنسان الحديث خبايا الكون وأسرار الطبيعة ، لم تعد التهاويل تروعه ، ولا الأباطيل تخدعه ، مج ذوقه هذا الضرب من الشعر واكتفى منه بالمأثور عن الأقدمين يقرأه على اعتباره صوراً لعصور تقضت ومشاعر لأمم خلت . وأصبح من العسير على الشاعر القصصى أن يوفق بين الملحمة المبنية على الخوارق والوهم ، وعقلية العصر القائمة على الوقائع والعلم .

وأما الشعر التمثيلى وهو شعر الأناقة والترف فقد كان له فى أوربا نفاق وإشراق أيام كان للسرح للخواص ، لايشهده إلا الملوك والنبلاء والقادة . وهؤلاء قد فرض عليهم نظام الفروسية فى تلك العصور أن يجمعوا بين أدب السيف وأدب اللسان ، فكانوا يتفاصحون فى الحديث ويتفاخرون بالأدب ويتنافسون فى الشعر ، وأصبح ذلك بدع العصر وهوايته . وفى القرن السابع عشر اشتد التشدق بالفصاحة حتى أصاب جماعة من النساء سخر موليير من حذلقتهن فى روايتين من رواياته .

واستمر إشراق الشعر المسرحى ونفاقه حتى أقبل القرن العشرون وكانت الديمقراطية قد غلبت على المسرح ، والواقعية قد هيمنت على الأدب ، وكان المسرحيون قد فطنوا أخيراً إلى أن شرط الإمكانية فى الشعر المسرحى مفقود ، وأن الناس الذين يمثلونهم أو يمثلون لهم لم يكونوا فى الواقع يتحاورون بالشعر ولايتجادلون بالمجاز ، وأنهم يكلفون أوساط المثقفين أو أنصافهم شططا بتتبع السياق القصصى بين أوزان الشعر وقوافيه ، وفى غموض لغة الشاعر وتراكيبه ، فاقتصدوا

فى تغليب أدب الخاصة على أدب العامة ، وقصدوا إلى تقريب لغة المسرح من لغة الحياة ، فاستكفأ الشعر التمثيلى عن المسارح وانزوى فى المتحف الأدبى بجانب الشعر القصصى ينتظر من يخرجه إلى الأدب لا إلى المسرح ، وينشره للقراءة لا للتمثيل .

ولقد جاء دور الأدب العربى فى الشعر المسرحى بعد أن مضى زمنه واضمحل شأنه ، فلم تجد مسرحيات شوقى ولا روايات عزيز أباظة شعبَ أسخيلوس وسوفكليس ، ولا جمهور راسين وشكسبير ، وإنما وجدت جمهورا خاصته للواقعية وعامته للأمية ، فلم يفهم مرامى البيان فى الفصحى ، ولم يدرك أسرار الجمال فى الشعر ، فخرج من مشاهدتها غائب الرأى والوعى لايدرى على وجه اليقين أى شىء رأى ولا أى كلام سمع !

إذن لم يبق فى العالم من تراث (أبولون) إلا الشعر الغنائى ، وهو فيض الوجدان ، وعبير الروح ، وأحلام النفس ، وأنغام القلب ، وحُداء البشرية المرفه فى طريق الحياة الوعر ، صفا من شوائب البهيمية فى العصور الطاغية كالمدح الكاذب والهجاء الفاحش والغزل الشاذ ، ثم خلص للتأملات والوجدانيات والوطنيات والأغانى والأناشيد وهى علة وجوده وسر دوامه .

وهذا النوع من الشعر هو كما قلت أصل الأنواع الأخرى ، فجذوره ضاربة فى أعماق الأزل ، وفروعه ممتدة فى آفاق الأبد . فهو باق أبداً لأن البواعث التى تستدعيه لاتنقضى ، وهو جديد أبدا لأن العواطف التى تغذيه لاتتقادم .

سيبقى مادام للشاعر قلب ووجدان ، وسينشد مادام للمغنى صوت وألحان ، وسيسمع مادام فى الانسان نزوع إلى مثل وطموح إلى أمل !

وللأمم أيضاً من رجالها عناوين

(عاد الشعر فى العالم كما بدأ) وهو عنوان المقال السابق سقط سهواً فى جريدة (الشعب) التى نشرته . والمقال من غير عنوان كتاب غُفل ودينار مسيح وطريق دارس ، وفى الأمثال : الكتاب يعرف من عنوانه . والظاهر عنوان الباطن . وفى الشعر :

كنت مثل الكتاب أخفاه طى　　فاستدلوا عليه بالعنوان

واختيار العنوان نصف الموضوع ، لأن الكاتب لا يسمى موضوعه إلا إذا تولد فى ذهنه وتحقق فى خياله وتشخص فى نفسه . وأنا بالذات أدخل الموضوع من عنوانه ، فهو بابه ولبابه - وربما لا يكون فى الذهن وقت الكتابة إلا هذه الجرثومة التى قطرت من شق القلم على رأس الصفحة ، ثم تتداعى المعانى وتتوالى الخواطر وينشقق بعضها عن بعض حتى تصير مقالة أو رسالة :

ولعناوين الكتب فى تاريخ الأدب فصل طريف . . كان العلماء والأدباء فى القرون الثلاثة الأولى من العصر العباسى يتوخون فى عناوين كتبهم الوجازة والبساطة والوضوح ، فيقولون مثلا . الموطأ . البخلاء ، الأغانى ، الكامل . فلما أقبل القرن الخامس كان العرب قد استبد بهم سرف العيش وترف الحضارة فتأنقوا فى الزينة وتفننوا فى الزخرف وسرى ذلك إلى الكتاب فبالغوا فى توشية الأسلوب بالسجع والجناس ، وتمويه المعانى بالزيف والبهرج ، ورسموا بألوان البيان والبديع صوراً من النثر والنظم عجيبة ، فيها المادة وليس فيها الروح ،

وفيها الصنعة وليس فيها الفن ، ونفضوا من تلك الأصباغ على عناوين الكتب فقالوا : الشمور ، بالعور . مشتهى العقول ، فى منتهى النقول . نكت الهميان ، فى نكت العميان . تبييض الصحيفة ، فى مناقب أبى حنيفة . الشماريخ ، فى علم التاريخ . الجواهر المفتخرة ، من الكنايات المعتبرة . فتح المتال فى وصف النعال . وانتقلت عدوى هذا الداء من الأدب إلى العلم فقالوا : التفاحة ، فى علم المساحة . نخبة الأذكياء ، فى علم الكيمياء . الآيات البينات ، فى علم النباتات . المصباح الوضاح ، فى صناعة الجراح . الاستكشاف المصرى ، فى الدمل المصرى . وجمع بعض المتأخرين من فقهاء الأزهر بين التكلف والسخف فى عناوين كتبهم فقالوا : ألف سيخ ، فى عين من حرم أكل الفسيخ . القول المحقق ، فى تحريم البن المحرق . أكل الرز ، فى حل اللغز !

وكان صديقنا المغفور له محمود زناتى مولعا بتتبع هذا الضرب من العناوين ، يحكيه ويحاكيه على سبيل التفكه . كان يتهكم أو يهجو أو يهدد بعنوان يضعه على ذلك النمط لمشروع كتاب فيكون العنوان نفسه خلاصة رأيه ومنطوق حكمه . فمن عناوينه التى يجوز أن تنشر فى صحيفة أن معابثة وقعت بيننا وبين صديقنا طه حسين فى يوم من أيامنا بالأزهر ، فقال له محمود مهددا : سنؤلف نحن الاثنين رسالة فى ذمك نجعل عنوانها : أرسلاها ، فى طه .

ولم تبرأ عناوين القصص المترجمة من علة السجع والجناس فقد عنون المرحوم عثمان جلال قصة (بول وفرجينى) بهاتين الفقرتين : ثمر حنة ، فى قبول وورد جنة . يريد بقبول (بول) وبورد جنة (فرجينى) . ورأى بعض الصحف فى العهد الماضى أن من جمال الإخراج الصحفى أن تلتزم السجع فى عناوين الأخبار . وأخذت جريدة (مصر) نفسها بهذا الالتزام أخذا شديدا ، فكانت تبذل من الجهد فى تسجيع العناوين ، أكثر مما تبذله فى تسقط الأخبار نفسها من

الأقاليم والدواوين . . يحضرنى منها على سبيل المثال قولها : مجلس الوزراء يجتمع فى السادسة من المساء . بقايا حكم الـكرباج ، فى مديرية سوهاج . دعاه إلى تناول الفطور ، ثم انهال عليه بالساطور . زراع القصب ، فى منتهى الغضب . يسرقون البقر والأغنام ، ولا يخافون عين الرب الذى لا ينام !

ثم تخفف أسلوب العصر رويدا رويدا من أثقال الزخرف الـكاذب حتى عاد أشبه بمنبعه الأول فى صفاء لفظه وخلوص بيانه ، فذهبت عن العناوين تلك الغثاثة وأصبحت فى الـكتب والصحف نوعا من الـكلم الجوامع تجمع بين الايجاز والتشويق والبساطة .

* * *

وللأمم أيضا من أسماء حكامها عناوين ، منها العريض البارز المتألق الذى يشع من نوره على كل شخص فى شعبه ، وعلى كل شىء فى وطنه ، فيمحو كل ظلام و يستر كل عيب و يسد كل نقص ، فلا يظهر للناس إلا كماله ، ولا ينشر فى الارض إلا خيره .

ومنها الغليظ الضفيق المعتم الذى يغشى أمته غشيان السحائب الجون فيحجب فضلها إن كان لها فضل ، ويسلب عقلها إن كان لها عقل ، ثم يدعها شمسا وراء ضباب ، وذهبا تحت تراب ، ونفسا خيرة يمثلها فى الوجود وجه شيطان .

ومنها الغائر المطموس المشوه الذى يخفق على أرجاء دولته خفوق السراب الخادع يوهم ولا يحقق ، ويشير ولا يدل ، و يشكك ولا يؤكد . فهو على رأس أمته عمامة على نعش ، وشاهد على قبر ، ولفظ غريب على معنى مغلق .

أمثل للنوع الأول من هذه العناوين بعبد الناصر ونهرو ، وللنوع الثانى بإيدن أيام كان ونورى ، وللنوع الثالث بمندريس ورجل آخر تختاره أنت !

أخطر ببالك الهند ، فهل تذكر حين تذكرها ما فيها من اختلاف العقائد والألسن ، وتخلف الحضارة والعلم ، وغرابة العادات والتقاليد ؟ إنك لا تذكرها

إلا مضافة إلى نهرو أو ممثلة فيه . وإذن لا تجد إلا الدولة التى أشرقت فى السياسة الدولية إشراق الهدى فى الضلال والأمان فى الخوف والوئام فى الخصومة. تقول فتسمع ، وتدعو فتجاب ، وترى فيقام لرأيها وزن . فلو أن القدر أبدلها من نهرو عنوانا آخر من نكرات القوم وإمعات السياسة لظلت كجارتها باكستان تابعة لا متبوعة ومنكورة لا معروفة . وتلك حال كل أمة تتخذ عناوينها من تيم التى يقول فيها الشاعر :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرون وهم شهود

ثم أخطر ببالك بعد ذلك انجلترا أو فرنسا ، فهل تذكر حين تذكرها تلك الحضارة التى طبقت الأرض ، أو تلك العلوم التى سخرت الطبيعة ، أو تلك الآداب التى هذبت الإنسان ، أو تلك الفنون التى رفعت النفس ، أو الحرية التى أحيت الضمير ، أو الأخلاق التى دعمت المجتمع ؟

إنك اليوم لا تذكر شيئاً من كل أولئك لأنه انطوى تحت عناوين ساترة من الحمق والسفه والإجرام والعدوان ، كالتها المظلمة إيدن أو جى موليه أو من شابههما من أولئك الأوغاد الذين نجمت فى رءوسهم قرون الشياطين ، وسالت فى أفواههم سموم الأفاعى . لن يرد على خاطرك من رجال هاتين الدولتين إلا مستعمر مجرم أو مستغل لص . أما العلماء والأدباء والفنانون والمفكرون والخيرون فقد غشيتهم ظلمات هذه العناوين فلا يظهر منهم عين ولا أثر .

وأكذب ما يكون العنوان إذا وضعه على الكتاب غير مؤلفه كما ترى فى العراق ، فقد ألف الله أمته بيده وجاء الإنجليز فجعلوا عنوانها نورى السعيد ! فهو لا يدل عليها إلا كما يدل الاستعمار على الإصلاح ، والتبعية على الاستقلال ، والسكسونية على العروبة ! فتى يابنى العم يزول الطغيان ويصح العنوان ويتصل الحبل ويجتمع الشمل ويتحد الطريق ؟

العميل الأول للاستعمار

صديقي كامل الجادرجي :

علمت من أنباء العراق أنك اليوم نزيل السجن « النوري » المظلم ، تضطرب نفسك الحرة بين جدرانه السود كما يضطرب الجحيم المكظوم فى المرجل الحامى .

وكذلك كنت يا كامل طيلة ربع القرن الذى اغتصبه نورى السعيد من تاريخ العراق . كنت أنت وما زلت تمثل المعارضة الوطنية التى تتوخى الاستقلال للعراق والحرية للعروبة والوحدة للجامعة ، وكان هو وما زال يمثل الحكومة الانجليزية التى تبغى استعمار الوطن العربى كله باسم سورية الكبرى أو الهلال الخصيب أو حلف بغداد .

وكان أكثر المعارضين يعارضون ابتغاء الحكم ويتخذون إليه الوطنية مطية ، أما أنت فكنت تناصر الحزب ما دام معارضا ، فإذا قبل الحكم تركته إلى غيره حتى انفردت ذات يوم بالمعارضة . لذلك لم يجد نورى حيلة فيك ، لا بالمصانعة ولا بالخادعة ولا بالرشوة ، فلم يكن له بد من محاربته إياك فى ثروتك وفى حريتك وفى نفسك !

لا أزال أذكر أحاديثك وأمانيك فى مجلسنا الذى كان يجمعه تشابه الذوق وتجانس الهوى حول مائدتك أو أمام مدفأتك فأسمع منك ومن إخواننا الخمسة ما لا يتسنى لى الاطلاع عليه من خفايا الحكم وأسرار السياسة لا من ظواهر الأمور ولا من قراءة الصحف[1] .

كان ذلك فى سنة ١٩٣٠ وقد تولى نورى السعيد الحكم ووقف ياسين الهاشمى فى المعارضة .

---

(١) اقرأ مقال الحلقة فى المجلد الأول من كتاب (وحى الرسالة) .

وكنت أنت يده اليمنى فى حزب الإخاء الوطنى المعارض . وكانت البلاد يومئذ تفور بالسخط على طغيان الانجليز ، لأنهم تصلبوا مع عبد المحسن السعدون حتى انتحر ، وتعصبوا مع ناجى السويدى حتى استقال ، وكاد الشعب ينفجر بالثورة على (دار الاعتماد) ووكر الاستبداد لولا أن الانجليز فزعوا إلى رجلهم المدخر ومهديهم المنتظر فأجلسوه على كرسى القيادة ، فقبض نورى بيده اليسرى على العنان وبيده اليمنى على السوط ، ومضى يكره الشعب الأبى على أن يسير فى الطريق الذى خطه المستعمر لايلتفت وراءه ، ولا يتحسس أمامه ، وكنت أنت وإخوانك الأحرار المخلصون تحاولون أن تقيموا العوائق فى هذا الطريق لتقوا الأمة المقهورة سوء المصير ، ولكن كيد الحكم كان شديداً ومكر الاحتلال كان أشد !

كان الانجليز قد رأوا فى نورى السعيد الجرىء الذى لايعف ، والمستهتر الذى لايستحى ، والصديق الذى لايخون ، منذ اليوم الذى وقف فيه بمجلس النواب وبيده المسدس يرغم نواب الأمة على أن يقروا المعاهدة العراقية الانجليزية الثانية ، وكان الأحزاب قد أجمعوا الرأى على أن يرفضوها ، وقام بينهم وبين أنصار الحكومة شجار بالألسن وصراع بالأيدى . فدعا نورى الجيش فحاصر البرلمان ، وأمر البوليس فأغلق الأبواب ، وشهر مسدسه فى وجوه المعارضين وقال : لن تخرجوا حتى تقروا المعاهدة ! فلم يجد المجلس مخرجاً من هذا الضيق إلا بالتصديق ! لذلك جاءوا به حين تنمر الشعب وتأزم الأمر وأبرم معهم المعاهدة القائمة سنة ١٩٣٠ بعد أن حل مجلس النواب ، وزور نتيجة الانتخاب ، ولم يبال باضراب الأحزاب ولا بانكار الأمة .

والأساس الذى قامت عليه معاهدة نورى — همفريز ، هو أن (حفظ المواصلات البريطانية من صالح الدولة العراقية) و (أن مصالح الدولتين مشتركة وغير مختلفة)

وكان رأيك يا كامل ورأى الزعيم ياسين : (أن هذه المعاهدة لم تضف شيئاً إلى ما كسبه العراق وإنما زادت فى أغلاله ، فعزلته عن الأقطار العربية ، وصاغت له الاستقلال من مواد الاحتلال ..) ولكن هذا الكردى العنيد قد لج فى طغيانه وأصر على غيه واستمر جاثماً على صدر العراق ستاً وعشرين سنه لا يتحلحل ولا يخف، وكنا نتساءل كما يتساءل الناس اليوم :

بماذا استطاع هذا الهزيل القليل أن يخضع العراق لسلطانه هذا الدهر الطويل وليس له قوة من أسرة أو عشيرة ، ولا نصرة من حزب أو شعب ، ولا بلاغة من لسان أو قلم ، ولا ميزة من علم أو أدب ، ولا خبرة فى سياسة أو حكم ! وكان الجواب دائماً هو أن الكلمة التى فى فمه ، والقوة التى فى يده ، إنما تأتيانه من خارج نفسه: تأتيانه من السفارة لا من الوزارة، ومن إملاء لندن لا من إيحاء بغداد ، فهو وسيط المنوم المغناطيسى لا أقل ولا أكثر . ولكنه سمع النفعيين والمنافقين ينعتونه بالحنكة والحكمة والدهاء ففعل ما فعل المرحوم أشعب : كذب نفسه وصدق الصبيان !

كان نورى السعيد فى سياسته الداخلية والخارجية مصدقا ومطبقا المبدأ الانجليزى القائل : فرق تحكم . فرق فى الداخل بين العناصر والعشائر والعقائد بالطمع والخوف ، وفرق فى الخارج بين دول العروبة والإسلام بالكيد والدس ، وسخر فى سبيل هذا التفريق أكبريه لا أصغريه ، فيداه مشغولتان دائماً بالوسيلتين اللتين تغنيان عن عبقرية الذهن وبراعة الكياسة ، فاذا كان فى ديوان الحكم كان فى يسراه العنان وفى يمناه الكرباج ، وإذا كان فى دار النيابة كان فى يسراه الذهب وفى يمناه المسدس ، وإذا كان فى بيت (الأظروملى) كان فى يسراه السبحة وفى يمناه الكأس ! وهذه الوسائل لا تزال كما تعلم أشد الوسائل أثراً فى سياسة الشعوب المتجانسة المتحدة ، فكيف بها فى الأمة الناشئة التى تتنوع فيها الدماء وتتعدد الألسن وتختلف النحل ؟

أما السر فى أن نورى السعيد قد باع عقله وقلبه وضميره للاستعمار بالثمن الحرام الذى يستعبد أمته ويستعمر وطنه ، فهو طموحه إلى السلطان دون أن يملك الوسيلة إليه فى ذات نفسه . فمثله مثل الطامح إلى الثراء الفاحش دون أن يكون له رأس مال ضخم ، فهو يسعى إليه عن طريق السمسرة الخادعة أو التجارة المريبة . وشعوره بالعجز الطبيعى عن بلوغ الزعامة من طريق الشعب والكفاية ولد فيه مركب النقص وما يلازمه من الحقد على كل زعيم والحسد لكل نابغ .

فإذا أضفنا إلى ذلك جنسيته الكردية وتربيته التركية وكلتاهما تساعد على بغض العرب وازدراء العروبة سهل علينا أن نفهم لماذا يكره عبد الناصر و يأتمر بمصر ، ويتحرش بسورية ، ويعادى روسيا وهى صديق ، ويوالى إسرائيل وهى عدو ، ويؤلب الدول الإسلامية الثلاث على الدول العربية الخمس بالحلف الذى لا ينفع إلا إنجلترا ولا يضر إلا العراق :

وذلك كله يا كامل غثاء سيجرفه السيل ، و باطل سيدمغه الحق ، وخداع سيفضحه الوعى ، وحلم سيعقبه الغضب . ولقد غضبت النجف ، وإذا غضبت النجف غضبت لغضبها عشائر الفرات جمعاء . وعشائر الفرات وكلها شيعية هى القوة الضاربة فى شعب العراق . وأنت أعلم منى بما صنعت هذه القوة بالإنجليز حين ثارت عليهم فى سنة ١٩٢١ .

إن نورى السعيد قد حكم أكثر مما يجوز الحكم ، ودلله أولو الأمر أكثر مما يقبل التدليل ، وصبر عليه الشعب أكثر مما يحسن الصبر .

فهل آن يا كامل للعراق أن يرده إلى الطريق شبابه الحر الصريح ، وأن تطيح هذه الجذوع النخرة مع الريح ؟

ناشئ يطرق أبواب الأدب

طرق الباب على كهنة الفن فى رفق وحذر ، ثم ألح فى الطرق بعنف وجرأة ، ثم أحس بساعده يكل وبصبره ينفد فهمّ أن يرجع أدراجه .

كانت كل طرقة على باب المحراب قصيدة أو قصة يرسل بها إلى إدارات الصحف أو دور النشر ، ثم يرهف سمعه إلى ما وراء الأبواب فلا يسمع جوابا منها ، لا بنعم ولا بلا .

وأخيرا قرر فى نفسه أن يحاول الوصول إلى مجد الحياة من طريق آخر وبوسيلة أخرى . ولكنه أراد أن يستشهدنى قبل أن يمضى هذا القرار ليستنفد كل عذر فى هجره الأدب الذى أحبه والعمل الذى اختاره .

زارنى منذ أيام ومعه أخوه الأكبر وهو ضابط من ضباط الشرطة يتبين من اهتمامه ومن عروض كلامه أنه يرأف به ويعطف عليه ، وقد صحبه إلى كما يصحب الصحيح العليل إلى عيادة الطبيب . والواقع أن الفتى كان على حال من الهم واليأس لا يطمئن عليها قلب محبه . كان مشغوف الفؤاد بشيء اسمه الأدب ، لا يفكر إلا فيه ، ولا يعمل إلا له ، ولا يحلم إلا به ، وكانت غاية أمانيه أن يرى اسمه مطبوعا على كتاب أو منشورا فى مجلة . وهو يعتقد أن مواهبه الفنية تحقق له هذا الأمل ، وتدنيه من هذه الغاية ، لولا العوائق التى تحجزه عن وجهه وتصده عن هواه . وليست هذه العوائق فى رأيه إلا أقطاب الأدب الذين يترفعون من الكبرياء أن يقدموه ، وزعماء الصحافة الذين يتمنعون من الأنانية أن يشجعوه . ودعنى أقدمه إليك قبل أن أنسى :

هو طالب بمدرسة ثانوية فى إحدى مدن القليوبية لا يتجاوز فى رأى العين الخامسة عشرة من عمره . دقيق البدن فى سهوم ، طويل الوجه فى رقة ،

حسن الملامح فى عذوبة . ينظر وكأنه لا يرى ، ويتكلم وكأنه لا يسمع . إنه شرود الشاعر وذهول الفنان ! فاذا جاء حديث الأدب تيقظ وعيه واجتمع تفكيره وقال لك وسمع منك . حدثنى عن قصته مع الأدب وكيف أصيب به من إدمان قراءته القصص والمجلات ، فكان على الدوام له فى درج الفصل بالمدرسة قصة ، وعلى مكتب المذاكرة فى البيت مجلة . وكان لا يعنيه من كتبه وكراساته إلا كتاب الأدب وكراسة الإنشاء حتى نوه معلم اللغة بتقدمه فى الكتابة ، وقرأ موضوعه على التلاميذ شاهدا على هذا التقدم . فلما ظفر من المعلم بالنهاية العظمى فى موضوع من موضوعاته المدرسية أيقن أنه ارتفع إلى مقام الكتاب المعدودين ، ورأى من حقه أن يرسل إلى المجلات بما ينظم من شعر وما يكتب من قصص ؛ ولكن إعراض الصحافة عن نتاجه العزيز كان صدمة من خيبة الأمل لم تحتملها أعصابه . أيكون المعلم جاهلا بمقاييس الفن إلى درجة أن يضع العشرة موضع الصفر ؟ إنه متخرج من كلية اللغة العربية بالأزهر فلا يجوز عليه هذا الجهل .

أيكون المعلم قد غشه أو جامله فاستجاد ما كتب وهو ردىء ؟ إنه كان يقرأ موضوعاته على الفصل فيرضى عنها التلاميذ كل الرضا ، ويغتبط هو بها كل الغبطة . لم يبق إذن إلا أن رؤساء التحرير لا يعجبهم العجب أو لا يعنيهم الإنصاف .

ثم أخرج من محفظته كراستين وقدمهما إلى وهو يقول : فى لهجة الثائر المتحدى :

هذا ديوان قصائدى ، وهذه مجموعة قصصى أرجو أن تنظر فيهما بعين القاضى لتحكم بينى وبين الأستاذ فلان .

أخذت منه الكراستين ، وأخذ هو وأخوه يشربان الشاى ، وفتحت أنا ديوان الشعر وقرأت منه مقطوعة ، ثم فتحت مجموعة القصص وقرأت منها أقصوصة . وكانت هاتان العينتان كافيتين لأن أعلم منهما كل شىء . علمت أن هذا

الفتى قد بذل فى سبيل أدبه كل ما يملك من نفسه . بذل له الحب والجهد والوقت والعمل والأمل والمال ، ولكنه بخل عليه بشىء واحد هو للأدب كل شىء ! لم يستعد له بآلته التى لا يكون إلا بها وهى اللغة والمنطق ! تعبيره تلفيق من أساليب شتى ، فيها الجيد والردىء ، وفيها الصواب والخطأ ، ومجموعها كالثوب المرقع بأصناف مختلفة من القماش لا تجمعها وحدة من شكل ولا لون ولا جنس . وتفكيره أضغاث من أحلام المراهقة فيها المبالغة والتجوز والشرود والتفكك ، وليس فى شعره الوحدة التى تربط أجزاء القصيدة ، ولا فى قصصه الحبكة التى تضم أطراف القصة .

ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن فى طبعه استعدادا للأدب يكمن فى ولوعه الشديد باستظهار كل ما يستحسن ، ونزوعه القوى إلى التعبير عما يحس . ومن الممكن أن يصل إلى غاية الطريق إذا وجد المرشد .

وكان قد فرغ من الشاى حينما فرغت من القراءة ، فرفع بصره إلى يسألنى الرأى فيما قرأت . فقلت له فى صراحة لا تخلو من مداورة :

إن هناك ولا شك بذرة حية تنمو ، وأرضا زكية تنبت ، ولا يعوزهما إلا الغذاء والرى . ولا أدرى لماذا تتعجل الإنتاج وأنت لا تزال على مقاعد الدرس ؟ إن لكل شىء أوانه ولكل عمل عدته ، والبرعم لا يتفتح عن عطره إلا إذا اكتمل ربيعه . والبلبل لا يطرب بشدوه إلا إذا استوت حنجرته ، وإن الذين اتهمتهم بأنهم أعرضوا عنــك ولم يشجعوك ، قد أحسنوا إليك ولم يخدعوك .

إنك بدأت كما يبدأ أكثر الناشئين بالشعر والقصص ، وعلة هذا البدء وهم قديم وخديعة فاشية . إنكم تجدون الشعر أيسر الأعمال منالا ما دمتم تظنون أن مبلغ الأمر فيه تفعيلة توزن وقافية ترص . وترون القصص أسهل الأمور عملا ما دمتم تحسبون أن قصارى الجهد فيه حكاية

تروى وحادثة تسرد . فإذا ما علمتم أن الشعر غير النظم وأن القصة غير (الحدوتة) أدرككم العجز وتولاكم اليأس وانكفأتم راجعين فلا يمضى منكم إلا القليل . تعال نقرأ معاً هذه الأقصوصة .

وأخذ الفتى يقرأ وأنا وأخوه نسمع . وكنت أريه فى كل فقرة أو صورة خطأ اللفظ أو خطل المعنى أو ضعف التأليف أو اضطراب السياق ، أو سوء الاستطراد أو نفور الملاءمة أوغموض العبارة ، حتى إذا بلغ نهاية الحكاية كان قد اقتنع بأنه جهل حقيقة نفسه وأخطأ تقدير عمله ، وعزم أن يبدأ من الأول لا من الآخر . ورغب إلى أن أرسم له الخطة وأبين الوسيلة وأن ألقاه الحين بعد الحين لأرى إن كان على الطريق . فقلت له · الآن يا بنى بدأت . وستجدنى عندما يرضيك ، إما بالمقابلة وإما بالمراسلة ، أما الخطة والوسيلة فأمرهما أبين من أن يبين !

أدرس لغتك حق الدرس ، وأتقن بجانبها الانجليزية أو الفرنسية ، ثم اقرأ فيهما أدب الناس فى القديم والحديث . ثم اختر لنفسك من كل أدب صفوة أقطابه فتعمق فى أدبهم ، وسر فى طريقك على ضوئهم ، ثم اطلع ، وابحث ، وفكر ، وتأمل ، ولاحظ ، وسجل ، حتى إذا امتلأ ذهنك وبلغ حد الفيض فاكتب .

وستسمع الأدباء يخوضون فى حديث المذاهب الأدبية الأوربية فيذكرون الاتباعية والابتداعية والواقعية والطبيعية والرمزية والوجودية ، والأدب الملتزم والمحايد ، والفن للفن ، والفن للحياة . فأصغ إليهم بسمعك وأعرض عنهم بقلبك . ليس هذا الذى يقولون من شأن الكاتب ، إنما هو من شأن النقاد ومؤرخى الأدب وأئمة البيان : يصنفون أعمال الكتاب والشعراء ، ويدرجون كل صنف تحت اسم من هذه الأسماء . لا تمد فى طريقك الأدبى سكة من الحديد تسير على قضبانها كما يسير القطار فلا تخرج عنها إلا لتنقلب . نزه قلمك عن الرمزية والوجودية

والسريالية ، ثم تقلب فى المذاهب الأخرى كيف تشاء . خذ من كل مذهب خير ما فيه ، ثم غص فى أعماق نفسك فاعرفها تعرف الناس . وطر فى آفاق الطبيعة فادرسها تدرس الحياة . والنفس والمجتمع والطبيعة هى المجالات الحيوية للأدب الحق . ومن العسير الفصل بينها فتجعل الأدب تارة موضوعيا كالاتباعيين (الكلاسيين) ، وتارة ذاتيا كالابتداعيين (الرومانسيين) فإن الفن كما قال (زولا) هو الطبيعة يراها الفنان من خلال مزاجه .

وفى هذه المجالات الثلاثة ، ومن القواعد المقررة للأدب فى المذاهب المتقدمة ، تستطيع أن تذهب بنفسك مذهبا شعاره : فكر بقلبك ، واشعر بعقلك ، وأدرك بخيالك . وهو مذهب تتساير فيه الفكرة والعاطفة والخيال ، فتأمن عليه برود العقل وضلال القلب وجموح المخيلة .

هذه يابنى رءوس المسائل فى موضوع الأدب ، أو لافتات المرور فى طريق الفن . وسأفصل لك ما أجملت منها فى كل زيارة تؤديها إلى ، وفى كل رسالة أكتبها إليك .

فقال الفتى وهو يعيد كراستيه إلى محفظته : أعدك أنى سأتخذ مما قلت مذهباً أقفو فيه أثرك وأقصد قصدك .

فقلت له ويدى فى يده : وأنا أعدك أن أصلح بينك وبين الأستاذ فلان إذا أنجزت وعدك .

العدوان الثلاثى على مصر

تحت حذاء هتلر :

لا أملك أن أحدثك فى غير ما أحدث به نفسى وما تحدث به نفسك وما يتحدث به العالم أجمع من ائتمار دولتى الاستعمار على كل ما شرع الله ووضع الإنسان من مبادىء الخلق وقواعد السلوك وقوانين السياسة وأقيسة المنطق وأحكام العرف ، وادعائهما مع ذلك أنهما دولتان من الدول (العظمى) تقيدهما القيود الإنسانية ، وتربطهما المواثيق الديمقراطية .

والحق والواقع يجادلانها بلسان أربع وستين دولة من دول التمدن الحديث فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى هذا الادعاء الكاذب بأن الدولة التى تعتدى بالقوة على الحق ، وتهاجم السلام بأوزار الحرب ، وتفجع أمة ماسلة كريمة فى أمنها وفى وطنها لأن لها استقلالا تحميه ، وحقا لاتفرط فيه ، ووطنا لاتنزل عن جزء منه ، وتقف من الضمير العالمى موقف الكافر الفاجر لا تخضع لحكم القانون ، ولا تسلم برأى الكثرة ، ولا تعبأ بحقوق الإنسان ، هذه الدولة التى لاتزال تعيش فى الغاب ، وتحتكم للظفر والناب ، حرية بأن تسمى منسراً من مناسر اللصوص ، أو عصابة من عصابات القتلة !

كيف تسمى عصابتى بريطانيا وفرنسا دولتين عظيمتين وهما طفيليتان تعيشان على دماء الشعوب كما يعيش القمل والبق والبعوض ، حتى إذا تأوه الملسوع من ألم اللسع ، أو تضرر الممصوص من فقر الدم ، أجلبتا عليه بالنار والحديد ونسيتا أنهما ظلتا ست سنين تحت حذاء هتلر ، تطلبان من الله أن يسعفهما بالرحمة ، ومن القانون أن يؤيدهما بالعدل ، ومن العالم أن يرفدهما بالإحسان .

ولو كانتا من نوع الحيوان العاقل لاستفادتا من فعل القوة بهما ، واتعظتا

بجريرة الطغيان عليهما ، وحرصنا على أن تكون هيئة الأمم المتحدة قوية لتأمنا في ظلها عودة النازية وسطوة الشيوعية ، ولكنهما بعد أن نجتا من الموت المحقق لحكمة أرادها الله غلبت عليهما الغرائز الدنيا فاستطالتا على الله واستهانتا بالقانون وجلستا في مجلس الأمن جلسة النخاسين في سوق الرقيق تساومان وتزايدان في حرية مصر وحقوق العرب ، وهم الذين أمدوهما بالمؤونة والمعونة في سنى المحنة حين انقطع رجاؤهما من النصر ، وتوزعت حياتهما بين الخوف والفقر ، فهل رأيت في تاريخ الإنسان كفرانا كهذا الكفران ، وعدوانا شرا من هذا العدوان ؟

مصر في ساحة الجهاد :

مصر المحروسة بعون الله تجيش نفوسها الأبية بالحمية لنفسها وبالغضب على عدوها جيشان البركان الثائر ، تنتظر أن يطأ عدوها الدنس ثرى وطنها الطاهر فتنفجر عليه بالحمم والقذائف . وليست مصر هي التي ترضى بالهون وتصبر على الخسف ودينها دين الجهاد وتاريخها تاريخ الفتوح وخلالها خلال الفتوة وأدبها أدب القوة وقصصها قصص البطولة !

ألست ترى قذائف النار والدمار ، تتساقط على عواصمها آناء الليل والنهار ، وهي صابرة صبر المؤمنين بالله ، مطمئنة اطمئنان الواثق بالنصر ، تغدو إلى حركتها وكأنها لاترى ، وتروح إلى سكينتها وكأنها لاتسمع ، حتى إذا جد الجد وصمم القراصنة على أن يردوا حياض المنون على سواحلها التي امتلأت بطونها الصفر بأجساد الغزاة ، انقلبت سعيرا من الشر يتأجج على المغيرين في الميدان وفي المدن والقرى والطرق والحقول ، فيصبحون والأرض من تحتهم مجزرة ، ثم يمسون وهي من فوقهم مقبرة !

ذلك لأن جهادها المرير الطويل أورثها الصبر ، والصبر أقوى الجيوش ، ولأن دينها المتين القوى أكسبها الإيمان والإيمان أقوى الأسلحة . يصبر بنوها كما صبر أولو العزم من المجاهدين الأولين الذين حطموا القيصر في اليرموك

وكسرى فى القادسية ولم يبالوا بكثرة الروم ولا بقوة الفرس . ويؤمنون كما آمن أولو الدين من الفاتحين المتقين بأن الله زود المجاهد الصابر بقوة اثنين من عدوه ووعده إحدى الحسنيين : إما النصر الذى تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للأمة ، وإما الشهادة التى يعقبها البقاء فى الدنيا بالذكر والخلود فى الجنة بالروح .

هاهم أولاء ينفرون إلى القتال خفافا وثقالا ليلاقوا على القناة الانجليز أحفاد رتشارد الأول والفرنسيين أحفاد لويس التاسع ، ويذكروهم بصواعق المدافع وبروق الأسنة أنهم أحفاد الأبطال الذين سحقوهم فى حطين وحقوهم فى المنصورة ، وأن مصيرهم الذى كان هو لامحالة مصيرهم الذى سيكون !

وشتان بين الصليبيين بالأمس وأبنائهم اليوم ! جاءنا الصليبيون باسم الله ليأخذوا منا مفاتيح الأماكن المقدسة ليقدموها إلى البابا خليفة المسيح . وجاءنا المستعمرون باسم الشيطان ليأخذوا منا هذه المفاتيح ليقدموها إلى إسرائيل خليفة يهوذا !

أضعف الإيمان :

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا . أضعف الإيمان .

ودول العالم اليوم وأممه ، وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث يقنعون أمام المنكر الانجليزى الفرنسى اليهودى بأضعف الإيمان ، فيطوون صدورهم على السخط ، وقد يحركون ألسنتهم بالانكار ! ومن هؤلاء من يستطيعون دفع المنكر بالقوة ، ولكنهم يتلكأون ويترددون لغرض أو مرض . وكفاحك للمنكر بالقلب أو باللسان وأنت قادر على كفاحه باليد نقيصة من نقائص النفس

البهيمية لاتخرج عن الجبن أو الخبث . على أن ضمائر الشعوب أحيا من ضمائر الدول . ومن المتوقع أن هذا الانكار الشعبي باللسان سينتهي إلى انكار دولي باليد . وحينئذ يطمئن محبو السلام والمدنية على أن الدنيا لاتزال بخير !

أما العرب فهذه ساعتهم التى كانوا يرتقبونها ليثأروا لدماء شهدائهم من انجلترا الباغيـــة وفرنسا البغى وإسرائيل الدعية ، فإن العروبة لم يصبها من فظائع المغول والترك ما أصابها من هذه الأوبئة الثلاثة . ولعل من طلائع المعركة أنهم فجروا فى أوربا شرايين انجلترا وفرنسا يوم فجروا فى الصحراء السورية أنابيب البترول !

إن المعركة الناشبة اليوم بين الاستعمار ومصر هى معركة العرب جميعا ، إن كسبوها كسبوا عز الأبد . وهى كذلك معركة الأمم المتحدة ، إن قدرت على خذلان الباطل عاشت منيعة الجانب مسموعة الكلمة .

واحر لشعوراه :

من المسرحيات التى تعجبنى للشاعر الفرنسى كورنى مسرحيته (هوراس) ، ومغزاها إيثار محبة الوطن على محبة الأسرة ، وموضوعها انتصار روما على (ألب) فى موقعة شعواء نشبت بين بنى هوراس و بنى كرياس . وذلك أن الرومانيين والألبيين رأوا حقنا للدماء أن يقصروا المعركة على ثلاثة أبطال من كلا الفريقين يكون فوز الثلاثة فوزا لقومهم . واختار مجلس الشيوخ الرومانى لهذه المعركة أبناء هوراس الثلاثة ، كما اختارت مدينة ألب لها أبناء كرياس الثلاثة . وذهب الأبطال الستة إلى الميدان ، و برز الإخوة من الأسرتين بعضهم لبعض . ورأى من شهد بداية القتال أن اثنين من بنى هوراس قد قتلا وأن ثالثهم قد فر . فتبادر القوم بإعلان هزيمة روما . واحتدم الشيخ هوراس

غضبا من جبن ولده . فلما قال له قائل : وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة ؟ قال له بشدة وحدة : يموت !

ولـكن رجلا آخر شاهد نهاية المعركة يعود ويقول : استغفروا ربكم فقد ظلمتم بطل روما ! إنه لما بقى وحده أمام بنى كورياس الثلاثة وهم مجروحون وهو سليم رأى أنه أضعف منهم مجتمعين وأقوى عليهم منفردين ، فعمد إلى الخديعة وأوهمهم أنه يفر ، فطلبوه ، حتى إذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحدا بعد واحد فقتلهم . و بذلك انـكسرت ألب وانتصرت روما .

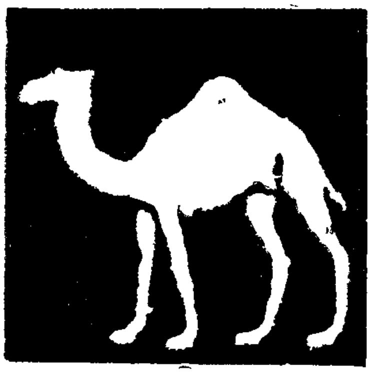

مِنَ الوَطَنيّة إلى الفِدائيّة

هذه أنت يا مصر ؟ :

أين الشاعر المصور ؟ أين القصاص المحلل ؟ أين المؤرخ المسجل ؟ أين هؤلاء جميعاً ليصوروا ويحرروا ويحللوا ويسجلوا أحداث الأيام العشرة التي مرت بمصر فكشفت عن جوهرها الخالص وعنصرها الحر ، وأثبتت للناس من طريق الحس والواقع أنها بفضل ماوهبها الله من نقاء الفطرة ووثاقة البنية وقوة الروح وصدق الإيمان أمنع من أن يمسها سوء من هجوم ثلاثة أوبئة عليها فى حشد واحد ووقت واحد : طاعون انجلترا وكوليرا فرنسا وحمى إسرائيل . ووباء فرد من هذه الأوباء أصاب جيش تشرشل وهو فى عنفوان قوته ، ومس شعب (دلادييه) وهو فى أوج سلطانه ، فخرّا صريعين لليدين وللفم أمام هتلر ! وأخذ لسان القدر يعد على رأسى الصريعين أعداده العشرة التقليدية الرياضية ، فنهض تشرشل مترنحا عند العدد التاسع ليقاوم الموت مع الزمن والظروف والحظ ، وظل دلادييه بعد العدد العاشر مجندلا على الأرض ليضمد جروحه مع العار والمهانة والذل !

أمر عجيب ! مائة وستون ألف جندى كما أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية ، وأسطول من الطائرات والمدرعات والمدمرات والحاملات والناقلات والكاسحات كما روى مستر هانسون بلدوين المراسل الحربى لصحيفة نيويورك تايمز ، سيرتها انجلترا وفرنسا إلى غزو مصر ، ثم لا يستطيع هذا الجيش الكثيف وهذا الاسطول المخيف أن يحتلا بعد التيا والتى إلا جزءا ساحليا صغيراً من بور سعيد ! ؟

ذلك شىء كنا نقرأ مثله فى كتب الأساطير وقصص الخوارق ، وكنا نرى تمثيله على المسرح والشاشة ، فنهتز له ونعجب به ونطمح إليه على اعتباره مثلا يضربه الخيال الخصب لما يجب أن تكون عليه البطولة ، ولكننا نراه اليوم رأى العين

ونسمعه سمع الأذن فى بور سعيد ، فما الذى كسر هذا العدوان وفل هذه القوة ؟

عناصر النصر الأربعة :

لامراء فى أن مصر تملك العناصر الجوهرية للنصر وهى حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو ، ولكنها تملك أيضا عنصرا رابعا لا يتيسر امتلاكه لأى شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية فى نفوس أفراده إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحد وجود الفرد بوجود الشعب ، ووجود الشعب بوجود الوطن . وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التى تنتظم الفرد والأسرة والأمة والحكومة والدولة فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضروريا للآخر . والفدائية فى سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد فى سبيلها بالجهاد ، لأن الفدائى يبذل ولا يطمع فى العوض ، ويضحى ولا يفكر فى الثواب . كل سعادته أن يشعر وهو يسبل عينيه على آخر شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطه لأداء واجبه مطمئنة إلى لقاء ربه . أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشترى من الله الجنة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » . فالتضحية فى ذهنه بيع وشراء وعمل وأجر . على أن الفدائى الذى يقتل فى سبيل شعبه ، تكتب له شهادة المجاهد فى سبيل ربه .

بلغت مصر إذن درجة الفدائية العاملة وهى درجة ليس بعدها إلا النصر المؤزر والسلطان الدائم . هذا هو الشعب على اختلاف طبقاته وحالاته قد أخلى باله من كل هم إلا هم العدو ، فهو يسارع إلى معسكرات التدريب ليستعد ، ويبادر إلى ساحات القتال ليجاهد . فإذا غصت المعسكرات واقتضت الحال أن تقدم القيادة بعضا وتؤخر بعضا ثار المؤخرون ورابطوا حول الساحات قياما وقعودا وعلى جنوبهم يلحون أن يسيروا إلى ملاقاة العدو !

لقد رأينا طلاب الجامعات والمدارس يشترون لباس الميدان بأموالهم

ويتركون بيوتهم المترفة ليبيتوا فى العراء على جوانب الطرق وانتظارا للساعة الرهيبة الحبيبة التى يقدمون فيها دماءهم قربانا للوطن المقدس .

وهذا هو الجيش على اختلاف أسلحته وفرقه ينقلب جيشا من الفدائيين فيقاتل جيوش ثلاث دول ولا يبالى ، ويستقبل طوائر ثلاث دول ولا يفزع ، ويصادم أساطيل ثلاث دول ولا ينكل ! وكيف يبالى أو يفزع أو ينكل وهو يطلب النصر أو الموت ؟ لقد أصاب العدو فى البر والبحر والجو إصابات قاتلة أوهنت قوته وأحبطت خطته وأذلت كبرياءه .

بور سعيد :

وفى بور سعيد تجلت فدائية الجيش والشعب فى أروع صورة من البطولة لم يقع فى سماع التاريخ مثلها الا فى ستالينجراد وسيباستبول .

كان من الجائز أن يلوذ البورسعيديون بالداخل ليأمنوا هجوم الكومندوس وجنود المظلات وقذائف الأسطول ، ولكنهم استحبوا الموت على الحياة والمجد على النجاة فثبتوا فى مساكنهم وأماكنهم ثبات الأسود الذائدة عن عرائنها ، ووقفوا سدا من البسالة والصبر والصدق والإيمان والتضحية بين الغزاة ومصر ، يردونهم بالنار ، ويدفعونهم بالحقد ، ولا يبالون بأربعمائه واثنتين وسبعين غارة جوية فى يوم واحد ، تتخللها موجات للمظلات من قبرص ، وهجمات للمدافع من السفن ، حتى هلك أكثر من نزل ، وانحصر طوال الأعمار منهم فى رقعة من ساحل المدينة الباسلة لا يملكون أن يتقدموا منهما ، ولا يستطيعون أن يثبتوا فيها .

إن التضحية التى بذلتها بور سعيد نساء ورجالا وشيوخا وأطفالا قد أنقذت مصر كما قال عبد الناصر ، وخدمت السلام كما قال نهرو ، وأفسدت الغزو كما قال كتلى . أما الدماء الغالية التى أريقت ، والديار العزيزة التى أصيبت ، فإنها ضريبة المجد ووثيقة النصر وفدية الحرية . وما ضاعت خسارة حررت وطنا ، ولا أهدر دم أحيا أمة .

مصر والعالم

إن خمسا وتسعين فى المائة من أمم العالم تظاهر مصر وتعطف عليها بالقلب الخالص ، وتتحدث عنها باللسان الصادق ، وتجادل عن حقها بالمنطق الدامغ ، ولا تكاد إذاعتها ولا صحافتها تفتر ساعة عن الإنكار والاحتجاج على الدولتين اللتين أخزتا جنس الإنسان بعدوان لا سبب له من القانون ولا موجب له من الواقع . ثم تؤيدها بما يشبه الاجماع فى الأمم المتحدة وتعلن استعدادها لدفع الشر عنها بالسلاح والرجال إذا لجّ المعتدى فى عدوانه وأصر على غيه . فبماذا بلغت مصر هذه المنزلة فى نفوس الامم جماء ؟ أبالاعتداء الباطل على وطنها المستقل الحر ، أم بالعدوان الضخم على شعبها المسالم الآمن ، أم باستماتتها وبسالتها وتضحيتها فى قتال دولتين خاضتا حربين عالميتين فاستفادتا من هزائمهما المتكررة خبرة ودربة ، أم بالتزامها فى نضالها جوانب الحق والصدق والقانون والشرف أمام دول ثلاث تجردت من كل خلق كريم وتبرأت من كل عمل صالح ؟ بكل أولئك أصبحت مصر قبلة الأنظار ومثار الإعجاب ومهوى الأفئدة . بكل أولئك ظفرت مصر بثقة الدول وتأييد الأمم وعطف العالم . والحق الذى يؤيده الواقع أن مصر ترتفع كل يوم فى درجات العزة بسياستها الحكيمة وقيادتها الحازمة وكفايتها العظيمة ، فبلاغاتها وثائق ، وإذاعتها صدق ، وصحافتها تاريخ ، ووعودها شرف ، وأن انجلترا — ودعها من فرنسا وإسرائيل — تنخفض كل يوم إلى دركات الخسة بسياستها الخرقاء وقيادتها العاجزة ووغادتها الأصيلة ، فبلاغاتها كذب وتضليل ، وإذاعتها تلفيق وتهويل ، ووعودها مزاعم وأباطيل ، وببعض هذه الرذائل تسقط عروش وتدول دول وتنقرض شعوب !

زادها الله مما هى فيه ، وألح عليها إيدن بالفتن والحروب ، ليسلم العالم كله من أربعين مليون مكروب !

الجهاد فريضة فى الدين وفضيلة فى العرب

تسألنى متى يؤدى المسلم فريضة الجهاد إذا لم يؤدها اليوم ؟ دينه يتقحم عليه الكفر بحاربيه مع الشيوعية ، ووطنه تتفجر على جوانبه الدواهى من الاستعمار ، وإخوته فى فلسطين أخرجتهم دول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب للمسيح من سلائل يهوذا . وقومه فى الجزائر تتخطفهم المنايا السود والحمر على متون الجبال وفى بطون الأودية وهم يجاهدون على قلة عددهم ونقص عُددهم ثلاثة أرباع المليون من جنود مستكلبين زودهم الطبع الفرنسى بالرعونة والقسوة ، وسلحهم الميثاق الأطلسى بالصواعق والبراكين ، فهم يدكدكون بها القرى الجزائرية على من فيها من يتامى وأيامى وعجزة . وشعبه فى أقطار العروبة وديار الإسلام لايزال فى معترك الخطوب ومشتبك المطامع يجأر بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحق ، فلا ينال من الضمير الدولى إلا ما تنال هبة الريح من الصخر الأصم .

هذه روسيا تريد أن تتدفق فى سهول الشرق لتنسخ بمذاهبها دياناته وفلسفاته ، وهذه أمريكا تقيم من دونها السدود لتظل مستأثرة بخيراته .

وهذه انجلترا تحاول بالقتل والختل والاستبداد والاضطهاد أن تخلى الجنوب العربى من أهله لتستبدل بهم عبدانا من الأفاقين يضمنون لها بقاء الاحتلال ودوام الدولة .

وهذه فرنسا تطمع بكثرة العديد وقوة الحديد وسطوة النار أن تفرنس الشعب الجزائرى ليستظل بغير علمه ، ويتكلم بغير لغته ، ويؤمن بغير دينه .

وهذه الأرض كلها أمامك تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة فهل تجد العيون

تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على هذا الجزء الذى انبثق منه النور وعرف به الله وكرم فيه الإنسان ؟

* * *

وجوابى أن المسلم المؤمن لايزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتاريخه فتح وحضارة ، وشرعه دين ودنيا ، وحربه جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهد أبداً ، لاينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره . فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه ، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ، والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الأولى أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستعباد والاستعمار إنما هى اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل . وأصل ذلك الضعف ، والضعف يجافى طبيعة العربى ، وينافى حقيقة المسلم . فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة بلسان الأدب وإلهام الروح ووحى العقيدة إلى العمل سراً وعلنا للاستقلال الذى يحرر ، ثم إلى الألفة التى تجمع ، ثم إلى الوحدة التى تقوّى ، ثم إلى القوة التى تدافع . وهذه المراحل الوعرة المهلكة التى تؤدى إلى الحرية والعزة لايقطعها إلا الجهاد الفدائى الذى فرضته شريعة الله واقتضته طبيعة العرب .

ذلك الجهاد الفدائى هو بذل المال والنفس فى سبيل فكرة سامية ، كإعلاء كلمة الله ، أو تكريم ذات الإنسان ، أو تحقيق حرية الوطن . وهو فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون فى خطر عام لايقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية . والقيام به لايتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس . مثله فى ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام ، ولكنه يختلف عنها فى أمر دقيق ، ذلك أن المسلم قد تضعف فى نفسه الدواعى إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ، ويهمل الزكاة والحج . وإذا

ذكره بها واعظ ، أوحثه عليها خطيب ، جعل قوله دَبْرَ أذنه . ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع لها إلا من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهى لا تزال حية فى نفسه على تراخى الزمن وشدة الترك ، كالنار فى البركان الهادىء ، تسكن ولا تنطفىء ، وتكمن ولا تظهر ، حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان ، أو لوطن يهاجم ، انفجرت فى نفوس المسلمين انفجار الحمم فما تذر من شىء أتت عليه إلا دمرته . بذلك نفسر تلك الصيحة الإسلامية العامة التى أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس . وبذلك نفسر هذه النضبة العربية الشاملة لما يصيب الجزائر اليوم من بغى الاستعمار الفاجر وطغيان المحتل الواغل وعدوان الطامع المغير ، وما تبع هذه الغضبة من تعاون العرب على إمدادها بالمال والعتاد فى ميادين الحرب ، وتأييدها بالرأى والصوت فى مجالس الحكم . ولم يكن عطف المسلمين على مصر ولا غضب العرب للجزائر لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما كان لتلك الحفيظة الدينية التى أوحاها الله فى الكتاب ، وبينها الرسول فى السنة ، وفصلها الفقهاء فى الفقه .

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم . وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب فى الإسلام كسورتى التوبة و الأنفال .

ومن المغازى الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة

إلا لخدعة أو نجدة . « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

أما سر القوة فى المجاهدين فعلمه عند الإسلام وحده . كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة ؛ فلما اصطفاهم الله لأداء رسالته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت الكلمة « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » : ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر فقال لنبيه صلوات الله عليه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز بإحدى الحسنيين : النصر الذى تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للإنسان ، أو الشهادة التى يعقبها البقاء فى الدنيا بالذكر ، والخلود فى الجنة بالروح .

بهذه الروح الإلهية خرج البدريون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف فكبكبوهم قتلى فى وادى بدر ، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى .

وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق الفقر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف العدة إلى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر . وبهذه الروح الملتهبة فى دماء المجاهدين ثبتت بور سعيد بالأمس لمائة وستين ألفا من أعقاب الصليبيين ، وتثبت اليوم الجزائر لسبعمائة وخمسين ألفا من أحفاد نابليون .

وبهذه الروح القدسية التى تشع فى قلوب المجاهدين الصبر والصدق والثبات والإقدام والإيثار والتفدية كانت قوة المجاهد ضعف قوة عدوه . « فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » .

والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لإكرام خلقه وإعزاز حقه وإصلاح أرضه ، وقد سماهم الله الشهداء ، وجعل مقامهم فى الجنة مع الصديقين والأنبياء . هؤلاء هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وهم الذين فتحوا الفتوح الإسلام ، ومهدوا المهود للمدنية ، وسقوا الأراضى المفتوحة بدمائهم الزكية فأنبتت تلك الحضارة التى طهرت النفوس وعمرت الدنيا وثقفت العالم

فما أسعد أولئك الذين ا خرهم الله ليعز بجهادهم وطننا ، ويحيى باستشهادهم أمة !

الأثافيُّ الثلاث فى مَطبخ الاستعمار

التقوى ، وهى استشعار الخوف من الله طبيعة فى الشعب الكادح غرسها فيه افتقاره الدائم إليه ، واعتماده المطلق عليه ، ورجاؤه المتصل فيه ؛ أما الملوك والسراة فهم خليقون باستغنائهم عنه بطغيان الملك وسلطان المال ألا يخشوه وألا يرجوه إلا إذا حملوا على تقواه حملا منذ النشأة بالتربية الدينية والثقافة الروحية والقدوة الحسنة . فإذا ولد السرى أو الغنى فى مهد غير نظيف ، ونشأ فى بيت غير شريف ، لا يجد أبا يصلى ولا أما تستغفر ولا مربيا يرشد ، شب على غرائز البهيم : هوى من غير عقل ، وشهوة من غير كابح ، وسطوة . من غير ضمير وإذا مكن له بحكم الوراثة أو بفعل الظروف أن ينحط على عرش أمة ، ستره عن عيون الشعب ثم استعان بغفلة الوعى القومى على أن يجعل العرش فرشاً والقصر ماخورا والحكومة مطية والوطن ضيعة . ثم يتدفق فى الفجور ويستهتر فى الفساد لا يتقى الله لأن الشيطان يعدُه ويمنّيه ، ولا يخشى الشعب لأن الجيش يحرسه ويحميه . حتى إذا انكشفت الأغشية عن البصائر فتنبه الغافل وأحس البليد وأدرك القطيع السائم المستغَل أن قرونه الملايين أقوى من عصا الراعى الفرد ،وأنه هو صاحب اللبن والصوف ، ومالك المرعى والحظيرة ، انتفض الشعب المظلوم المكظوم انتفاضة الأبى المريد فنفض عن جسده العَلق الماص والدود السام ، وضرب ضربته القاضية فتدكدك العرش ، وتدحرج التاج ، وتقوض القصر ، وعاد الطاغية الفاجر أصغر من أن يُنظر ، وأحقر من أن يُذكر ، وشيئاً من القذر الملعون ، يجر على الأرض ، أو يوطأ بالقدم ، أو يقذف إلى الخارج ، والمزية الوحيدة لهذا الضرب من الملوك أنهم يظهرون حين يريد الله أن يبدل نظاما بنظام ،

ويديل دولة من دولة ، لأنهم بفضل ما يجتمع لهم من ضروب الفساد ، وما يصدر عنهم من فحش الاستبداد ، يضغطون على مشاعر الشعب فينتبه ، ويلحون على أعصابه فيثور .

من هؤلاء الغواة الضالين ثلاثة من الشبان الرقعاء وضعهم المستعمر المحتل على عروش أممهم بالكره منها ، ثم ظل يسندهم ببأس الحديد . ويرفدهم بفيض الذهب . ويسلطهم على الأخلاق يفسدونها بما لايليق ، وعلى الأرزاق يبددونها فيما لايجمل ، حتى قضى عبد الناصر على الاستعمار فى أكثر الشرق الأوسط ، فلم يبق إلا فى بعضه يتسلل إليه فى ثياب الخونة والعملاء ، كما تتسلل الجراثيم إلى الأجساد على أرجل الذباب وأفواه الكلاب وقروح الفيئرة ، فوهى السند وانقطع المدد . وقضى الله على هؤلاء الصغار بما أفسدوا وبددوا وعربدوا أن يكون كل منهم آخر فرع يذوى ويسقط من شجرته الملعونة .

* * *

أول الثلاثة وأكبرهم كان ملكا على مصر قبل يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان آية من آيات إبليس فى الجرأة على دين الله وعلى حرم الناس ، بلغ من جرأته على الله أنه كان كما حدثنى أحد بطانته المقربين إليه إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام ، فصلاها من غير غسل ولا وضوء ، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد . وكان يقول : إن أخوف ما أخافه أن يغلبنى الضحك وأنا أتابع الإمام فى هذه الحركات العجيبة . وبلغ من جرأته على الحرمات أنه كان يغتصب الزوجة ، ويقتل الزوج ، ويسرق الدولة ، ويسفه الحق ، ويأخذ الرشا . ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى ، حتى إذا استيأس الشعب وظن أن الليل سرمد ، وأن الذل خلود ، أظهر الله للمصلح المنتظر من بين رجال الجيش ؛ لأن العسكريين بحكم نشأتهم أصحاب فداء ومضاء ، وألاف نظام وعمل ، وأحلاف شرف ومجد ، يطلبون

الحياة بالموت، ويغسلون الرجس بالدم، ويقرنون الرأى بالعزيمة، فرأى هو ورفاقه من خلال الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم فى الوحل، وجيش مصر يضطرب فى الفساد، وشعب مصر يتمرغ فى الذل، فشبوا شبوب النار الهادئة تقتل المكروب ولا تحرق المريض؛ وهبوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تغرق المركب، وأخذوا ذلك الملك الماجن من قفاه الغليظ وألقوه فى البحر، ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم، فحطموا الأوثان كما حطم، وكرموا الإنسان كما كرم، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال، وأدالوا الفقير من الغنى كما أدال، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد، وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد، ثم أذاقوا الناس لأول مرة فى تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة.

* * *

وثانى الثلاثة وأمكرهم خليفة مزدك أوشاه إيران. نشأ نشأة فاروق، فلم ييسر لرقابة دين ولا رعاية خلق، ولم يهيأ لولاية عهد ولا وراثة ملك، وإنما أعجله كما أعجل حماه القديم الحكم الباكر عن تثقيف نفسه بالعلم وتهذيب غرائزه بالأدب، فلم يتعلق من الحياة إلا بأسبابها المادية الوضيعة، وجرى فى حكمه لإيران على سياسة الخليع الوارث، لا يعرف من أمور ضيعته إلا الخزانة يفرغ ما فيها من يوم إلى يوم فى جيبه، أما كيف يستعمرها ويستثمرها فذلك شأن لا يعنيه. لذلك لا تسمع فى إذاعة إيران ولا تقرأ فى صحف العالم أن الشاه أنشأ مدرسة أو بنى مستشفى أو عبّد طريقا أو أقام جسراً أو أصلح فاسداً أو عمر خراباً، وإنما تسمع كل مساء وتقرأ كل صباح خبراً جديداً عن زواج الشاه وطلاق الشاه وخطبة الشاه وعشق الشاه، وعن رحلته المباركة إلى هوليود، وجولته الموفقة إلى الريفييرا، وسفرته المربحة إلى لندن، وزورته المريبة إلى الأردن، أما الأمة الإيرانية والأمة العربية فلا تدخلان فى دنياه، لأن التخلف

العاجز فى أمته يخزيه ، ولأن التقدم للمعجز فى أمتنا يؤذيه ، وهو يحرص على أن تعيش طهران فى الظلام لتعمى ، ويخشى أن تسطع فى أفقها أضواء القاهرة فتبصر ، ولكن هيهات أن تحجب الشمس بالأكف ، أو يدفع السيل الأتى بالحواجز . إن ساعة الشاه آتية لا ريب فيها . لقد تعدى حدود الله وتحدى إرادة شعبه . نصر الاستعمار وخذل الحرية ماوناوأ العروبة ومالأ الصهيونية ، وخرج على قرارات باندونج وإجماع المسلمين ، فاعترف لإسرائيل الأفاقة باغتصابها فلسطين العربية المسلمة ، وبطردها مليونا من أهلها إلى العراء القفر ليعيشوا فى المضارب والملاجىء عيش الحرمان والذل ، وهم ينظرون إلى ديارهم وأموالهم يعيث فيها الواغل الدخيل ولا يملكون لأنفسهم ولا لها إلا الرجاء فى العرب والأمل فى أمثال هذا الفهلوى الذى يسمونه الشاه ، وهو أهون على الله من كراع شاه .

والذى بعثه على كل هذه المخازى بعده عن الإسلام ، وحقده على العرب ، وكيده للوحدة ، وحرصه على بقاء الاستعمار ليأمن ثورة الأحرار وعودة مصدق ، ويضمن وفرة الدولار ومتعة العيش .

* * *

وثالث الثلاثة وأحقرهم (عاهل) الأردن وحده . وجاهل العالم كله ! أصغر تاج على أصغر عرش ، وألأم ملك على أكرم شعب ، وأنجس إنسان على أطهر أرض ! ولكن الاستعمار نفخ فيه فدوّى كالطبل وصوّت كالبوق ، وتوهم أنه بهذه النفخة الكذابة والطنطنة الفارغة يطاول الجمهورية العربية المتحدة ، ويصاول زعيم العروبة العملاق فطن طنين البعوضة ، ثم اشتد واحتد فنق نقيق الضفدع ، ولكنه لم يستطع أبدا أن يخور خوار الثور ، ولا أن يزأر زئير الأسد .

من أين ينفق (عاهل) الأردن على لياليه الحمر ، وعلى عشيقاته الشقر والسمر ؟ ومن أين يأتيه المال الذى يصبه صبا فى خزائن البنوك المأمونة ، ويشترى به

الحرس الخاص من البدو الجياع ؟ من ثمن ما باع من استقلال الأردن ، وما خان من أمانة فلسطين ، وما أوهن من وحدة العرب ، وما نبح (فى الهواء) على عبد الناصر ، ولكن الليالى الحمر لن تعصمه من الأيام السود حين تقبل ، والحرس البدوى الخاف لن ينقذه من براثن الشعب ساعة يغضب ، والأموال المهربة إلى أوربا لن تفديه من المنون يوم تغول .

* * *

هؤلاء الفجار الثلاثة هم الأثافى الثلاث فى مطبخ الاستعمار . ركب عليهم قدوره الضخام وجعل فى بعضها الدسم وفى بعضها السم ، فتدسم قوم وتسمم آخرون ، وبات الأبرار الأحرار على الطوى حتى نالوا بصبرهم وجهادهم كريم المآكل .

فأما ثالثة الأثافى فقد أطاحتها ريح ثورتنا المباركة ، وأما الأثفيتان الأخريان فلا تزالان تحاولان حمل القدور وإشعال التنور وتوزيع الطعوم والأطعمة ، ولكنهما ظلتا باردتين على الرغم من الوقود الجزل بالجنيه والدولار ، وعما قريب تسحقهما أقدام الثوار فتذروهما الرياح مع الاستعمار . .

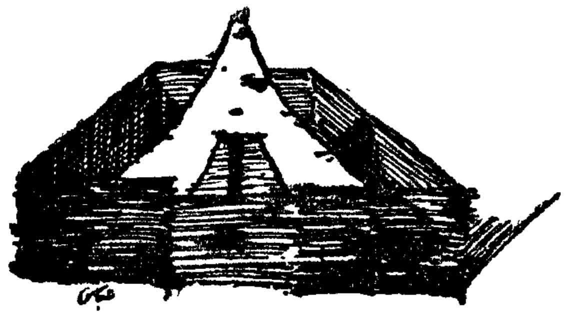

من ذكريات بغداد

نورا

— ١ —

فى سنة ١٩٣٢ وهى السنة الأخيرة من سنىّ الثلاث فى بغداد كنت أعيش فى أسرة مسيحية تؤثث فى دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثا لينزل فيها من تصطفيهم من نزلاء العاصمة .

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على فناء سماوى رحب . يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون طارمة ، وسرداب عميق أصم تلوذ به الأسرة فى الصيف من وقدة الحر ، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ .

ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخم الأثاث تغطى أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد إيران ، وتزين جدرانه ونوافذه طنافس الحرير وستائر المخمل . ويتصدره بيان عريض نضدوا عليه تحفاً من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس ، ونثروا على الكراسى القريبة منه آلات للموسيقى من عود وكمنجة ودف وناى ، ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو البردج والبوكر . ثم يشتمل بعد على ثمانى غرف لنوم الأسرة والنزلاء تتلاصق وتتناسق فى صف واحد على ممشى دائرى يطل على الفناء وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسماء أو يتمتع بالهواء ، على نحو ما تجد على ظهور البواخر .

أما الأسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين . وكان سر الوراثة الذى يجعل من الزوجين الأسودين من الكلاب

الطليقة ستة جِراء فيها الأسود والأبيض والأبقع والأصهب والأغبر والأشقر ، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع لا يشترك فى شىء منها أخ وأخ ولا أخت وأخت . ولكنهم يتفقون جميعاً فى الولوع بالموسيقى والنبوغ فى العزف على آلاتها المختلفة .

فالياس الأخ الأكبر يهدف للرابعة والعشرين من عمره . أزهر اللون أشقر الشعر ممشوق القامة قسيم الوجه ، ينظر فيكسر من عينيه . ويبتسم فيضم من شفتيه ، ويتكلم فيغض من صوته . فلولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة فى رونق الشباب وميعة الأنوثة . يعلم للموسيقى فى المدارس والبيوت ، ويعزف الألحان فى السوامر والأندية .

وميشيل طريده فى العمر قمحى اللون تشوبه صفرة الخمر ، مليح القسمات تشيع فيها جاذبية قوية ، أسود الشعر تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول فرقها عند فوده الأيسر . فى قده طول ، وفى صوته غُنَّة ، وفى حركاته مرح ، وفى هندامه أناقة . وهو لا يزال طالبا فى إحدى المدارس الثانوية الفرنسية .

ورفائيل أصغر الأخوة وضىء الطلعة شاحب اللون رقيق البدن يسيل شعره الأصفر المفدودن من وراء أذنيه على قذاله . وهو هادىء الطبع خفيف الظل شاعرى العواطف يقعد على الرغم من صغر سنه مع أخيه الأوسط فى فصل دراسى واحد .

أما البنات فكن عند نزولى على الأسرة اثنتين : مرجريت ، وهى فتاة فى ربيعها السابع عشر ، مسنونة الوجه مرسلة الشعر طويلة العنق مسحاء الثدى ، تميل إلى الطول وتقف بين النحيفة والبدينة . ولعل محياها المطموس لا يوحى إليك شيئاً من ذكاء أو أثراً من عذوبة ؟ ولكنك إذا جالستها أو لابستها لاتعدم أن تسمع منها حديثاً يمتع، وأن ترى فيها خلة تعجب .

بجورجيت صغرى الأخوات صبية لا تزال فى عمر البدر ، مطهمة الوجه ، بضة البشرة ، ممتلئة البدن ، فى جفنيها انتفاخ ، وفى شفتيها غلظ ، ولكنها على قلة حظها من الجمال لطيفة الروح ، فكهة الحديث ، مرحة الطبع، تتكلم ولا تستحى، وتمزح ولا تعف ؛ وهى مع أختها الوسطى بمدرسة أمريكية البنات فى حى (باب الشيخ) .

تلك هى الصفات البارزة المميزة فى أولاد هذه الأسرة رسمتها خطوطا مجردة من غير تظليل ولا تلوين ، لتبين على التقريب الفروق الخلقية بين بعضهم وبعض . وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ومن اللطف والغلظ ، ينم على طبيعة الروح من الخير والشر ، ومن الطيب والخبث ، فإن هؤلاء الأولاد من بنين وبنات يختلفون اختلافا بينا فى الخلق والطبع والسلوك والنزعة. فمنهم المخادع الحصيف الذى يسعى للمال من أى طريق ، والماجن الظريف الذى يطلب اللذة من أى نوع ، والفنان الرقيق الذى يعشق الجمال فى أى صورة .

ومنهن الساذجة السهلة التى تصدق كل خبر ، وتفشى كل سر ، وتلبى كل طلب ، ولا يهمها أن تخرج مع سيد أو خادم . والطائشة الوقحة التى جعلت همها اللعب والحلوى ، ودأبها العبث والضحك ، ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بحق أو بباطل .

لا يمكن أن تنشأ فى هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة من فعل الوراثة القريبة المباشرة ، فإن الوالدين يعقوب ومارى لم يجمعا فى أخلاقهما الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده .

فالزوج من رجال الأعمال المجدين ، يتصرف لعياله فى التجارة فيتقلب من صنف إلى صنف ، ويضطرب من أرض إلى أرض ، لا يدخر جهدا ولا

يضيع فرصة . يصدر الجلود والتمور ، ويستورد الآلات والسلع ، لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين ، وإنما يتخير بحاسته التجارية التى تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة للاستهلاك . له مخزن للحفظ وليس له متجر للعرض . وسبيله فى البيع أن يستعين بالوصولية وللكبافلية على إقناع ذوى النفوذ فى الوزارت والشركات أن يشتروا بضاعته جملة .

وهو من مخلفات العهد التركى فى العراق : يتكلم التركية ويلبس الطربوش ، ويحسن احناء الظهر عند السلام ، ويتقن إذابة للملق فى الكلام ، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من الباب الذى يؤدى .

والزوجة من ربات البيوت الصالحات يظهر عليها كلال السنين الخمسين وعناء الحياة العاملة . وهبت نفسها لخدمة زوجها وبنيها فلا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ . على أن كثرة عملها وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم فتراكب لحمها واسترخى . ثم اعتراها على الكبر صمم خفيف فزهدت فى الاجتماع بالناس واكتفت من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها يمثلون على عينيها الجانب البهيج المرح من الحياة . كانت لا تشارك فى الحديث لأنها لا تسمع أكثر ما يقال، ولا تدخل فى اللهو لأنها لا تعرف أكثر ما يُلعب . إنما كان دورها فى حفلات الدار أن تعد الحلوى وتهيىء المزة وتقدم الشراب وتعنى براحة السامرين والسامرات فلا يشوب صفوهم كدر ، ولا يدرك لهوهم نقص .

كانت مارى طيبة القلب فلا تكره حتى العدو ، وكانت سمحة القياد فلا تعارض حتى فى الضرر ، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر حتى فى الصحيفة . كان مصدرها الوحيد الذى تستقى منه العلم والخبر والرأى هو زوجها يعقوب حين يخلو احدهما إلى الآخر فى غرفة الطعام بعد انصراف الأولاد كل إلى شأنه .

— ٢ —

كانت هذه الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل

أو إلى الحلم تسكن سكون الدير وتوحش وحشة الطلل فلا تكاد تسمع صوتا ولا حركة .

كانت السيدة والطاهى يعملان فى صمت . وكانت الخادمة والخادم ينظفان فى سكون . وكنت أنا فى الغرفة أو فى الممشى أقرأ أو أكتب أو أنام . ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ولا تلبث أن تهمد . فإذا أقبل الليل أمست الدار ردهتها أو سرادبها أو بهوها على حسب الفصول مقصفا لا يشبع من القصف ، ومرقصا لا يفتر عن العزف ، وناديا لا يكف عن اللعب . إلياس يدق بأنامله العشر على معزف البيان ، وميشيل يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود ، ورفائيل يمر بقوسه المشدودة على أوتار الكمنجة ، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعوين فلا تخرج أحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل فى ذراع كهل : وفى الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ فى الوزارات أو الشركات يقارعهم يعقوب الكأس ويفاوضهم فى صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة : وجه لهم ووجه له . ويجتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب يعابثون الفتيات ويتسابقون إلى قلوبهن بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية . وبين هنا وهناك يجلس مع الأم مارى امرأتان ممن ودعن أيام الصبا والغزل يثرثرن فى أخبار النساء وأسرار البيوت ، ويقبل علىّ رجلان أو ثلاثة ممن قعد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون فى حديث الأدب والسياسة .

فإذا انقضى الهزيع الثانى من الليل وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص انصرفت طائفة وتحلقت أخرى حول موائد الحظ يلعبون البوكر ويتبادلون السعد والنحس ، ويتقارضون الرضا والسخط ، والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون الفيشات تتجمع وتتفرق أمام اللاعبين كأنها كثبان الرمل فى

يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا لتكومها هناك ، فيبتهج قوم ويكتئب آخرون إلا الزوجين يعقوب ومارى فقد كان ابتهاجهما لا ينقطع لا فى الربح ولا فى الخسارة ، لأن (الجنيوتا) أو حصة المائدة من القمار كانت تضاف إلى حصيلتهما فى كل دور على أى حال .

وهكذا كان صاحب الدار بفضل بنيه وبناته يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه ، ومن طائفة المقامرين حفنة من النقود يصلح بها أمره .

ثم كان فى الجهة الجنوبية من الطابق الأعلى غرفة منعزلة تحمرُّ فى أكثر الليالى ، ولكنها لا تبلغ فى الاحمرار مبلغ الصالون لا فى الكم ولا فى الكيف . تلك كانت الغرفة التى يسكنها قنصل دولة من الدول الاسلامية غير العربية . كان هذا القنصل يمر بغرفتى فى ذهابه وإيابه ، فيلقى علىّ التحية بفضول ، وأردها عليه بفتور ، ولم أجد من نفسى دافعا إلى أن أصل مابينى وبينه بسبب من المودة . كنت كلما رأيته أتصوره خنزيرا على رجلين ! وليس وجه الشبه قاصرا على أنه ضخم الجثة قصير القامة جهم الوجه ، وإنما كانت فيه مشابه أخرى من هذا الحيوان أخصها قذارة معنوية طالما حدثتنى عنها الآنسة مرجريت .

كان هذا الرجل مصابا بالشذوذ ، وكانت خلقته الجافية لا تبلغه ما فى نفسه ، فكان يستعين بالهدايا والحلوى على اجتذاب الولدان إليه واستئناسهم به . ثم ادعى الغرام بالموسيقى فاشترى عودا وطلب من إلياس وأخويه أن يعلموه العزف عليه بالأجر ، وبهذه الحيلة استطاع أن يجعل من غرفته ما خورا صغيرا يغص فى أكثر الأحيان بألوان من الندامى وأفنان من اللذة .

حسبك ماذكرت من التعريف بالدار والأسرة . ولعلك قد تهيأت الآن إلى أن تسمع القصة :

— ٣ —

عدت ذات يوم من أيام أبريل من عملى إلى الدار فى فترة القيلولة . وهى فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة فى جميع البيوت . ولكننى لم أكد أجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين ، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار ، والأم وأولادها يخطرون فى زينتهم بين المقاعد يؤهلون ويرحبون بالزوار . فألقيت على الحضور نظرة عابرة ، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من وقع بصرى عليهم ممن أعرف ، وأخذت طريق السلم إلى غرفتى الخاصة . وبعد قليل أقبلت الخادمة على عادتها تحمل إلى دورقاً من الماء المثلوج ، فسألتها عن سبب هذا الحفل فى هذه الساعة . فقالت : إن الآنسة (نورا) قد عادت من دمشق منذ ساعتين ، وقد قدمت معها عمتها وبناتها . وهؤلاء هم مستقبلوهن من الأقربين و المحبين والمعجبين وعددهم يزداد من لحظة إلى لحظة .

نورا ؟ ! آه ! لشد ما لهجت ألسن الأسرة بهذا الأسم ! ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الإسم !

لقد عرفت عن نورا بالسماع مثل ما أعرف عن مرجريت وجورجيت بالعيان . عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى ، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات فى مدرسة ثانوية للراهبات فى دمشق ، وأنها تقيم مع عمتها بباب توما ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين ، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والأنوثة قلما تؤتاه فتاة فى سن العشرين ، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفى البنك العثمانى عرفته فيمن يكثرون التردد على مجلس هذه الدار .

لم أجد فى نفسى الرغبة الملحة فى أن أنزل لأهنىء الأسرة بقدومها ، وأشارك القوم فى الاحتفال بها ، فقرأت قليلا ثم نمت .

وفى المساء عاد الحفل فانتظم فى البهو الواسع فدخلته فيمن دخل ، وقدّم إلىّ الأب يعقوب ابنته نورا ومن قدم معها من قريباته . فسلمت الفتاة فى استحياء ، وغضت من بصرها وهى تتمتم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف .

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالى بالرقص والخمر ، لتنتهى كالعادة بالوجوم والتمسّر ، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البرىء ، تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى فى العادات واللهجات بين سورية والعراق ومصر .

وكان عبء الحديث واقعا على السيدة اللبقة التى تدير فندقاً كبيراً فى سرة دمشق ، وعلى تاجر كهل فكه يكثر التصرف والتقلب فى أقطار العروبة . وكانت نورا كالعروس على المنصّة تسمع فى صمت وتنظر فى خفر وتتكلم فى وقار . وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما فى وجه نورا لا أكاد أطرف ، مُصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعى . . كان وجه نورا جملة من القسمات الحلوة والملامح المعبرة فى صورة من الفن الإلهى المبدع لايقع مثلها فى الإمكان لأزميل مثّال أوريشة مصور أو قلم شاعر . ولا تظن فيما قلت مبالغة من زخرف الحديث ، فإن كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلا فيمن رأى من الأوانس . وليس لإقبال الشباب والكهول على الاحتفال بها والارتياح لها من سر إلاجمالها الفاتن وجاذبيتها الطاغية .

ربما لايجد المتحذلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقا على مقاييس الفن إذا أخذوه عضوا عضوا ، ولكن الروح التى تنبثّ فيه ، والفتنة التى تنبعث منه ،

والعذوبة التى تهيمن عليه ، شىء يسمو على المقاييس ويخرج عن دائرة الفن .

لم أكن أنا وحدى الذى انعقد نظره بوجه نورا واشتغل قلبه بحسن نورا ، وإنما كان أكثر الجالسين ينقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص إلى شخص ومن شىء إلى شىء ثم يعودون فيقفونها على محيا نورا . أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسماتها أنها تتيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن . وأما الأب فقد كان يبدو من هيئته ولهجته أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة ، وأما الخطيب فقد كان يلوح من حركاته وكلماته أنه يُزهى على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة ! ولندع بعد ذلك الحوادث تتوارد وتتوالى فى الأيام التى ستتعاقب على هذه الليلة .

— ٤ —

أصبحت نورا مركز الجاذبية فى الدار . فحيثما تسكن يتهافت عليها الناس من العشيرة والجيرة . وكان لهذا التهافت فى الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع والحالة . فالأختان وأترابهما كن يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استُحدث من ضروب الزى والزينة فى سورية ولبنان ، والإخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئاً من صبوات الشباب وخلوات الهوى فى دمشق وبيروت ، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سر هذا التغير الذى طرأ على نفس نورا ، فهى لا تنشط لحديث ، ولا تهش لزائر ، ولا تنبسط للهو . . وكان عهدهم بها أن لسانها الحلو لا يكف عن الدعابة ، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك ، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنس .

وكنت لاحظت وأنا بعيد أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الأسرة قد عادت إلى طبيعتها من الإحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة . كان أفراد

هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق ، يضمهم بناء واحد ، وتجمعهم مائدة واحدة ، ولكن لكل منهم عمله ونيته وخطته ووجهته وغرضه . فلما عادت نورا كانت كالخيط الذى ينظم العقد المنثور ، والروح الذى يمسك الجسد المنحل .

ولعل السبب فى ذلك أن المرء بطبعه يحب فى غيره ماليس فيه ؛ فالجبان يحب الشجاع ، والهيوب يحب الجرىء ، والعيى يحب الفصيح ، والقبيح يحب الحسن . . ولهذا كان الناس يحبون الأبطال والآلهة . والله قد كمل نورا بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح ، فهم يحبونها جميعا ويرون فيها الجزء المتمم لكل منهم . والحب سر التجاذب والتضام فى الكون كله . هو الذى يجعل من حبات الرمل جبلا ، ومن قطرات الماء بحرا ، ومن أفراد الناس أمة .

لم أر نورا قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت إليه . إلا أن مارأيت منها ، كان يختلف كل الاختلاف عما سمعت عنها . كانوا يقولون إنها بهجة الدار وزينة البهو وروح الحديث ولحن البيان ومرح الرقص ، ولكنى أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت ، مضطربة البال تطلب الهدوء ، ضيقة الصدر تؤثر العزلة . وعبثا حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهو ، وأن يشعروها أن بجانبها خطيبا برح به الشوق وثقل عليه الانتظار فمن حقه أن يجلس إليها وأن يخرج معها .

وأقام أبوها حفلة ساهرة فى الطابق الأسفل من الدار ، وكانوا قد أنزلوا إليه الفرش والأثاث من الطابق الأعلى فى أواخر مارس حين يبدأ الصيف فى بغداد ، وينقلب البيت فرنا من غير وقود ، والهواء لهبا من غير دخان فغصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والأعمال واللهو تصحبهم نساؤهم وبناتهم فى زينتهم الجميلة وزينتهن الرائعة . وكان الخواجه يعقوب قد أراد

باقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة صوفى ، ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الأنس على قلب نورا ، وأن يخرج إلى النور بعض السلع التى طال عليها الرقاد فى ظلام المخزن . وكانت منيةَ النفس لكل حاضر أن يظفر من نورا بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة ، ولكنها لأمرما أعرضت عن الأركان الصاخبة فى الحفلة وأقبلت على عجائز أمها فجلست إليهن قليلا ثم انتقلت إلى الركن الهادىء الذى أجلس فيه مع الأستاذ رفائيل بطى عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب وأخذت مجلسها بجانبى .

وكان الأستاذ رفائيل (عليه رحمة الله ، فقد توفى منذ عامين) واسع العلم بأحوال البلاد العربية ورجالها فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر عن أى كاتب أو شاعر أو أديب فى مصر ولبنان وسورية . فكان الحديث بيننا شجونا من النوادر والطرَف أخرجنا عن جو الحفلة . فلما انضمت إلينا نورا اتجهت نحونا الأنظار فشعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب فى اللهو والأنس ، فلا بد أن نرجع إليه ونشارك فيه . ولكن نورا آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر ، فان أحب الأحاديث إلى قلبها كما تقول ما اتصل بها وبأهلها ، وانها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أى بلد آخر . وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصموت تبسط أسارير وجهها بالضحك ، وتحل عقدة لسانها بالكلام ، وتروى الخبر بعد الخبر ، وتورد النكتة بعد النكتة ، بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق . فقلت لها وأنا لا أملك نفسى من الدهشة : هل زرت مصر كثيراً وعشت فى القاهرة طويلا ؟ فقالت فى لهجة تنم على الأسى والأسف : لم يكتب لى الله هذه السعادة بعد ! فقلت لها إذن كيف تهيأ لك أن تعلمى هذا العلم ، وأن تتكلمى هذه اللغة ؟ فتشاغلت عن سؤالى بابتسامة خافتة ولم ترد أن تجيب .

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه فعجبوا أن

تستوحش فى مكان فيه الخطيب والقريب ، وتستأنس فى مكان فيه البعيد والغريب !

وكانت الأم مارى وصواحبها قد أقبلن على السيدة صوف أخت يعقوب يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذى أصاب نورا فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة ، فقالت السيدة وهى تخافت من صوتها : أما السر فلا يعلمه إلا الله . ولقد اعترتها هذه الحال منذ أكتوبر الماضى فعرضتها على الطبيب فقال إنها مريضة بالقلق النفسى من الإرهاق أو الحزن أو الهم ، وتفيدها الراحة والتسلية والنقلة . ووصف لها أنواعا من العقاقير ساءت على تعاطيها الحال واشتدت العلة ، فكانت تنفر من المخالطة ، وتطمئن إلى الخلوة ، وتكثر من الصلاة ، وتواظب على القداس ، ونضارتها فى خلال ذلك تذوى وبشاشتها تزول ، فرأيت أن أجرب النقلة فرحلت بها إلى بيروت فى عطلة عيد الميلاد فنسات بعض التسلى وتحسنت بعض التحسن ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى حالها الأولى بعد أن عدنا إلى دمشق . وكان معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسى فعالجنها مرة بالدعاء ومرة بالدواء فما نفع الدين ولا أفاد الطب . وأخيرا جاءت عطلة عيد الفصح فرأيت أن أعود بها إلى بغداد عسى أن تجد فى الوطن الذى نشأت به وفى العش الذى درجت فيه ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ويذهب عن نفسها هذا القلق .

وكان فى الحفل أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ولا يقربهن متاع النبطة : عينان فى وجه الخطيب وعينان فى وجه أمه . كانت عينا جاك تخضلان بالدمع كلما رأتا خطيبته لا تحفل به ولا تنظر إليه . وكانت عينا أمه تشعان بالسخط كلما رأتا نورا تقبل علينا ولا تقبل عليه . وعلى فجأة من لهو اللاهين ولعب اللاعبين ، سقط جاك من فوق كرسيه فاقد الوعى متخشب الجسد مختلج الأطراف مصطك الأسنان مزبد الفم، فصرخت أمه وفزع الحضور وخفوا إليه

بالمسعفات حتى أفاق . وكانت نورا ممن أسرعوا إلى المصروع بالمنبهات نخصها بالشكر . واضطجع على الكنبة ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج .

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة فتكدر الصفو وانقطع اللهو وانصرف المدعوون .

— ٥ —

وفى بكرة اليوم التالى وكان يوم أحد دخلت علىّ السيدة مارى وفى يدها صينية صغيرة عليها قدحان ، فحيتنى تحية طيبة ثم قالت وهى تضع الصينية على المائدة : عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصابح معك بقدح من الشاى وأبوح لك بأن نورا منذ رأتك تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك . وقد رأيتها فى الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها إليك . ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لواعج الحزن والهم ، فقد عجزت عمتها وعجزنا عن كشفه . ثم روت لى ما قالته السيدة صوفى عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهى إلى انهيار عصبى لا يرجى برؤه . وعقبت عليه بأنها شديدة القلق على مستقبل البنت فقد رفضت أن تعود إلى الدراسة بدمشق ، وكرهت أن تظل مخطوبة إلى جاك . وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جرّاء صدودها عنه وهو من أكثر الشبان مالا ومن أرفعهم وظيفة . إن نورا كما ترى معبودة الأسرة . وإنا لنبذل فى سبيل سعادتها أنفس ما نملك . وليس جمالها وحده هو الذى أحلها من قلوبنا هذا المحل . إن لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أُخَر أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين ، وللدين على أقوالها وأفعالها السلطان القاهر منذ الطفولة ؛ فهى لا تقول لنفسها ما تخشى أن تقوله للناس ، ولا تفعل فى سرها ما تكره أن تفعله

فى العالم ، ولا تجرى فى أمورها إلا على سنن القديسين والرسل . فإذا أصابها مكروه فى محنتها أو فى سعادتها أصاب الأسرة فى صميم حياتها فلا تنتفع بعدها بالعيش . فالرجاء فى الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذى تختاره . وسأرسلها إليك متى عادت من القداس .

* * *

من النفاق المحض أن أقول إن شعورى بهذا التكليف كان شعور الخلى المحايد . الحق أنه كان شعور الحالم الذى صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات ، فى صور زاهية من الوقائع واللذات ، ثم تيقظ فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة يبصرها بعينه ويلمسها بيده . كنت فى خلال الأسبوع الذى مضى على هذا الانقلاب فى الدار أتابع هذا الحسن الرائع بحواسى الخمس وهو يجىء فى المشى أو يذهب ، ويدخل الغرف أو يخرج ، ويتكلم فى البهو أو يصمت ، فيمنعنى الحياء أن أدور فى فلكه وأن أدخل فى شعاعه ، ثم أصبح فإذا بى أسمع أنه يسأل عنى ويفكر فى ، وإذا بى أرى أن القائمة عليه تنيطه بى وتكله إلى ! ! فهل تصدق القط الذى أعطاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ورأسه بارد ونفسه عزوفة ؟ قد يكون هذا القط صواما قواما يجعل من هذا الكرار صومعة لنسكه ومحرابا لصلاته ، ولكن إخفاءه حقيقة شعوره وطبيعة سروره رياء صريح .

سمعت نقرتين على باب غرفتى ففتحته فإذا نورا فى ثياب الأحد وطلعة الملاك تبتسم وتقول : أخبرتنى أمى أن السيد حاجة إلى . فقلت وأنا أهيىء لها الكرسى لتقعد : إن حاجتى إليك حاجة الغريب إلى الأنس والضيف إلى الإكرام . فقالت : لست غريبا وأنت فى دارك ، ولا ضيفا وأنت بين أهلك وإن العائلة كلها كما سمعت ولاحظت تحبك وتحترمك .

فقلت لها : إن غربة الروح أشد من غربة الجسد . وربما ظل الرجل طول عمره غريبا بين أهله إذا لم يوافقوه فى هوى ولم يشاركوه فى شعور . ولهذا شعرت من إشعاع نفسك على من بعيد أن بينى و بينك ألفة من الروح لو كان لها تجاوب فى شعورك لوجد القلب بجانبه قلبا يتفتح له ويتصل به و يسكن إليه . ولعلى أدركت أن سر انقباضك عن الناس أنهم لايشبهونك فى خلق ولا طبع ، ولا يفهمونك فى إحساس ولا فكر . فهل أدركت الصواب أو على الأقل واجهت الحقيقة ؟

وكانت الفتاة قد حدقت ببصرها إلى وأقبلت بسمعها على ، وقالت : إن ما قلته عن نفسك وعنى لم يجاوز الحق . وإن ما أدركته أنت من سر انقباضى هو ما أدركته أنا من سر انقباضك . وقد كنت على وشك الاتصال بك لو لم تأمرنى بلقائك أمى . وما كان جلوسى إليك البارحة فى الصالون إلا تمهيدا لذلك . أما لماذا اخترتك من غير معرفة ، وألفتك من غير صلة ، فعلم ذلك من مكنونات النفس فلا أعرف له باعثا ولا علة . وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصرى وقلبى معمور بحب مصر ، وأنى مريضة ومرضى محتاج بطبيعته إلى مؤاس من نوع خاص . ولم يكذبنى قلبى فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسى وتكشف عن ضميرى .

لم أر فى الجلسة الأولى أن أدخل فى صميم الموضوع ولا أن أسألها عن سر حبها لمصر التى تسكنه ، ولا عن كنه مرضها الذى تعانيه ، وإنما اكتفيت بأن قلت لها : أراك تفتقدين الأنيس المؤاسى وأنا أعلم أنك مخطوبة إلى السيد جاك . والخطيب صفى القلب ونجى النفس وشريك للمستقبل . وهو كما ينم عليه حاله يهواك أشد الهوى ، ويرعاك أصدق الرعاية . فلو أنك بادلته الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بفراغ . ولكن أمك تقول على أثر ما أصابه الليلة أنك

لاتبالين به إذا حضر ، ولا تسألين عنه إذا غاب ، ولا تردين عليه إذا كتب ، فهل هذا عرض من أعراض ذلك المرض ؟

فسكتت نورا قليلا ثم قالت فى شىء من البطء كأنما تعد كلماتها عدا : يجوز أن يكون للأزمة النفسية التى أكابدها منذ ستة أشهر بعض الأثر فى فساد الحال بينى وبين جاك ، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف بين مزاج ومزاج ، والتباين بين خلق وخلق :

أنا خيالية وهو واقعى ، وأنا روحانية وهو مادى ، وأنا مؤمنة وهو طبيعى ، وأنا أفهم الحياة على أنها آلة موسيقية وأنغام ، وهو يفهمها على أنها آلة كاتبة وأرقام .

فأنا لا أصلح له وهو لايصلح لى . وما كانت خِطبتنا إلا عِدة وعدها أبى إياه لنباهته فى دنيا المال والعمل .

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحا فدخلت مرجريت وجورجيت فعاد الحديث إلى مجراه العام . ونزلنا بعد قليل إلى السرداب لنجد العمة ومن حولها سائر الأسرة يتحدثون فى اهتمام وجد .

فلما رأونا ندخل وعلى وجوهنا دلائل البشر تهللوا جميعا ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة ، أو للعاقدين لصفقة رابحة . ثم انصرف بعضهم إلى البيان وبعضهم إلى الكونسكان ، وجلست أنا ونورا مع المتحدثين . ولاحظ الثلاثة الكبار يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة ، مفتوحة النفس للحديث ، فقال الأب موجها كلامه إلىّ وإلى نورا :

كنا نتحدث هنا فيما كنتما تتحدثان فيه هناك . ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأى فى خطبة جاك ودراسة نورا من قبل أن تعود صوفى إلى دمشق . وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا

لاعندهم . فقلت : إن من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها على مهل ، فإن قطع العقدة وإن كان أيسر من حلها يؤذى النفس ويجرح الكرامة . وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع .

وقالت نورا : وأنا من رأيي أن أبقى معكم إلى الخريف ، فإن البعد عن منشأ الداء وإن كان سيحرمنى أداء الامتحان سيساعد فيما أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة .

— ٦ —

أصبحت غرفتى منذ ذلك اليوم قطعة من الروض وقاعة من المتحف . نقلت إليها نورا أجمل ما فى الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف . ثم كانت تتعهدها كل صباح بنفسها فتنسق الزهر وتنظم الأثاث وترتب الكتب .

وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بينى وبين القنصل : فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس . فالبنات وأمهن فريق ، والبنون وأبوهم فريق . ففى غرفتى تجتمع نورا وأختاها ومعهن الكتاب والبراءة ، وفى غرفة السيد (بكير) يجتمع إلياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة !

وتمكنت الألفة بينى وبين نورا فلم تعد تصطحب أختيها فى المجيء إلى . فإذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما إلى المذاكرة ، وبقيت هى جالسة على كرسى طويل ظهرها مسند إلى صدره ، وسائر جسمها ممدد على طوله ، وفى يدها مجلة تنظر فيها ، ولكنها لاتلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهى يقظى فى حلم عميق . فإذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ ؛ وإن كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضا فى وجه كله معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر !

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت فعادت العمة إلى دمشق وعاد الأولاد إلى المدرسة ، وخلت الدار إلا من المريض والمريضة أو من المصور والمثال . فوجدت الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها ، وأستخرج دفينة صدرها ، فقلت لها ذات يوم : أريد أن أعالجك بالتحليل كما يفعل الطبيب المحلل ، أو بالإعتراف كما يفعل القسيس المعرّف . فبوحى لى بكل ما فى نفسك عسى أن أجد لك فرجا من هذا الهم . وأعدك أن يظل الأمر فيما بينى وبينك سر مهنة أو سر اعتراف .

فقالت : وأنا أريد هذا أيضاً ، فإنى منذ فارقت (الأب إلياس) أشعر بالكرب يخنق صدرى وبالقلق يروع ضميرى . وقد كنت أستريح إليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى . وأنت أقرب إلى قلبى منه ، لأنك تعيش فى موجود الدنيا وهو يعيش فى موعود الآخرة ، وأنت تشعر بانبساط الربيع وهو يشعر بانقباض الخريف . ولا أريد أن أمضى فى المقارنة بينك وبينه . .

فقلت لها وأنا أنثر البركة عليها من يدى : إذن ضمنت لك الشفاء بهذه الثقة . ثم جلست على كرسى الاعتراف وأخذت نورا تعترف لى تقول :

— ٧ —

أخذت نورا تعترف باللغة الفرنسية لأنها تستسهلها لا لأنها تفضلها ، قالت ماترجمته :

« كان ذلك فى تموز من عام ١٩٣١ ، وكان من عادتى فى العطلة الصيفية إذا لم أعد إلى بغداد أن أضم يدى إلى يد عمتى فى إدارة الفندق ، فأدعها تصرّف أموره العامة فتمون المطابخ وتهيىء الموائد وتجهز الغرف وتتعهد الأثاث وتراقب الخدم ، وأجلس أنا إلى المكتب فى المدخل أستقبل النازلين وأرصد مالهم ، وأودع

الراحلين وأقبض ماعليهم ، وأجيب عن كل سؤال ، وأستمع إلى كل شكوى .

ولم أكن أدرى أى شيء فىّ يجذب النزلاء إلىّ ، ويرميهم بأثقالهم علىّ ؛ فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعى أو يختلقها ليقف أمام المكتب يسأل من غير موجب ، ويتكلم فى غير موضوع ، ويُشفع الكلام الذى لامعنى له بالنظرة التى تقول والبسمة التى تدل ، فأجيب عن السؤال بالنفى أو الايجاب ، وأرد على الكلام بالصمت أو الايجاز ، وأغمض عينى عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقها إلى نفسى ، ولكننى بعدُ أيام ضقت ذرعا بهذا الفضول فتخليت عن صدر المكتب للكاتب وانتحيت ناحية منه ، وأخذت أراقب الأمور من بعيد فلا أتدخل إلا فيما يتصل بالإدارة العليا للفندق . وكنت مع ذلك أنظر خلسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف ، فأرى صورا من الناس وأنماطا من اللباس وأخلاطا من اللُّغَى تجعل نهارى وبعض ليلى حفلة مستمرة فى سينما . وكان لايستوقف نظرى من هذا الخليط المتغير المتجدد إلا الجميل والأنيق والمهذب ، وهؤلاء يغلب عليهم التصوُّن والتعالى فلا يتبذلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث . وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع لم أستطع ان أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى الا هذه الصفات البادية . كان السهوم والوجوم ظاهرين على وجهه فى دخوله وخروجه ، وكان منزايلا لايدور فى فلك الفندق ولايشعر بجاذبية أهله . انما كان يدور كما علمت من بعدُ حول شمس غير منظورة لم يبق منها فى دنياه إلا شعاعة تضيء عينه بقدر ما يمشى ، وحرارة تحيى قلبه بقدر ما يعيش . كان يجلس وحده فى البهو ، ويأكل وحده على المائدة ، فاذا كتب لايكتب إلا رسالة ، وإذا قرأ لايقرأ إلاصحيفة . والصحف التى كان يقرأها كانت مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح . فهل هو مصرى ؟ لو سمعته لعرفته من لهجته ، ولو عرفت اسمه لكشفت عنه من بطاقته . ولكنه لم يكن يعوج بالمكتب إلا ليودع الكاتب مفتاح غرفته أوليسترده منه . وكنت وأنا فى ركنى المنعزل ألح عليه

بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أوجلس فى الردهة لعله يلقى على نظرة أويوجه إلى كلمة فما كان وجهه يتعدى وجه الكاتب ، ولا عينه تفارق صفحة الكتاب ، إلى أن اضطر الكاتب يوما أن يغيب واضطررت أنا إلى أن أجلس على كرسيه ، وأقبل هوفى الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج ، فحيا فى احتشام وأدب ، وألقى بمفتاحه فى رقة ولطف . ولما رأى بين يدى كومة من بريد الفندق كنت أفرزها لأوزعها على الغرف ، وجه إلى من تحت أهدابه الوُطف نظرة حيية وقال : هل لى فى هذا البريد بريد ؟ فسألته عن اسمه فقال : نبيل طاهر . فعدت أقرأ العناوين فى شىء من البطء لاأدرى لماذا ، حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة عن القاهرة فأخذها شاكرا وخرج

عرفت فى هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وجنسه وقليلا من خلقه وكثيرا من صفاته . وانصبَّ فى شعورى عن طريق نظرته وكلمته وبسمته دفق من جاذبيته الروحية شغل بالى به وصرف همى إليه . كان مثال ما ارتسم فى ذهنى من صورة المصرى الصميم : وجه ناعم أسمر مشرب بالحمرة كأنما ورَّدته نشوة الخمر ، وشعر فاحم متموج أثيث قد أشرفت منه جمة على ناصيته ، وعينان كحلاوان تشع منهما الطيبة وتشيع فيهما البراءة ، وفم رقيق حلو يفتر افترار الطفل عن ثغر صدفى نضيد ، وهذه هى الصفات الطاغية التى تبرز لعينيك أول ماتراه فتشغلك عن صفاته الأخرى . كنت أتمنى كلما دخل أوخرج أن يمربى فيسألنى شيئا أويكلفنى أمرا ، ولكنه كان كما قلت محصورا فى حياته الخاصة لايخرج منها أبدا ولايستقبل فيها أحدا ، فلكتنى رغبة قوية فى أن أطرق عليه باب دنياه طرقة خفيفة فلعلى أكشف ماوراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ويوجب هذه العزلة ، ففرزت يوما بريده بنفسى وحجزته . ولما علمت أنه جالس فى البهو يقرأ صحفه ذهبت إليه فى شىء من الحرج وقلت له : هذه رسائلك من بريد اليوم جعلت من حملها إليك فرصة أسألك فيها عن مقامك فى الفندق . فنهض الشاب

واقفا وتسلم الرسائل . ثم تلطف فدعانى إلى الجلوس فجلست . وخيل إلىّ أن علامة من علائم الرضا قد تراءت على وجهه ، فقلت له : أراض أنت عن غرفتك ومائدتك وخدمتك ؟ أعندك ماتشكوه أم لك ما ترجوه ؟ فقال وهو يخفى ربكة بدت عليه : شكرا يا آنسة ! كل شىء مريح وكل أمر ميسر . فقلت له : دع هذا التحفظ واجعلنى هنا بمثابة أختك واسترح إلى بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربة ، فانى غريبة مثلك أشعر بما يعترى الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق . فقال لى فى لهجة مصرية وصوت خفيض : يسعدنى ويزهونى أن ترفعينى فى نظرك إلى منزلة الأخ . ولقد قلت إنك غريبة وكان بعض الشك يخالجنى فى أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح ، فهل أنت عراقية ؟ فقلت : نعم أنا بغدادية أطلب العلم فى دمشق ، وصاحبة هذا الفندق عمتى ، فأنا أساعدها فى إدارته شهرى العطلة . وجاء عامل التليفون يدعونى إلى مكالمة فاستأذنت منه وانصرفت

أنس الىّ منذ يومئذ نبيل ، فكان يجلس فى الردهة لا فى البهو ، ويوجه كلامه إلى لا إلى الكاتب ، ويفضل أن يبقى فى الفندق على أن يخرج ، ولكن الحياء منه والإباء منى كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردّد والكلام العابر ، ففكرت فى حيلة تدنى المجلس وتطيل الحديث : فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لألتمس فيها المناسبات التى يصح أن تكون موضعا لسؤال أو موضوعا لحديث . ثم أدومنه فى الوقت الذى ينصرف فيه النزلاء فيخشع الصوت وتسكن الحركة فألقى اليه الخبر أو أورد عليه السؤال ، فيتطلق وجهه بالبشر ، ويتفتح ذهنه بالكلام ، فأقول ويقول ، وأجول فى كل معنى ويجول ، يروى لى عن مصر وأروى له عن العراق ، ويحدثنى عن سعد وأحدثه عن السعدون (١)

(١) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزارة العراقية ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره الأليم حديث الناس فى كل مكان .

ثم تجدد بعد ذلك المجلس وتكرر الحديث حتى توثقت بيننا الألفة وكادت ان تزول الكلفة

— ٨ —

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق وعما رأى من مفاتن الطبيعة فى الفوطتين وبلودان والزبدانى . فقال بلهجة الآسف : إنه قضى فى دمشق نصف شهر دون أن يجد فى نفسه رغبة فى نزهة أو حاجة إلى رحلة . وكل ما كان يصنعه فى هذه الأيام أن يتجول مع أفكاره فى شارع ، أو ينفرد مع همومه فى قهوة . فقلت له وقد وجدت الفرصة لأكشف عن سره وأمره : يؤلمنى أن أسمع منك كلمة الهم وأنت فى السن التى لا تبالى التبعة ولا يهمها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحة ، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة ؟ وهل تتيح لأختك الحانية عليك المتعلقة بك أن تحمل شيئا من عبئك الذى حرمك من لهو العيش وشغلك عن بهجة الحياة ؟ فقال : لشدّ ما يسعدنى ذلك ! فان كتم الألم فى الصدر ككتم البخار فى القدر ، لا يزال يفور ويضطرب حتى يجد متنفسا من الضيق فيهدأ ويستقر . وإن الآهة ينفثها المريض أو الشكاية يبعثها الحزين الهى الراحة من ألمه أو الفرجة من كربه . ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك علاجا من دائى الذى أشكوه وتسلية عن همى الذى أقاسيه . وغداً الأحد وهو يوم عطلتك فتعالى إذا سمحت نخرج إلى ظاهر المدينة فأشركك فى أسرى ، وأفضى إليك بذات صدرى ، وأمتع فى الوقت نفسه بعض منازه الشام فى صحبتك

لم أجد فى الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة ، لأنى مسيحية لا تقيدنى تقاليد البيئة ، ولأنى مراهقة تستهوينى تجربة الخروج الأول مع شاب ، ولأنى مشوقة

منذ أيام إلى حديث طويل مع نبيل .

تواعدنا على اللقاء فى مكان قريب من الفندق وقلت لعمتى بعد أن شهدنا قداس الأحد : إن إحدى صديقاتى من الطالبات دعتنى الى الغداء والسينما فلا تقلقى على إذا تأخرت

وانطلقت بى و بنبيل السيارة إلى (دمر) ، وكانت الغوطة الغربية قد تأنقت فى زينتها الطبيعية فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر ، ومن أمواهها الدافقة بهجة للمزاج المكتئب ، ومن مروجها الخضر سكينة للحس المضطرب . وكان مقهى دمر قد امتدت موائده على ضفتى الجدول الهادر وقد أخذت زخرفها بمن جلس اليها من بنات يوم الأحد وأبنائه ، فاخترنا مائدتنا فى ركن منعزل من طرف المكان وجلسنا إليها متقابلين وجها لوجه وعينا فى عين وفماً إلى أذن . وكان نبيل لا يزال مأخوذا بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق الساحر من الروابى الحالية فى صدرالجبل ، والأنهر الشادية فى حِضن الوادى ، والمنازل الغارقة فى زهور الروض ، فقال : مارأيت أبدع من هذا المنظرولا أنفذ من هذا السحر ، ولولا أن أتاحك لى الله لظللت محروما من هذا الجمال مشغولا عن هذه المتعة . فقلت له : إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤيتها صدأ القلوب ، وتبسط زورتها انقباض المشاعر ، وسنزورها معا بعد ان أصفى نفسك من أكدار الهم وأخلى بالك من شواغل الحزن ، فافتح لى صدرك واسترح إلى بما تسكن فيه . فقال : لا يانورا · ليس الأمر سرا أكتمه ولا ألما أكنه ، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتى وحطمت وجودى وكان لها فى الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد .

أحببت ابنة عمى حبا غلب على عقلى وشعورى . وكان الذى حببها إلىّ جمالها الفاتن وخلقها العذب وروحها اللطيف ، وعشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو النبتة الغضة فى الثرى الخصب والجو الملائم ، فاستوت على ساقها ، وتفرعت

عن أصلها ، ثم أورقت ، ثم أزهرت ، ثم أثمرت ، ثم رفت علينا بالندى والظلال ، ونفحتنا بالنعيم والعطر . ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذى نسكن إليه ونطمئن فيه . فأخذ أبى وعمى يمهدان البناء ويستعدان للعرس . وعلى فجأة نعب على عشنا العتيد غراب ، وانقضت على شجرتنا الوريقة صاعقة ! قالت امرأة عمى لأمى ، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب : إن نبيلا واحسرتاه أخو عقيلة فى الرضاع ؟!

لقد ذكرتنى وداد حاضنة ابنتى فتذكرت أنى أرضعت نبيلا مراراً وأنت مريضة . فماذا نصنع يا أختى لنخفف وقع هذه الصدمة على نبيل وعقيلة ؟

شكّت أمى أول الأمر فى سلفتها وأساءت بها الظن ، فلعلها وجدت لابنتها عريساً خيراً منى فزعمت ما زعمت ، ولكن الحزن الشديد الذى بدا عليها ، والألم الممض الذى نال منها ، والحب المحض الذى تكنه لى منذ الطفولة ، والسرور الطاغى الذى كانت تبديه منذ أعلنت الخطوبة ، كل أولئك كان يبدد كل شك وينفى كل ريبة .

شاع الخبر المشئوم فى بيتينا شيوع النار فشوى أكباداً وكوى أفئدة . وكان الخبر بالنسبة إلى يأساً لا نور للأمل فيه ولا سبيل إلى الصبر عليه ، فضاقت بى الأرض وثقلت علىّ الحياة ، فذاب جسمى ووهن عظمى ، ولزمت السرير أياما لا يأخذنى نوم ولا يهنأنى طعام ، حتى خاف علىّ أهلى فقلبوا على جسمى ونفسى صنوفا من العلاج فلم ينجع فيهما شىء . وأخذ أبواى يسريان عنى بالأمل فى أن يجدوا شهادة تكذب الرضاع أو فتوى تجيز الزواج . ومنعوا عقيلة من لقائى لعل بعدها عنى يساعد على سكوت الألم واندمال الجرح . ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومثار الشجن فقرروا أن أرحل إلى لبنان وسورية . وها أنذا بعد شهرين قضيتهما فى ضهور الشوير ودمشق لا أزال كما ترين مطبق الجفنين على صورتها ، مطوى الجوانح على حبها . أرسل إليها كل مساء رسالة ، وأتلقى

منها كل صباح رسالة . ولم يمل قلبي إليك إلا لأن فيك مشابه كثيرة منها ، فأنا أراها في وجهك ، وأسمعها من فمك ، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المهذب .

ثم أقبل الخادم بألوان الطعام فسكت هو واستمررت أنا أصغى إلى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي فتعتريني الشفقة عليه وتساورني الغيرة منها . ألغيرة ؟ نعم ياسيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثاً لهذا الشعور ولا معنى لهذه الكلمة .

— ٩ —

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس اليه في الفندق ، وأكثر الخروج معه الى الحدائق . ولم تعوزني الوسائل التي كنت أتذرع بها الى حمتى لتعليل الجلوس الطويل أو الخروج الكثير . وكانت أحاديثنا سِقاطا من أفانين شتى ، منها النجوى والشكوى ، ومنها الطبيعة والناس ، فإذا أفضى بنا الحديث الى ذكر عقيلة عطفته برفق الى موضوع آخر حتى لايتذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى . ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها ، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه وتستأثر بحبه .

لقد أحببته منذ رأيته . ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق بانسكاب روحه الروِّي في روحي الظمآن عن طريق النظر والحديث والخلوة . وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأني يائسة منه . هو مشغول القلب منذ صباه بابنة عمه . ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكن به عن أصالة . وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب ، لأن الهوى بيني وبينه غير متكافيء

ولامتبادل . هو يحب فىّ عقيلة لأنى صورتها فى عينه ، وأنا أحب فيه وجودى لأنه حقيقته فى نفسى . وهو مع ذلك قاهرى وأنا بغدادية ، ومسلم وأنا مسيحية ، فاقترانى به موقوف على مواتاة الظروف وموافقة الأهل . ولو كانت إقامته فى دمشق ستطول لكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير فى غيرها ، ولكان من الجائز أن تكون هذه الغير أنا . واذا وقع فى حبى كما وقعت فى حبه سهل الحب كل صعب وأدنى كل بعيد ، ولكن بقاءه بيننا موقوت مهما يطل ، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهما يكن . وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحتكم فى حاضر أمرى ومستقبله الى المنطق ، فلم يبق إلا أن أفوض أمرى الى الله وأترك زمامى فى يد القدر

أخذت أعبُّ هوى نبيل عبا متقابعا لا أتنفس خلاله ولا أكتفى منه . كنت أحبه بأذنى وعينى وقلبى فى كل كلمة وفى كل نظرة وفى كل خفقة ، فى جلوات (الزبدانى) وخلوات بلودان ومسارب الحميدية ومسارح الغوطة ، لأنى كلما فكرت فى أن يوم الرحيل آت لاريب فيه ، عشت هذه الأيام الباقية بالعرض لا بالطول ، فكلما خطوت الى الأمام خطوة ، قطعت عن اليمين غلوة وعن الشمال غلوة ، حتى امتلأ وجودى كله بهواه ، فلا أفكر إلا فيه ، ولا أحلم إلا به ، ولا أعيش الا معه

غبنا معا ثلاثة أسابيع فى نشوة متصلة من رحيق الحب لم نفق منها الا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلا الى العودة ، كان وقعها عليه وقعا مبهما لا هو سار ولا هو محزن . كان مشوبا بالأسى على فراق وبالفرح للقاء أهله . أما وقعها على بالرغم من توقعى لها فقد كان أشد من وقع خبر الرضاع على عقيلة . ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم الجوار والقرابة . أما نورا فلن ترى نبيلا حتى يرى الأعمى النور والميت النشور والحالم الحقيقة .

قضينا ليلة الفراق ساهدين فى الفندق ، يتحدث هو عما سيلاقيه من الكرب اذا لم يجد فى القاهرة من يواسيه ويسليه ، أو أتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذى سيتركه فى حياتى بعد تنائيه وتناسيه . ثم غنى وتمنيت

أن تتاح لى الوسيلة لأزور مصر فنمضى معا فى طريق هذا الهوى العذرى إلى الغاية التى كتبها علينا القضاء فيه

وفى الصباح صحبته الى ميناء بيروت . وهناك على سلم الباخرة جمعنا ماتفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا وضغطناه فى قبلة قوية كانت هى الأولى والأخيرة ! ثم عدت الى دمشق من غير نور ولا أنس ولا أمل . عدت كالثكلى شيعت وحيدها الى المقبرة ورجعت لترى أثره فى كل غرفة ، وتجد ريحه فى كل لعبة ، فهى تفر من البيت الذى يذكرها به ، إلى البيت الذى ترجو أن يسليها عنه .

وكذلك فعلت . فررت من الفندق إلى المنزل ، ومن المكتب إلى السرير . ثم اعترانى من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمتى .

وبعدُ فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهيج ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد ولاتخف ، وتستحكم ولاتنفرج ، فهل عندك لغصتى مساغ ولأزمتى فرج ؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت إلى أن تتقبل الخلاص من الكاهن : إن أمرك يانورا مع نبيل وجاك لهو الأمر الذى وصفه الشاعر بقوله :

جُننا بليلى وهى جُنت بغيرنا   وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وسأحاول أن أعالجك بما عالجت به نبيلا ، فلعلى أصيب من النجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من النجاح فيه

— ١٠ —

لاعلاج للعاشق اليائس الا السلوان . والسلوان شراب كان الأعراب فى البادية يتخذونه من صب ماء المطر على خرزة تسمى السلوانة ثم يسقونه العاشق ليسلو.

ولم يعد فى الإمكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية وأسفاه فحلى محلها النسيان . والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل يمحو الصورة من الذاكرة ويطمس الماضى فى الذهن . لذلك كان همى الأول ألا أدع لها وقتا فارغا تجتر فيه ما اختزنته فى صدرها من رقيق العواطف وجميل المواقف مع نبيل ، فاولت أن أنسخ عاطفة بعاطفة ، وأستبدل موقفا بموقف . وكانت هى قد وجدت فى قربى جزءا من عيشها الذاهب وأملها الخائب لذلك التماثل الذى بينى وبين حبيبها فى الجنس والسحنة واللهجة ، فجعلت وقتها كله لى ، وأرادت أن يكون فراغى كله لها . فنحن فى البيت نقرأ ونتحدث ونلعب الورق . وفى الخارج نجلس على رأس جسر (مود) فى قهوة خيانة ترقد على صدر دجلة النابض وتستغرق فى الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ووجهينا إلى صفحة النهر وأعيننا إلى ضفة الكرخ ، فنجتلى هذا المشهد الرائع قليلا ثم نرتد إلى أنفسنا فنتذاكر كل حديث إلا حديث دمشق . وكثيرا ما كان يلهينا الحديث المشفق عن مائدة البيت فنأكل (الأبيض والبيض والعنبا)[1] من البائع الجوال ، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء . وفى بعض الأصائل من أيام القيظ كنا نفر من وقدة البيت إلى (جزرة) دجلة ، فنجلس حيث يتنفس علينا الماء بالطراوة ، ثم نأكل السمك المسجوف ونتفكه بالبطيخ المبرد ، ثم نقضى العشية فى زورق يهدهدنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذى طالما رقص عليه (العقاب) و (الدلفين) بالخليفة الأمين وحسانه وقيانه وندمائه . وفى أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازه العراق ومغانيه وآثاره . فيوما فى مجالى (الرستمية) على نهر ديالى نستمتع بالخلوة والسكون ، ونستغرق فى الهوى والشجون . ويوما فى بساتين (لعقوبه) ذات الظلال والثمر ، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب أو مقاعد على الجدول أو مماشى تحت الكروم ،

---

(١) الأبيض : الخبز والعنبا : المنجو . تخلل وهى فجة ، وهذا يشبه الصميط والبيض عندنا

ثم نتبادل الحديث والنظر ، فتارة تقول وأنظر ، وتارة تنظر وأقول . والقول كان أفانين من شعر العاطفة ، والنظر كان أشعة من نور القلب . ويوما بالكاظمية أوكربلاء أوالنجف نزور أضرحتها المقدسة ذوات القباب المذهبة ، وتروح بعبيرها المبارك على النفس العانية والكبد المقروحة . ويوما بايوان كسرى أوأطلال بابل أو آثار نينوى ، نجعل منها دروسا فى تاريخ الجبارين من بنى الإنسان ، نستخدم فيها لغة العقل لالغة القلب ، ونستخرج منها ملحمة الماضى لامأساة الحاضر .

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجار اللحد لحب أخذ يموت ، وأعواد للمهد لحب أخذ يولد ! كان قلبها لايزال مذبذبا بين جاذبية الحب الذى غزاه على بردى ، وجاذبية الحب الذى اعتراه على دجلة . وكان قلبى لايزال مخدوعا بأنه يمثل عواطف هذا الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه ، ولكن الذبذبة لم تلبث أن اطمأنت إلى قرار ، والخداع لم يلبث أن تكشف عن حقيقة ! واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أى فتاة لاتستطيع أن تعيش طويلا على ذكرى حب . تعيش عليها لأنها تكره الخلو . فاذا شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين ، وخرجت من الخيال لتعيش فى الواقع . وهكذا أصبحنا محبين محبوبين لانتحدث عن ثالث ولا نفكر فى غائب . وكان من أمرى معها ما كان من أمرها مع نبيل : حاولت أن تسليه عن عقيلة فوقعت فى حبه ، وحاولت أنا أن أسليها عن نبيل فوقعت فى حبها : ولم يكن الحب الذى بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبينى إلا حبا صوفيا يصيب ذوى المشاعر المرهفة ولا يكون له عرض ولاغرض الاحديث القلب للقلب وأنس الروح بالروح فى الخلوة العفة والنزهة النزيهة . ليس لهذا الحب مدى من الطبيعة والحس حتى يفتر إذا بلغه ، انما هو كالعشق الإلهى فى عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته ، لأنه اتحاد وجود فى وجود وفناء ذات فى ذات .

مرت الأيام على هذه الحال مرور الحلم اللذيذ فى النوم الهادىء لا يزعجنا كابوس من هم ولا ينبو من قلق . وكانت نورا فى تلك المدة قد عاد إليها صفاء نفسها ونضارة صباها فتفتح جسمها الغض فى حرارة الحب كما يتفتح الورد الدمشقى فى دفء الربيع . فهى تمرح وتلهو وتقابل وتشارك ، فاغتبطت الأسرة بهذا التغير وتوسعت فى اللهو وتبسطت فى الأنس ، وعاد البهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص وللموسيقى . وقضينا فى هذه النشوة الصوفية أحد عشر شهرا لا نسأل القدر المقدور متى نفيق منها ولا كيف ننصرف عنها . ولماذا نسأل ؟ أما أعلم أنها موقوتة ببقائى فى بغداد . وبقائى فى بغداد لن يتجاوز أول هذا الصيف ، وهى قد عودت نفسها ألا تفكر فى الغد ما دامت مشغولة الفكر باليوم . ولكن الزمن ينقضى ، والعمل ينتهى ، واليوم الذى سأغادر فيه بغداد يتحدد . ولابد أن أبلغها الخبر . وسأبلغها إياه فى أسلوب من الكذب . والكذب الأبيض الذى ينفع ربما كان خيرا من الصدق الأسود الذى يضر . قلت لها ذات يوم ونحن نتقى بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة عاصفة التراب التى تثور على العراق من حين إلى حين فترد نهاره ليلا وسماءه أرضا وصفاءه كدورة : إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب ، وسأقضيها فى القاهرة بين أهلى ، وسأعود إن يشأ الله مع الخريف

وجمت أول الأمر للخبر المنتظر ثم تماسكت نفسها وقالت فى لهجة المستسلم وهيئة المحزون : لقد شفيتنى من داء بداء . وسأفتقدك فى أشهر العطلة الثلاثة . وأخشى أن يهاجمنى الهم وأنا وحدى فأنتكس . وأرى أن أقترح على أبوىّ أن أصحبك إلى دمشق فأقضى الصيف مع عمتى ، حتى اذا حانت عودتك إلى بغداد مررت بى فأعود معك

* * *

وفى صباح الغد خرجت فاشتريت لى ديوان الشرقيات للامرتين ، وألبوما فاخرا ضمّنته على بعض صورها فى أسنان وأوضاع مختلفة ، ثم خاتما ذهبيا من صنع

(الصُّبة) نقش عليه اسمى بالميناء ولايزال بعد تسع وعشرين سنة فى إصبعى .
واتخذنا الأهبة للسفر ، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات شركة (نيرن) فى ليلة من ليالى الصحراء تطلّق دجاها بالنجوم الزهر حتى باتت كيوم الدجن .

وكانت نورا قد قضت الهزيع الأول من الليل فى الحديث عن وجوه السماء وأساطير النجوم وحياة الأعراب وقصص الحب حتى قرسها البرد فاستدفأت ببطانيتها ومالت على كتفى ونامت .

وفى تباشير الصباح المشرق المطلول بلغنا فندق العمة صوفى ، فتركت نورا تستنشى نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الأمل ، وواصلت السفر إلى بيروت .

ومن الفضول الذى لايزيد فى علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليقة كما عرفت غشية الموت ، وذاقته كما ذاقت حرقة الحريق . والذى يهمك أن تعرفه أنى لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل فى السيارة والباخرة والقطار حتى زرت نبيلا فى داره بالمعادى — وكنت قد عرفت عنوانه منها — فقدمت نفسى إليه ، وقصصت خبرها عليه ، فروى لى من عفة نفسها ورقة قلبها وحسن حديثها أكثر مما رويت ، وشكا إلى من لوعة البين عنها وحرقة اليأس منها وحرارة الشوق إليها أكثر مما شكوت . واجتمع هواى وهواه فاتحدا فى صداقة وثيقة ومودة خالصة . وعشناها ولانزال نعيش فى ذكرى هذه النفس الطيبة التى ظهرت فى حياته وحياتى ظهور الأمل الباسم فى قطوب اليأس ، والروح المؤنسة فى وحشة الغربة ، ثم غابت فى الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السماوية فى حجاب الغيب ، ثم لايبقى منها فى القلب إلا جلالتها ، ولا فى العين إلا سناها .

كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية

إن المعنى الذى يبدر إلى الذهن من لفظ الأزهر أنه جامعة إسلامية تدرّس فيها علوم الدين واللغة ، ولكن للمؤمن المتأمل الواعى إذا ذكره أو دخله وكان مهيأ بطبعه للاتصال الروحى بماضيه للشرق وتاريخه الحافل انثالت على خاطره منه دلالات وذكريات وطيوف تملأ النفس خشوعا وجلالا وروعة . فالأزهر كلمة من الكلم النوابغ الجوامع ، فى لفظها استيعاب ووعى ، ولمعناها إشعاع ووحى . فهى زمان ومكان ودين ودنيا وتاريخ .

يعنى الأزهر فيما يعنى المنار الذى ارتفع فى طريق الدعوة العظمى ثم ثبت بنيانه على رجف الزلازل وانتشر ضوءه على عصف الرياح ، وقاد الشعوب الإسلامية فى ظلمات الخطوب والحروب إلى ملتقى السلامة والكرامة والوحدة .

ويعنى الأزهر فيما يعنى المعقل الذى حفظ الثقافة العربية ألف سنة ونيفاً ، يسهر عليها ويزيد فيها وينفق منها على طلاب المعرفة فى الشرق والغرب ، على حين دمر الجهل وتسكفر حصونها فى بغداد والأندلس .

ويعنى الأزهر فيما يعنى الحصن الذى اعتصمت به اللغة العربية من عدوان الشعوبية والعامية والتركية حين استعجم اللسان واستترك السلطان وفشت الجهالة وضعفت الخلافة وعز الناصر وذل الأهل .

ويعنى الأزهر فيما يعنى القبلة الثانية التى يوجه المسلمون فى جميع أقطار الأرض قلوبهم إليها يتلمسون على هداها الطريق إلى الحق والسبيل إلى الله .

ويعنى الأزهر فيما يعنى الملاذ للشعب المظلوم كلما عسفه الطغيان وبغى عليه الحكم فيأوى منه إلى ركن شديد وحام قادر .

ويعنى الأزهر فيما يعنى الجامعة العالمية التى يؤمها الطلاب من كل أرض ومن كل جنس ومن كل لون ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لا يبغون من وراء ذلك مالا ولا جاها ولا شهرة .

ويعنى الأزهر فيما يعنى الخانقاة التى آوت العباد والزهاد والوعاظ وحفظة القرآن وحملة البركة .

ويعنى الأزهر فيما يعنى القاعدة الروحية التى كان يخشاها المستعمرون فحاولوا سراً وعلنا أن يدمروها ليتقوها ، فلما استيأسوا من تدميرها أو إضعاف تأثيرها سالموها ونافقوها ، ثم جهدوا أن يستغلوها .

ويعنى الأزهر فيما يعنى الصرح الوطنى الذى أجج الثورات على الفساد ، وخرج القيادات للجهاد ! وقام من نهضة العرب الحديثة مقام الرأس واليد ، يمدها بالروح ويرفدها بالقوة . ثار على الغزو الفرنسى بقيادة ستة من علمائه . وثار على الطغيان التركى بقيادة شيخه عبد الله الشرقاوى . وثار على الظلم الخديوى بقيادة ابنه أحمد عرابى . وثار على الاحتلال البريطانى بقيادة ابنه سعد زغلول .

كل أولئك يعنيه لفظ الأزهر ، وأكثر من أولئك يلازم معنى الأزهر ، ولكنى بسبيل الحديث عن نصيب اللغة العربية من فضل الأزهر فلا أخوض فى حديث غيره .

* * *

إن فضل الأزهر على اللغة العربية مستمد من فضل القرآن الكريم عليها ؛ وبعض فضله أنه كسبها عذوبة فى اللفظ ورقة فى التركيب ودقة فى الأداء وقوة فى المنطق وثروة فى المعانى . وكان سبباً فى استحداث العلوم الشرعية والأدبية التى حفظت مادتها بالقواعد وفى المعجمات ، ووسعت دائرتها بالألفاظ والمصطلحات ، كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه ، والمعانى والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه ، وعلمى اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والحديث

والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذى وحدها على كل لسان ، ونشرها معه فى كل مكان ، وحفظها أربعة عشر قرنا إلا قليلا لا تفسد ولا تجمد ولا تتغير مصداقا لقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته . والناظر فى تاريخ الأديان السماوية والأرضية لا يجد دينا حملته لغته التى أنزل بها أو كتب فيها إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب فى مدى ١٣٨٢ سنة ثم بقيت محافظة على قوتها وجدتها ووحدتها وطبيعتها إلا دين الإسلام ولغة العرب ، أما سائر الأديان فلا تقرأ كتبها الأصلية إلا فى لغة البلد الذى ظهرت فيه ، فإذا انتقلت إلى بلد آخر عن طريق الدعوة قرئت مترجمة إلى لغته ، واختص بمعرفة الأصل طائفة قليلة من رجال ذلك الدين ، فمدونة الأسفار البوذية المسماة بالسلات الثلاث لا يقرأها أتباع هذه الملة فى الصين واليابان إلا منقولة إلى الصينية واليابانية . والتوراة والإنجيل — وهما كتابان منزلان — لا يقرآن فى العالم المسيحى إلا فى لغة كل قطر من أقطاره . لذلك ظل تأثيرهما فى الآداب الأخرى ضئيلا حتى ترجمتا إلى اللاتينية والتوتونية القديمة فظهر أثرهما قويا فى الآداب الأوربية .

وليس كذلك الحال فى القرآن ، فإن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغته جزء من حقيقة الإسلام ، لأنها كانت ترجمانا لوحى الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولسانا لدعوته ، ثم هذبها النبى الكريم بحديثه ونشرها بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده . فالقرآن لا يسمى قرآنا إلا فيها ، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها ، لذلك سارعوا إلى تعلمها والتكلم بها والتأليف فيها والتعصب لها والدفاع عنها والدعوة إليها حتى حلت محل الفارسية فى العراق والرومية فى الشام والقبطية فى مصر والبربرية فى المغرب ، وأصبحت فى عصر بنى العباس وهو عصرها الذهبى لغة الدين والأدب والعلم والسياسة والإدارة والحضارة فى أكثر الدنيا

القديمة ، وأصبح المسلم على اختلاف جنسه ينتقل من قطر إلى قطر في عالمه الإسلامي كما ينتقل من بلد إلى بلد في وطنه الأصلي ، لا يجد مشقة في التفاهم ، ولا صعوبة في التعامل ، ولا شدة في المعيشة . ثم شُغل المسلمون عربهم وعجمهم بالقرآن وفرغوا له ، فكان دعاءهم في المسجد ، ونظامهم في البيت ، ومنهاجهم في العمل ، ودستورهم في الحكومة ، فسرى هديه منهم مسرى الروح ، وجرى وحيه فيهم مجرى الطبع ، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم تأثيراً لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله . ومن هنا كانت ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسيين هما الدين بعلومه المختلفة واللغة بفنونها المعروفة . وهذان الركنان يشد أحدهما الآخر ويمسكه ، فالإسلام بغير العربية ينبهم ويضمحل ، والعربية من غير الإسلام تنكمش وتزول . واللغات السامية مدينة ببقائها للدين ، فلولا اليهودية ما بقيت العبرية ، ولولا المسيحية ما بقيت السريانية ، ولولا الإسلامية ما بقيت العربية . ولكن الفرق بين بقاء العربية وبقاء العبرية والسريانية هو الفرق بين الروح والذماء ، أو بين العين والأثر : والأزهر وهو وارث النبوة وحامي العقيدة وناشر الدعوة لا يمكن أن تقوم رسالته إلا على هذين الركنين . وقد أداها بتأييد الله وتوفيقه تأدية أحلته من العالم الإسلامي كله محل الزعامة .

على أن فضله على علوم القرآن وعلوم اللسان قد يشاركه فيه بالكثير أو بالقليل طائفة من المدارس والجوامع أنشأها السلاطين في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والنجف وقرطبة والقيروان والزيتونة ، كالناصرية والقمحية والصلاحية والمؤيدية والمنصورية والشيخونية والظاهرية والكاملية والنظامية ، ولكن هذه المدارس التي عفى على أكثرها الزمن لم تستطع في حياتها منفردة أو مجتمعة أن تطاول الأزهر فضله الخالد على اللغة العربية في بقائها لسانا للعلم ورباطا للمسلمين إلى اليوم .

* * *

تحيفت الخطوب السود لغة القرآن فى محنتين أشفت فيهما على الموت لولا أن تداركها الله بفضله : محنة الغزو المغولى فى منتصف القرن السابع حين انتكث فتل العباسيين فى العراق بتنافس الفرس والترك ، وتحارب الشيعة والسنة ، وذهاب جلال الخلافة من النفوس ، فقوض هولاكو عرشها سنة ٦٥٦ هـ . وتضعضع أمر الأمويين فى الأندلس بتغلب البربر والموالى على ملكهم وتقسيمه بينهم إلى دويلات سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة ٨٩٨ هـ . ودالت دولة الفاطميين فى مصر والشام فوقعتا فى أيدى الأيوبيين ، ثم صارتا إلى المماليك وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا فى حكم الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ ، فأتى على العرب ستون وخمسمائة عام لم يكن لهم فيها سلطان ولا ملك ، فأصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل . وكان أكثر هؤلاء الأعجام وحشيين أميين نخربوا الدور وهتكوا الخدور وفجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب وتعطيل المدارس وتقويض المراصد وتقتيل العلماء . ناهيكم بما فعله التتار فى بخارى وبغداد ، والصليبيون بالشام ، والفرنج بالأندلس . فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك خارقا لطبيعة الأشياء ولا بدعا فى منطق التاريخ . ولكنها بقيت على الرغم من هذه الخطوب لسانا للدين والعلم ، ولغة للحكومة والأمة ، فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة . ولولا نعرة الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة .

والفضل فى بقائها بعد إدبار الزمان والسلطان عن أبنائها ، إنما كان لهذا الأزهر الجليل الذى اختصه الله بمزايا تميز بها على غيره : منها صبغته العربية الخالصة بحكم نشأته وبيئته ، وموقعه الوسط بين الشرقين الأدنى والأوسط فكان ملتقى المسلمين من هنا ومن هنك . ومنها قربه من الحجاز فكان طريق الحجاج والرحالين من علماء أفريقية والأندلس . ومنها تخريجه طائفة كبيرة من أعلام

الفقه وأعيان الأدب جمعوا شتات اللغة والعلوم والآداب فى أسفار أشبه بدوائر المعارف . ومنها مكانته التى بلغت من قلوب المسلمين والحاكمين مبلغ القداسة وكان لها أثر بالغ فى حل بعض المشكلات السياسية والاجتماعية . ومنها كفايته الأساتذة والطلاب مؤونة العيش بأن كفل لهم الغذاء والكساء والمأوى والكتاب . ومنها إيواؤه الناجين بحياتهم ودينهم وعلمهم وأدبهم وكتبهم من غارة المغول حين اكتسحوا خراسان وإيران والعراق ، فكان لمهاجرة هؤلاء العلماء من الشرق والغرب إلى القاهرة من البحث والابتكار ، ما كان لمهاجرة علماء المسيحية من القسطنطينية إلى روما من البعث والازدهار . ومنها مناصرة الأيوبيين له بالمال والتعضيد ، لأنهم وإن كانوا أكرادا قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ من بينهم الشاعر والعالم والمؤرخ ، كالملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء ، والملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وكان هذا الملك ضعيف الرأى كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان على ملك الشام ومصر ، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسى كتابا يشكو إليه فيه ذلك بدأه ببيتين من الشعر أجاد فى نظمهما كل الإجادة وهما :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذا بالسيف حق على

فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقى من الأواخر مالاقى من الأول

يريد بأبى بكر عمه ، وبعثمان أخاه ، وبعلى نفسه . فأجابه الخليفة الناصر بقوله :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليا حقه إذ لم يكن بعد النبى له بيثرب ناصر

فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

والجزالة ظاهرة فى شعر الملك الكردى ظهور الركاكة فى شعر الخليفة العربى!

كذلك أقول فى المماليك فقد أيدوه وأمدوه ، لأنهم اتخذوا مصر وطناء والإسلام دينا ، والعربية لغة ، وكان من بينهم شعراء عالجوا القريض وأجادوه كالسلطان الغورى . هؤلاء المماليك قد عضدوا العلماء وقربوا الأدباء ، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين ، حتى خرّج الأزهر فى ظلهم أولئك الأئمة الذين استودع الله صدورهم ذخائر العلم والحكمة فأودعوها الكتب وأخرجوها للناس : كجمال الدين بن منظور ، وجمال الدين بن هشام ، وشمس الدين النويرى ، وابن فضل الله العمرى ، وشمس الدين الذهبي ، والحافظ بن حجر العسقلانى ، وأبى العباس القلقشندى ، وتقى الدين المقريزى ، وبدر الدين العينى ، وسراج الدين البقلينى ، وبدر الدين الدماميني ، وشمس الدين السخاوى ، وكمال الدين الدميرى ، وجلال الدين السيوطى ، وتقى الدين القشيرى المعروف بابن دقيق العيد .

لهذه المزايا انتهت إلى الأزهر فى القرون الثلاثة السابع والثامن والتاسع زعامة الثقافة فى جميع البلاد العربية والإسلامية ، فحفظ وجود اللغة ، ورفع سقوط الأدب ، وجمع شمل العلم ، ولولاه لانقطع ما بين الأدبين القديم والحديث .

* * *

أما المحنة الأخرى التى امتحنت بها العربية وكان للأزهر الفضل فى وقايتها وسلامتها فهى محنة الغزو التركى فى أوائل القرن العاشر حين استولى السلطان سليم على مصر والشام سنة ٩٢٣ هـ فأصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية ، وعاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ، واللغة الرسمية التركية لا العربية . ومكث الغازى سليم فى مصر بعد الغزو ثمانية أشهر سلبها فيها أنفس أعلاقها من الكتب والتحف والآثار لنوابغ الفنانين والمؤلفين الذين تخرجوا فى الأزهر وأنتجوا فى مصر مدى القرون الثلاثة التى سبقت الغزو العثمانى . وأخذ الغزاة يغلبون لغتهم على اللغة العربية فى الدواوين ، ويطاردونها فى المدارس ، حتى كانوا يعلمون قواعد اللغة العربية بالتركية فى الشام والعراق ؟ ففشا فى اللغة العامى

والتخيل وذهبت أساليبها من النظم والنثر ، وخيم الظلم والظلام على النفوس فخمدت القرائح ، وضعفت رغبة الحكام فى العلم وانقطعت أسباب الطلب له ، واستطاع الترك أن يتركوا كل شىء فى مصر من سياسة وإدارة وتعليم وجيش إلا الأزهر ، فقد راعهم ما أحسوا من جلاله وما سمعوا عن مجده ، فوقفوا على أبوابه خاشعين يلتمسون منه العون على ماينجم من الأحداث ، والرأى فيما يشكل من الأمور .

والسلطان سليم نفسه قد زاره مراراً فصلى فيه وتبرك به . ومن قبل ذلك قد غزا الأزهر بلاد الأتراك بعلمه وأدبه وكتبه فعرب طائفة منهم تعلموا العربية وتكلموا بها وألفوا فيها كالفيروزابادى وابى السعود والفنارى وملا خسرو والجامى والخيالى وخوجه زاده وملا مسكين وملالطفى وحاجى خليفة وطاشكيرى زاده وابن كمال باشا . وكان سلاطين العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها ، ومنهم من قرض الشعر العربى ورواه كالسلطان أحمد الأول فقد رووا له قصيدة غزلية مطلعها .

ظبى يصول ولا وصول إليه   جرح الفؤاد بصارمى لحظيه

ولم تضعف عناية علماء الترك بالعربية إلا فى عهد السلطان محمود الثانى وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحييا اللغة التركية وقربا مواردها وبسطا قواعدها وسمياها اللغة العثمانية . فأنتم ترون أن اللغة العربية قد أتى عليها ستة قرون قضتها بين الاحتضار والموت ، ثلاثة منها فى العصر المغولى ، وثلاثة أخرى فى العصر العثمانى ، امحت فيها من الهند وخراسان والعراق وبلادالروم والأندلس، وبقيت فى الأقطار العربية بقاء المريض أشرف على الموت ولم يبق منه إلا رمق. ذلك الرمق هو الذى كفله الأزهر وتعهده فغذاه وقواه ورعاه ، حتى إذا انجاب

عن مصر قتام الحكم العثمانى وأراد الله لشمس الحضارة أن تشرق على وادى النيل زايل اللغة الوهن وسرت فيها الحياة . فنى الأزهر وغيابها ، وفى الأزهر كان بقاؤها وانبعاثها .

كان الأزهر بعد انتهاء تلك الغمرة باحتلال نابليون ، وابتداء هذه النهضة باستقلال محمد على ، قائد الشعب فى الكفاح ، ورائد الحكومة فى الإصلاح . تمثلت قيادته فى شيوخه الأجلاء خليل البكرى ، وعبد الله الشرقاوى ، ومحمد المهدى ، وسليمان الفيومى ، وحسن العطار . وتجلت ريادته فى طلابه النجباء الذين أرسلوا إلى أوربا ليستفيدوا ويستزيدوا ، كابراهيم النبراوى : وأحمد حسن الرشيدى ، ومحمد على البقلى ، ورفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك . وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة العربية ، ساعدها على النهوض ، كما حماها من قبل دون السقوط .

* * *

هاتان هما المحنتان اللتان عانتهما العربية فى عهدين متواليين ، ثم جعل الله نجاتها منهما بفضل الأزهر حفظا لكتابه وصونا لدينه .

وهناك محنة ثالثة تجتازها اللغة اليوم وتوشك أن تبلبل اللسان وتعطل القرآن وتقطع الدين عن أصله ، وتفصل العربى عن أهله ، وتهبط بالأدب من جبل الوحى حيث الترفع والسمو والنبل ، إلى حضيض المادية حيث التسفل والتبذل والفحش .

تلك هى محنة الإباحية اللغوية التى تُغَلِّب العامية على الفصحى ، وتؤثر أدب العامة على أدب الخاصة ، وتفضل الموضوع المثير على الموضوع المنير ، وتريد أن يكتب الكاتب وينظم الشاعر كما يشاء ، لا يتقيد بقاعدة من نحو ولا قياس

من صرف ولا نظام من بلاغة ولا وزن من عروض ولا مثال من خلق . ولهذه المحنة أو المشكلة أصلان : الاستعمار والجهل . أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم هى الدين واللغة . وما دامت أمة محمد روحا واحداً بالإسلام ، ولسانا واحداً بالعربية ، فإن استغلالها موقوت وإن طال ، وإن استقلالها آت وإن تأخر ، لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب فى الجزائر لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف ، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين . ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا ، ولغة المصحف كانت أمضى من لغة السيف . واكتفت انجلترا على عادتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها ومستشرقيها ، لأن اللغات العامية تختلف فى البلاد العربية اختلافاً شديداً يكاد يجعل من كل لهجة منها لغة مستقلة . وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهى الفصحى استحال التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يلتقمها لقمة لقمة فلا يغص ولايشجى . ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار فى الشرق ، وقوة الوعى فى العرب . وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمحنة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار فى هذه الدعوة المجرمة ، والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها ، وعزوفهم عن علومها وأدبها ، وهو جناية المدرسة المدنية الحديثة ، فقد فشلت بعد طول الزمن وكثرة التجارب فى تخريج القارىء الذى يقرأ بفهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة ، وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأبا ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكره تعبيراً صحيحاً لا بلسانه ولا بقلمه . فإذا دفعه استعداده الأدبى إلى الكتابة آثر العامية على الفصحى ، ودعا إلى التحلل من القواعد والقيود

ليجعل الفوضى نظاماً والخطأ مذهبا والعجز شركة . كانت علوم العربية تدرس في الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي وفيما يجرى على منهجه من معاهد لبنان وسورية والعراق والمغرب دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم مايقرأ وفقه ما يعلم وتعليل ما ينقد وتحليل مايذوق . فإذا اتصل العلم بالعمل واقترن الحكم بالتطبيق وصادف ذلك استعدادا في المتعلم ظهر الكاتب الذي يكتب فيجيد ، والشاعر الذي ينظم فيبدع ، والناقد الذي يحكم فيصيب ، أما إذا فتر الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذي يهيء الوسائل ويقرب المناهل ويوجه المواهب ويسدد الخطى . ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر وتنمو لتنتشر وتسمو لتخلد، وكان من خريجي هذا المنهج القديم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة وجددوا شباب الأدب وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة . ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة في أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع دون آخر ، فإذا خلا المجتمع منهم بعد أجل طويل أو قصير فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب ؟

الجواب عن هذا السؤال عند الأزهر وحده ، فهو بحكم طبيعته وعلة وجوده معتصم اللغة ومنجاها في الماضي والمستقبل ، أما المعاهد الأخرى فكل شيء فيها يبعث على التشاؤم : منهج تطبيقي يكاد يخلو من القواعد ، وتعليم سطحي مقتضب لا هدف له إلا اجتياز الامتحان العام بأية وسيلة ، فالمطولات تختصر ، والمختصرات تختزل ، فلا يبقى بعد ذلك في ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هي مستقرة ولا هي واضحة . ذلكم إلى زهادة في الجدى النافع من ثقافة اللسان والقلم تقعد النشء عن تعمق الأصول وتقصى الفروع ، وتقنعهم بالقدر الذي ينقلهم من سنة إلى سنة أو من شهادة إلى شهادة . فإذا ماتخرج الناشيء

بهذا الحظ المنكود من اللغة وكان فى نفسه ميل إلى الأدب ، وفى طبعه استعداد للكتابة ، انصرف عن كنوز الأدب العربى ، لأن مفاتيحها ليست عنده ، وأقبل على روائع الأدب الغربى يحاكيها ويستوحيها، حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئا يفيد الناس وجد فى نفسه الملكة التى تخلق وفى حسه الصورة التى تمتع ، ولكنه لا يجد فى لسانه اللغة التى تعبر ، ولا فى قلمه الأسلوب الذى يؤثر ، فيضيق ويسخط ويثور ، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لاتساغ ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل ، ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء .

تلك حال المتخرج الأديب بطبعه ، أما المتخرج العادى فإنه يعود أميا كما بدأ ، لا يقرأ إذا قرأ إلا السهل ، ولا يطلب هذا السهل إلا فى قصة عامية تخدر الشعور ، أو فى مجلة فكاهية تنبه الشهوة، حتى نشأ من إفراط القراء فى هذا الطلب ، إفراط الكتاب الخفاف فى عرض الأدب اللذيذ الذى لاينفع ، أو الأدب الماجن الذى لا يرفع . ذلكم إلى طغيان الأدب الأوربى بمذاهبه ونزعاته وترهاته على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ففتنتهم عن أدبهم وصرفتهم عن تاريخهم . فالمتفرنسون منهم يعرفون هوجو ولا يعرفون المتنبى ، ويدرسون فولتير ولا يدرسون الجاحظ ، ويقرءون لامرتين ولا يقرءون البديع . ومن هنا نشأت هذه التبعية التى فرضها الشباب على أدبنا لأدب الغرب ، فأساليبهم الكتابية اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهبهم الأدبية هى مذاهب الأ ب فى الغرب ، ومقاييسهم النقدية هى مقاييس النقد فى الغرب ، حتى الرمزية وهى بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ، وحتى الوجودية وهى بنت الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التى كرمت الإنسان

وفصلته من سائر الحيوان محدود من الدين والخلق لا يتعد ولا يتحداها وهو مؤمن .

ليس الأمر في الأدب كالأمر في العلم . الأدب للنفس والعلم ... الأدب مواطن والعلم لاوطن له . الأدب روح في الجسد ودم في العروق يكوّن شخصية الفرد فيحيا مستقلا بنفسه ، ويبرز شخصية الشعب فيحيا متميزا بأفراده . الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد . والعلم شيء غير أولئك كله ، فإذا جاز طبعا أن نأخذ من غيرنا مايكمل نقصنا من العلم ، فلا يجوز قطعا أن نأخذ من هذا الغير ما يمثل أنفسنا من الأدب .

إن دراسة العربية على النهج الصحيح المنتج بعد المدرسة لا يكلف المتأدبين من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الأنجليزية : ولكنهم في عصر السرعة يطلبون القريب ويتوخون السهل ويتخطفون العلم ويتعجلون الإنتاج ، ثم يحقدون على من يلزمونهم التأني ويجشمونهم الدرس ويقولون لهم إن أحداً لا يعرف في تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد في لغته كاتبا أو شاعراً أو قصاصا أو مؤلفا ، وهو لايعرف من قواعدها الأساسية مايقيم لسانه وقلمه . وإذا كان الناس يقرءون الصحيفة أو الكتاب ولا يقعون فيها على الخطأ الذي يفضح المستور ويكشف الغش ، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين من الأزهريين الذين يرابطون ليل نهار في دور الصحافة والنشر ويسمونهم المصححين ؛ فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم ، وعلى المعجم فيعرب ، وعلى الركيك فيقوى .

لا بأس أن ييسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب : ولكن البأس كله في المدى الذي بلغه هذا التيسير . لا بأس أن نخفف على غير المتخصصين من عبء التقديرات والتعليلات التي فلسف بها النحاة النحو ، ومن حفظ وجوه

الإعراب التى بقيت فى اللغة أثراً لاختلاف اللهجات فى الجاهلية فهوشت القواعد، وجعلت كل خطأ صوابا وكل صواب خطأ ، ولكن البأس كله فى أن تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح .

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان ، وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان ، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب . فإذا استطاع يوما أن يجيز امتحانا أو ينيل شهادة فلن يستطيع أبدا أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر بشيوخه وكتبه ، كمحمد عبده ، وسعد زغلول ، والمنفلوطى ، والبشرى ، وطه حسين ، ولا أمثال من خرجتهم دار العلوم كشاويش ، والمهدى ، والخضرى ، والسكندرى ، والجارم ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء الشرعى . كأحمد أمين وعزام والخولى ، ولا أمثال من خرجتهم دار المعلمين العليا ، كالمازنى وشكرى وأبو حديد . ولا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد ، والرافعى ، وشوقى ، وحافظ فى مصر . وكالبستانيين واليازجيين والشدياق ومطران والخورى فى لبنان . وكالمغربى ، والشهابى ، وجبرى ، والأفغانى ، فى سورية . وكالرصافى ، والزهاوى وكاشف الغطاء ، والشبيبى ، والأثرى ، فى العراق ، وكالنشاشيبى والسكاكينى والحسينى فى فلسطين .

إنى أدعو إلى التوفيق بين الفصحى والعامية . ومذهبى فى مجمع اللغة العربية إمداد الفصحى بما تزخر به العامية من ألفاظ الحضارة وتراكيبها التى دخلت الحياة العامة حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهى بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة والتعليم إلى لغة واحدة عامة، فيها من الفصحى السلامة والجزالة والبلاغة والسمو ، وفيها من العامية الدقة والطبيعية والحيوية والتجدد والوضوح . أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لاتقوم على قواعد ، ولا تجرى على أنظمة ، ولا تشعرنا بجمال ، ولا تحفزنا لكمال ، ولا تربطنا بماض ، ولا تصلنا

بمستقبل ، ولا تجمعنا فى وحدة ، فذلك مذهب لا يقول به رجل وهو جاد ، ودعوة لا يستجيب لها إنسان وهو عاقل .

فإذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية ، لأن أساليبها غالبة على السمع ، وقواعدها جارية مع الطبع ، فلا يحتاج تحصيلها إلى كتاب ومعلم ومدرسة ، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع . وتغلب الأساليب العامية معناه كما قلت فصل الأدب عن الدين وقطع الحاضر عن الماضى وتوهين الصلات بين العرب . وفى يقينى أن أمر العربية لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله : فقه أسرارها كل الفقه ، وفهم قواعدها أدق الفهم ، وحفظ أدبها أشد الحفظ ، وذلك يستلزم الجهد والجد فى إعداد المعلم ، والعلم والخبرة فى وضع المنهج ، والمنطق والذوق فى تأليف الكتاب ، والكتاب الأزهرى الذى تخرجنا عليه وما زلنا نرجع إليه كنز من المعارف لا يعوزه إلا سهولة مأخذه وحسن تنسيقه وجمال عرضه ، فالفرق بينه وبين الكتاب الحديث فى العرض كالفرق بين حانوت من حوانيت العطارة فى النورية ، وبيت من بيوت التجارة فى قصر النيل . قد يكون فى الحانوت القديم ما ليس فى المتجر الحديث من السلع التواجر والطرف النوادر ؛ ولكن اختفاءها فى ركن غير ظاهر ، وعرضها فى معرض غير لائق ، يضعف الإقبال عليها ويقلل الاستفادة منها . فإذا عرضت الكنوز الأزهرية عرضا جميلا مشوقا فى الدروس والمحاضرات والمذكرات والكتب كان ذلك عسيا أن يدنى قطوفها من الطلاب على غير مؤونة ولا كد ذهن .

* * *

إن رسالة الأزهر قائمة كما قلت على ركنين من دين ولغة ، ولكن الأمر فى تأديته إياها جد مختلف . الدين كامل لأنه من عمل الله ، واللغة ناقصة

لأنها من عمل الإنسان ، والكامل الإلهى لايتأثر بالمكان ولا يتغير بالزمان ولا يضيق بالحضارة ولا يبرم بالعلم ، فهو جديد أبدا ، صالح أبدا ، ثابت أبدا . أما الناقص فهو عرضة للفساد والجمود والتخلف ، وموضع للزيادة والتجديد والتطور ؛ لذلك كان الاجتهاد فى اللغة وعلومها أمرا تحتمه الضرورة وتقتضيه الطبيعة ؛ لأن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين ، ولا أن تستقل استقلال الحى ، فهى ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والأغراض لاتنتهى ، والمعانى لاتنفد ، والناس لايستطيعون أن يظلوا خرسا ، وهم يرون الأغراض تتجدد والمعانى تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل حين بمصطلح ، ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء .

نشأ من إنكار حق الوضع اللغوى على المولدين وحصره فيمن يعتد بعربيتهم من عرب الأمصار حتى آخر المائة الثانية ، أو أعراب البوادى حتى آخر المائة الرابعة ، أن طغت اللغة العامية طغيانا جارفا حصر اللغة الفصحى فى طبقات العلماء والأدباء والشعراء والكتاب ، يكتبون بها للملوك ، ويؤلفون فيها للخاصة ، وسيطرت على حياة الأمة فى شئونها العامة وأغراضها المختلفة ؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد ، وطبيعية تنفر من الصنعة ، فهى تقبل من كل إنسان ، وتستمد من كل لغة ، وتصوغ على كل قياس . والناس فى سبيل التفاهم يؤثرون السهل ، ويستعملون الشائع ، ويتناولون القريب . وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملاءمة الحياة معناه الجمود . والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها ، بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها . وقد تنبه مجمع اللغة العربية لهذا الخطر فقرر فيما قرر استجابة لاقتراح عرضته ، فتح باب الوضع اللغوى للمحدثين بوسائله المعروفة من الاشتقاق والتجوز والارتجال ، وإطلاق القياس

ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس . وتحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالبنائين والنجارين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات ، واعتماد الألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ القديمة ، وعلى هذه المبادىء وغيرها وضع معجمه الوسيط .

أما الاجتهاد فى الدين فقد فتحت أبوابه أول الأمر لمن تجهز بجهازه واعتد له بعدته ، حتى إذا زخر الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبه ومدى عصوره بالآراء المحكمة والوجوه المحيطة ، وجد فيه المسلمون جوابا شافيا عن كل سؤال يخطر على الذهن ، وحلا حاسما لكل إشكال يعرض فى المجتمع ، وحكما عادلا فى كل قضية ترفع إلى القضاء ، فاستغنوا بغزارته وإحاطته عن الاجتهاد فيه ، وانصرفوا إلى اجتهاد من نوع آخر هو الاجتهاد فى اختيار الرأى المناسب وترجيح الحكم الموفق . جاء فى كتاب الولاة والقضاة للكندى أن قاضيا شافعى المذهب كان بمصر فى عصر الإمام الطحاوى وكان يتخير لأحكامه ما يرى أنه يحقق العدل من آراء الأئمة ولا يتقيد بمذهب من المذاهب ، وكان مرضى الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه فى دينه ولا فى خلقه ولا فى حكمه . سأل هذا القاضى الإمام الطحاوى عن رأيه فى واقعة من الوقائع ، فقال الطحاوى : أتسألنى عن رأيى أو عن رأى أبى حنيفة ؟ قال القاضى : ولم هذا السؤال ؟ قال الطحاوى ظننتك تحسبنى مقلدا . فقال القاضى : لايقلد إلا عصبى أو غبى .

هذه الثروة الفقهية الضخمة لم يحجبها عن الناس إلا أسلوب التأليف القديم . واليوم وقد تطورت المدنية وتغيرت العقلية ينبغى أن يطابق التعليم والكتاب مقتضيات العصر .

هذه هى المحنة الثالثة التى تعانيها اللغة العربية اليوم . وهى لاتختلف عن سابقتيها إلا فى أن موقف الأزهر منها يجب أن يكون إيجابيا : يقابل العمل بالعمل ، ويرد الكيد بالكيد ، ويقاوم الدعاية بالدعاية ، ويقف بالمرصاد لكل من يسول له جهله أو هواه أن يعبث بلغة

الإسلام ، ويوهن رابطة العرب . والأزهريون الذين حملوا أمانة الله ، وبلغوا رسالة نبيه أكثر من عشرة قرون يستطيعون أن يدرأوا خطر هذه الإباحية عن اللغة والدين متى صدقوا الجهاد وذكروا أنهم جند الله يرمى بهم العدو فى كل وقت وفى كل أرض وعلى أى صورة ، فيعيشون للموت كالجنود ، ويعملون للحياة كالقادة ، ويعزفون عن الدنيا كالرسل . والله سبحانه وتعالى قد ضمن للعربية بقاء البيان ببقاء القرآن . وعلى أيدى أبناء الأزهر المؤمنين برسالته سيصدق الله وعده ، وإن الله لهو خير الصادقين ؟

محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة المهرجان الذى أقامه لذكراه المجلس للأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية

(١)

ترى لو أن حافظا رحمة الله عليه تأخر به الزمن سبعين عاما فظهر فى أواسط هذا القرن لافى أواخر القرن الماضى ، أكان ذكره يرتفع هذا الارتفاع ، وذكراه يحتفل بها هذا الاحتفال ؟ أغلب الظن أن حافظا لو نشأ فى هذا الجيل لكان له أمر غير هذا الأمر وتاريخ غير هذا التاريخ . ذلك أن العبقرى ابن إقليمه وبيئته وزمنه وظروفه وأحواله ، فهى التى تعده وتكيفه وتوجهه وتتيح له الفرص لينجح ، وتهيء له الأسباب ليمتاز ، وتركز عليه الضوء ليظهر . وعلى حسب عواملها المختلفة الأثر فى النوابغ تكون طبيعة النبوغ ونوعه ودرجته . فالنابغ فى شيء معين فى زمن معين قد لاتتهيأ له وسائل النبوغ فيه إذا تغير الزمن أو اختلفت البيئة . فالمتنبى مثلا لو لم يظهر فى القرن الهجرى الرابع إذ كان الملوك شعراء والوزراء أدباء والشعب مرهف الحس لروائع الأدب لما ملأ الدنيا ولا شغل الناس . وابن عربى لو عاش فى غير عصره الذى كان يؤمن بالروح والالهام والولاية ، والفناء المطلق فى الله ، والتعبير الرمزى عن الحقيقة ، لعد فى المجانين لا فى العباقرة . ونابوليون لو انبعث من عصر الجواد والسيف إلى عصر الطائرة والدبابة لما أغنت عبقريته الحربية عن قومه شيئاً فى بور سعيد . وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لا اختلف عما كان عليه فى نمط حياته ونوع ثقافته ولون تفكيره وطبيعة عمله ومدى نبوغه . كان لايشتهر مثلا بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار لأن النزوع إلى هذا النوع من التأدب

كان مقتضى لحال اجتماعية زالت اليوم ، فلا مجالس السمر فى قصور الملوك ، ولا محافل للأدب فى دور السادة .

وكان لايقتصر فى ثقافته على علم الشاعر القديم ، لأن التكسب بالشعر أو بالمنادمة أصبح فى رأى هذا الجيل بطالة لاتغنى من جوع أو كدية لاتليق برجل . ولعله كان ينصرف عن الشعر إلى القانون أو الطب أو الحرب فلا يقوله إلا تزجية لفراغ أو تسلية لهم ، لأن مجتمع الجيل الجديد كان لجهله باللغة الفصحى وزهده فى الأدب الرفيع لايجد جمالا فى شعره ولا يلقى بالا إلى إنشاده . أما مجتمع الجيل القديم فقد كان إذا طلعت عليه المؤيد أو الأهرام حالية الصدر بدرة من درر شوقى أو بقلادة ، من قلائد حافظ أقبل عليها يقرؤها بشغف ويتذوقها بلذة وينقدها بعلم ؛ ثم تضطرب بها الألسنة وتتحدث عنها الأنديةفتفعل فى نفوسه ما تفعله اليوم فى نفوسنا غنية كأغنية : (يِمَّـه الأمر َع َالباب) والجيلان الماضى والحاضر يتصلان ويتداخلان ويتعايشان ، ولكنهما على الرغم من المدة القريبة والصلة الوثيقة يختلفان أشد الاختلاف فى أحوال الإجتماع وألوان الثقافة :

كان جيل حافظ لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة فى الجماعات والأسر . فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة العربية ، يرتاحون للندى ، ويتنافسون فى المعروف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر ، ومناظر الدور وأبهاء القصور تأخذ فى كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم . وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة والخبر الطريف والمسألة الدقيقة والبلاغة المأثورة يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة فتفتق الذهن وتصقل الذوق وتوجه الميل وتنيل الحظوة . وكانت المواهب والملكات تنفتح فى جوانب هذه

الأندية فتدل على نفسها أهل النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتثمر . وكانت النهضة الأدبيـة والحركة الفـكرية يومئذ فى طـور الانتعاش تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفى والبارودى والافغانى ومحمـد عبده وسلطان وحمزة والشنقيطى واليازجى والمويلحى ونديم وسعدوفتحى وقاسم ومصطفى . فالمجالس تُشيع حر الـكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة ، حتى قر فى نفس حافظ وأنداده أن الأدب كان سبيل الثراء لليثى ، وسبب المجد للبارودى، ووسيلة الزلفى لشوقى ، فتجهزوا لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة فرووا رقائق الشعر ، وجمعوا مقطعات الأحاديث ، وراضوا أنفسهم على معاناة القريض . وكان قادة الفـكر والبيان فى ذلك الجيل من شيوخ الأزهر ودار العلوم ومن تخرج على أيديهم فى مدرسة الحقوق ومدرسة القضاء ومدرسة المعلمين العليا ، وكانت ثقافتهم تقوم فى الأغلب على الدين واللغة والأدب فهم يتعمقون القواعد ويؤثرون الفصحى .

وكان قراؤهم فى المدن والقرى من طلاب الأزهر وحفاظ القرآن ، فهم يؤمنون بلغة الـكتاب ويطربون للأسلوب العربى الخالص . أما الجيل الحاضر فخلاصة القول فيه أنه جيل اللغة العامية والثقافة الأجنبية والتحـرر من قيود البلاغة فى النثر ، والخروج عن حدود العروض فى الشعر ، والاتجاه إلى أدب واقعى متطرف بكلم الشعب بلغته وبصوره فى مباذله ويفتنه عن حبه الغريزى لحسن العرض وجمال الأسلوب . فماذا كنتم تظنون أيها السادة أن يكون مصير حافظ لو أنه عاش فى هذا الجيل ومزيته الـكبرى هى الصياغة ، وطريقته المثلى هى البلاغة ؟

— ٢ —

ولد محمد حافظ فى السنة السبعين من القرن التاسع عشر بذهبية كانت راسية على ساحل ديروط بالصعيد الأعلى يقيم فيها أبوه المصرى الصميم إبراهيم فهمى مهندس الرى المشرف على القناطر ، وأمه التركية الأصل السيدة هانم البورصلية ، فكان أول ما فتح عليه عينيه من صور الدنيا نهرنا الخالد . فتلقيبه بعد ذلك بشاعر النيل تلقيب صادق يستمد صدقه من النفحات الشعورية الأولى فى هذه العوامة ، ثم من التجارب الشعرية التى استجابت لها قريحته فى القاهرة . وظل مهده القائم بين الماء والشجر محفوفا بمظاهر الحنان والنعيم أربع سنوات ثم فجعه الموت فى أبيه فانتقلت به أمه إلى القاهرة ونزلت فى حى المغربلين على أخيها محمد أفندى نيازى المهندس بمصلحة التنظيم وليس فى يدها مال موروث عن الزوج ولا فى أملها معاش مقرر من الحكومة . ومنذ يومئذ عرف الطفل الغرير معنى البؤس فاغبر لون الوجود فى عينه ، وتفه طعم العيش فى ذوقه ، وبانت علائم اليتم على ملبسه ومطلبه ومكتبه ، فكان فى مرحلة التعليم الأولى بالمدرسة الخيرية بالقلعة ، وفى مرحلة التعليم الابتدائى بمدرسة القربية بتحت الرَّبع ، وفى مرحلة التعليم الثانوى بالمدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، يكابد ذل الحرمان كلما وجد أكثر رفاقه يطلبون فيجدون ، ويشتهون فينالون ، وهو إذا اشتهى طلب من أمه التى لا تملك أو من خاله الذى لا يجود .

ثم تدخل القدر فى حياة حافظ ليحول مجراها إلى الوجه الذى قدره ، فحوله من القاهرة والمدرسة الخديوية والوظيفة الحكومية إلى طنطا والجامع الأحمدى والبطالة الأدبية . ولو أن خاله استمر فى القاهرة لنال حافظ شهادة

الدراسة الثانوية وابتغى بها العيش فى ضمان الحكومة وانتهى أمره إلى أن يصير عبدا الرسوم الديوانية والصيغ التقليدية لا أميرا الشعر ولا زعيا الكتابة . ولكنه انتقل إلى مثل وظيفته فى عاصمة الغربية فلم يجد حافظ فى طنطا مدرسة ثانوية ، ولم يجد فى مرتب خاله فضلا يعيش عليه فى القاهرة ليتمم دراسته فى الخديوية ، فانقطع عن الدراسة وأخلد إلى البطالة وأخذ يرود المجالس ويغشى الأندية حتى اتصلت بينه وبين شداة الأدب من طلاب المعهد الأحمدى أسباب المودة فأجروه على منهاجهم فى الدرس ، وأعدوه من ولوعهم بالأدب ، فاختلف معهم كل يوم إلى حلقات الجامع الأحمدى يشاركهم فى درس النحو والصرف ، ثم ينفرد عنهم بالنظر المتصل فى دواوين الشعراء يقرأ منها الجيد ويحفظ الأجود وينظم على مثال ما حفظ فى البحر والقافية والموضوع . فإذا لقى إخوانه بمجتمعهم فى المدينة أو بمتنزههم فى الضاحية ، أمتعهم بالمعجب المطرب من حفظه وأسمعهم الجديد المختار من نظمه . وكان من هؤلاء الإخوان المؤرخ الأديب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فوصف لقاءه الأول لحافظ بقوله : « عند ما عدت من القرشية إلى المعهد بطنطا فى شعبان من سنة ١٣٠٥ أو فى أبريل من سنة ١٨٨٨ رأيت إخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب جديد الشباب وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلى باسم الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم . ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما اشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ومطاوعة بديهة وحضور نادرة . وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معا ، ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحة الشعر ومذاكرة فى نوادر الأدب وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتى وقت السحور . ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى

انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل منا إلى بيته » .

وظل حافظ على تلك الحال سنة أو تزيد ، يقرأ ويحفظ ويحاكى لايبتغى بذلك بناء مستقبله ولا ضمان رزقه ، وإنما يبتغى به تلك اللذة المجردة التى يجدها عشاق الأدب فى مطلق الهيام به والفناء فيه . وهذه الحال الباهلة لازمت الشاعر طول عمره فلم يزاول عملا عن رغبة ، ولم يتحمل مسئولية عن إرادة . ونفوره من العمل كان أثرا لنفوره من الحياة . ونفوره من الحياة كان أثراً لعشه الذى تقوض وهو طفل ، ولعيشه الذى نبا وهو رجل . والمظنون أن خاله وهو ولى أمره ومسدد خطاه قد حاول أن يعالج فيه هذه الحال ليضمن لأخته الأمان فى كنف وحيدها لو أنه نجح فى صنعة أو وظيفة ، ولكن روح الاستهتار التى استمدها حافظ من أرواح الشعراء البوهيميين الذين اضطربوا فى حضارة العصر العباسى من غير نظام ولا قيد ولا غاية أصمت أذنيه عن النصح وشلت يديه عن العمل . وكان من الطبيعى أن يضيق به خاله ويزوى عنه وجهه . ورأى من خاله هذا الاعراض فتنازعته خوالج الهم من يتم وعدم وهوان نفس وسوء حال فكتب إلى نيازى أفندى هذين البيتين .

ثقلت عليك مؤونتى وأنا أراها واهيه

فافرح فانى ذاهب متوجه فى داهيه

والبيتان من ركيك الشعر ولكن فى قوله (متوجه فى داهية) أثرا من خفة ظله وعذوبة روحه . وكانت الداهية التى توجه فيها حافظ غرفة أحد إخوانه المجاورين فى الجامع الأحدى فأقام معه زمنا : وكان شعره الساذج فى هذه الفترة

يترجم عما يكابد فى صدره من لوعة الأسى وبغض الحياة . من ذلك ما رواه رفيقه الشيخ النجار وهو قوله :

عجبت لعمرى كيف مُدّ فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعدا وجل مرادى أن أوسّد حالا
فالموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

ثم ترضاه خاله فعاد إلى داره . وكان رجاء أمه فيه وزراية خاله عليه قد حركا فى نفسه الخامدة عزم الشباب وطموح الرجولة ، فعزم على أن يسعى للعيش المستقل الحر . ونظر فيما يملك لهذا السعى من وسائل فلم يجد خيرا من وسيلة البلاغة فاختار المحاماة . وكانت المحاماة يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل مادام طلق اللسان حاضر البديهة واسع الحيلة فدخلها من باب سعد والهلباوى وأبو شادى وحسن عبد القادر . وكان أول مكتب اختاره للتمرين مكتب الشيخ محمد الشيمى بطنطا فبدأ بداية حسنة ، ثم اختلف مع الأستاذ على الأجر بعد قليل فتركه بعد أن ترك له هذين البيتين :

جراب حظى قد أفرغته طمعا بباب أستاذنا الشيمى ولا عجباً
فنادلى وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال من الحسرات واحربا

ثم انتقل إلى مكتب المحامى النابه محمد أبو شادى فأجل قدره ورفع أجره ، ولكنه لم يلبث أن تحول عنه إلى مكتب عبد الكريم فهيم فعمل فيه مدة، ثم أدركه الملال وعضه القيد فهجر المحاماة وعاد يزجى وقته بالتثاؤب والتمطى ويقضى يومه فى التلهى بالشعر والتجنى على القدر ، وكانت المحاماة هى سبيله القصد إلى الثروة والشهرة لولا ما ركب فى طبعه من ضعف الاحتمال ولزوم القلق .

— ٣ —

وتحدثت الصحف والناس عن المدرسة الحربية فى نظامها الجديد فوقع فى نفس حافظ أن يدخلها ليخفف النفقة عن خاله ويضمن الرزق له ولأمه ، ثم تخرج فيها سنة ١٨٩١ وقضى فى الجيش ثلاث سنين و بعض السنة . ثم نقل إلى العمل فى البوليس ببنى سويف ، إذ كان المتبع قبل إنشاء مدرسة البوليس والإدارة أن يؤخذ من الحربية للداخلية ، ولم يلبث ملاحظ البوليس أن برم كعادته بالعمل وضاق ذرعا بالنظام فأخطأ ولج به الخطأ ، واستلام واشتد عليه اللوم . فلم يجد البوليس بدا من إعادته إلى الجيش بعد حادثة رواها هو عن نفسه قال :

« كنت نائما فى بيتى و إذا برسالة من شيخ البلد فى قرية من قرى الشرقية لعلها الإبراهيمية تقول : وقع حائط وزهقت أرواح . فانتقلت بغلس من الليل راكبا جوادى حتى وصلت إلى القرية ، وراعنى أن وجدت جدارا قد انقض حقا وقتلت تحته ثلاث دجاجات . قلت لشيخ البلد أين الأرواح التى زهقت ؟ فقال متلعثما : والله يا سيدى أنا تشاحنت مع نسايبى فحلفت بالطلاق لأحضر البوليس هنا . وأخذت ألتمس الوسيلة إلى ذلك حتى علمت أن حائطا سقط ومات تحته ثلاثة أفراخ فأرسلت هذه الرسالة ليسرع إلينا البوليس وأبر بالقسم العظيم . فقلت له وأنا أكاد أتميز من الغيظ : والله لتكونن روحك إحدى الأرواح التى زهقت كما زعمت ، وانهلت عليه ضربا حتى كاد ينفق »

وعاد حافظ إلى الجيش ليحال إلى الاستيداع خمسة أشهر . ثم عاد إليه ثانية لينقل إلى السودان فيقضى به أربع سنين تحت قيادة عدوه الانجليزى كتشنر . وهناك وجد الفرصة ليستغل فى نفسه براعة المحامى وبلاغة الخطيب ، فكان يدافع عمن

يقدم من الضباط إلى المجالس العسكرية الانجليزية . وفى خلال ذلك كان يؤرث نار الفتنة فى الجيش حتى ثار الضباط المصريون على رؤسائهم من الإنجليز سنة ١٨٩٩ فاتهم بهذه الثورة هو وثمانية عشر ضابطا أحيلوا على الإستيداع وظل الضابط الثائر مستودعا ثلاثة أعوام ونصف عام ، ثم خرج على المعاش فى سنة ١٩٠٣ .

(٤)

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة لا يستقر بض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوف إلى غاية ، وظن أن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، فعاش عيش مسلم بن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ممن قضوا أعمارهم صنائع للملوك ووسائل للهو وحمائل على الجوائز . فأبى الوظيفة وآثر أن يحيا فى ظلال الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفىء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه وينادمهم برقيق شعره . ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شوق شاعر الأمير بحوله وطوله .

ومن دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا الحاضر ، كصريع الغوانى وابن هانى ، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا المستقبل ، كأبى العتاهية والبحترى . ومن الأولين كان حافظ . تمتلىء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من الضجر والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب كامام العبد وخليل نظير ، وأحمد فؤاد ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان وظلم الإنسان وشقاء الأديب . كان حافظ يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه ، ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يوجبه كل شاعر على الناس ،

لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل إنسان إلى المجتمع . فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة يحمل بؤسه على حرفة الأدب كما يحمل المؤمن وزره على حكمة القدر . ثم عاش عيش الطائر الفرد ، عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو ، ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب أينما انتثر .

فلما عطف عليه الوزير الأديب أحمد حشمت فأكرمه سنه ١٩١١ بالعمل فى دار الكتب رئيساً للقسم الأدبى وأجزل له المرتب طمعا فى مواهبه وثوابا على فضله حمل الوظيفة على محمل المكافأة الواجبة وظل أكثر النهار قاعدا فى قهوة الكتبخانة ، فاذا طاب إلى الدار لعمل تقتضيه الرياسة قال للجرسون : إذا سأل عنى واحد قل له راح الكتبخانة شويه وجاى » .

ولقد كان من جريرة هذه الحياة التى حببها حافظ أن شغلته عن الدرس والقراءة فلم يتكمل بثقافة ولم يتعمق فى فلسفة . كان يترجم رواية مكبث لشكسبير فدعى مرة ليحاضر فى نادى المدارس العليا وهو يومئذ مجمع الشباب الصالح المثقف فقام فأنشدهم بعض ماترجم نظماً عن شكسبير ومثله تمثيلا أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب،ثم سألوه المحاضرة فأخذ يلقى عليهم من نوادره حتى مضى الوقت ولم يقل شيئا . من تلك النوادر قوله : إن الرشيد أهديت إليه جارية حسناء فسألها : أبكر أنت أم أيش ؟ فقالت له : أنا يا أمير المؤمنين أبش. وسأل المعتصم هذا السؤال جارية أشتريت له فأجابت : لقد كثرت الفتوح فى عهدك يا أمير المؤمنين .

كذلك كان من جرائر هذه الحياة عليه أن انبهم فى نفسه معنى للغزل ، وخمد فى حسه شعور الأسرة . وذوى فى قلبه حب المرأة ، فلما ألحت عليه أمه أن يتزوج بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٦ بنى بأمرأة من حى عابدين وحاول أن يصبر نفسه على حياة الزوجية فلم يستطع الصبر إلا أربعة أشهر ثم طلقها.

وسئل مرة هل أحب ؟ فقال : النساء اثنتان : جميلة تنفر من قبحى ، ودميمة أنفر من قبحها . ولذلك جف فى شعره ينبوع هذه العاطفة فلم يقل فى الغزل شيئاً يذكر .

(٥)

كان حافظ منذ أدرك مطبوعا على اليتم لايعرف إلا أنه ابن القدر. ومع ذلك كان خلطاؤه يرون على وجهه لونا من الرضا لا يتغير فى نعيم ولا بؤس . ومن عجيب الأمر فى هذا اليتيم الحزين أنه كان قوى الملكة فى فن الضحك . كأن الله عوضه من نضوب معانيه فى قلبه فيضان ألفاظه على لسانه . والمعروف أن نبوغ المصرى فى ابتكار النكتة وابتعاث الضحك إنما كان تفريجا له من الكروب التى كابدها فى عهود الطغيان والموتان والقل. كان حافظ يتقصص النوادر والفكاهات من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو وجعل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها بمنطقه ووجهه ونبرات من لسانه وحركات من يده . وهو فى غزارة محفوظه من الطرف والأشعار والأسمار أوحد الناس بالاجماع . حدثنى المرحوم الرافعى أنه اجتمع فى سنة ١٩١٢ بحافظ على مائدة مدير الغربية محمد محب، فلما مدت الأيدى إلى الطعام قال له المدير : لى عليك شرط ياحافظ . قال ماهو ؟ قال : كل لقمة بنادرة . فتهلل وجهه وقال : لك على ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل والعشاء حافل وحافظ كان نهما فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط .

وتذاكرنا يوما كثرة ما كان يحفظ من الشعر فقال الرافعى : نشرت مصباح الشرق فى سنة ١٩٠٠ قصيدة من مطولات ابن الرومى . وكنا يوم صدورها فى مجلس يضم حافظا وبعض الأدباء ، فتعجب الشيخ محمد المهدى أستاذ الأدب

فى دار العلوم من بسطة ابن الرومى فى قوافيه . فقال له حافظ : هلم نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا ، وكانت القافية من وزن ، قدرها ، أحمرها ، أكبرها . وجعلت أنا أحصى عليهما ، فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلا ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفصل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير حتى انقطع اخيراً وبقى حافظ يسرد له ما يحفظ من هذا الوزن على هذه القافية .

(٦)

عاش حافظ زهاء اثنتين وستين سنة كانت نوما مضطربا من غير حلم ، أو كما قال هو كانت حلما مزعجاً من غير نوم . فلما أوى فى الثلث الأخير من حياته إلى كنف الأمان من منصبه فى دار الكتب استراح للخفض واستنام للدعة وأعفى قريحته من قول الشعر فلم ينظمه إلا مدفوعا إليه حينا بعد حين . كان همه كله فى الحديث يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ، وأينما يكن يكن الأنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث الذى يمتزج بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس .

كان يعيش بعد خروجه من الجيش مستقلا مع أمه . فلما توفيت سنة ١٩٠٨ عاد إلى العيش فى بيت خاله . ولما توفى خاله ظل يعيش مع زوجته السيدة عائشة ، يقوم على رعايتها باخلاص الابن البار ، وتقوم هى على خدمته بحنان الأم الرءوم ، حتى شارفت حياتها الأجل الموقوت فتوفاها الله سنة ١٩٢٩ وتوفاه بعدها بثلاث سنين . وكانت هذه السنوات الثلاث عكارة العمر وصبابة الكأس ، تجمعت فيها وحشة العيش بعد أن خلت داره من أمه وخاله وزوجة خاله ،

وهم الثلاثة الذين لازموه طول العمر ، وشاركوه فى الحلو والمر . وانضوى فيها إلى حزب الوفد وانقطع إلى الزعيم سعد ، فأطلق لسانه بالسوء فى رئيس الحكومة إذ ذاك اسماعيل صدقى فأخرجه من وكالة دار الكتب سنة ١٩٣٢ . وترادفت عليه بعدها الأمراض فأصبح لا يشتهى الطعام ولا يستلذ الشراب ولا يجد الراحة إلا فى منزله الصغير بضاحية الزيتون .

وفى الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر يوليو من تلك السنة بعد خروجه على المعاش بأربعة أشهر ونصف شهر انتقلت روحه إلى الخلد وبقيت ذكراه للخلود[1] .

---

(١) إقرأ فصلا من شعوه فى كتابى وحى الرسالة المجلد الأول .

شخصية البحتري

بمناسبة الاحتفال بذكراه في سبتمبر سنة ١٩٦١

الاحتفال بشاعر الشام الكبير ، ونابغة العروبة الخالد ، تكريم لذكراه ، وتحية لفنه ، والتكريم والتحية يقتضيان الاقتصار على ما يجمل ذكره من أخلاق الشاعر وصفاته . وذلك إنما يتسنى لمن يتحدث مختاراً عن جانب من جوانب سلوكه ، أو مزية من مزايا فنه . أما من اقترح عليه أن يتحدث عن شخصيته فالأمر معه جد مختلف . ذلك لأن شخصية الرجل هي صورته المعنوية تركبت من آثار الفطرة والوراثة والبيئة والطبيعة ونمط العيش ونوع الثقافة ولون الحضارة. ولأولئك كله خطوط وألوان وظلال ، منها المستقيم والمعوج ، والسوى والشاذ ، والبارز والمستتر ، وبدونها كلها لا تكمل الصورة ولا تتم المعرفة . فإذا صورت البحتري على الطريقة الواقعية التي تعتمد على اعترافاته وشهادة مواطنيه ، لا على الطريقة الخيالية التي صور بها هو ممدوحيه ، كنت أقرب إلى إرضاء الحق وإنصاف التاريخ . وعذر البحتري في انطباع شخصيته على هذه الصورة حال المجتمع في عصره . فقد كان العصر الثاني من عصور الدولة العباسية الأربعة عصر نزاع على الخلافة وصراع بين الأجناس وصدام بين المذاهب وخصام بين الأسر وتنافس في الثروة والجاه ، وتدافق في الترف واللهو ، وتورط في الشهوة واللذة . والشاعر الذي يعيش على صلات الخلفاء والرؤساء مقضي عليه أن يساير ويشارك ويهاوي ويحتال ، فيخرج من الرأي إلى نقيضه ، وينقلب من الرجل إلى عدوه .

شخصية الوليد أبي عبادة البحتري شخصية الإنسان المطبوع والفنان الموهوب ، كانت إنسانيته لا تختلف معناها عن معنى الحيوانية في اكتساب القوت

لتحيا ، واجتناب الأذى لتنجو ، وكانت فنيته لا يبعد مداها عن أن تكون وسيلة لهذه الحياة تهيء لها عدة القوة ، وتمد لها أسباب العزة ، كما يقول :

لى من الشعر نجوة واعتزاز وهجوم على الأمور الشداد

كان الشعر فى عصر البحترى للشاعر بمثابة الناب والظفر للسبع ، يقتضى الرزق بالمدح ، ويتقى الأذى بالهجاء . والذى جعل الشعر هذه الوظيفة تلك الحساسية المرضية التى توارثها العرب للمدح استجابة لدواعى العصبية وطمعا فى خلود الذكر ، وكان البحترى وهو صبى يرتع بين أشجار التوت فى منبج ، أو يتنقل وهو يافع بين مضارب طيء على الفرات ، يرد على سمعه ما تتناقله الأفواه فى القرية والبادية عما ينال الشعراء فى قصور الخلفاء والأغنياء من الجاه والثراء ، وبخاصة مواطنه أبو تمام، فيطمح إلى ذلك ، وينظر فى نفسه فيجد خاطره يسحُ بالشعر سحًّا على البديهة دون علم بالعروض إلا ما اكتسب بالسليقة ، ولا بصر باللغة إلا ما أخذ عن الأعراب ، فيعلم أنه أوتى الملكة وأعطى الوسيلة فيقرض الشعر فى كل شيء ، وينشده فى كل مكان .

قال صالح بن الأصبغ التنوخى المنبجى :

« رأيت البحترى هنا قبل أن يخرج إلى العراق يمدح أصحاب البصل والباذنجال وينشد الشعر فى مجيئه وذهابه » ومعنى ذلك أن البحترى بدأ يتكسب بالشعر فى قريته على هذه الصورة المبتذلة ، لأنه قرر فى نفسه أن يتصيد رزقه فى بحور الشعر تارة من السمك وتارة من اللؤلؤ . وما كان لفتى منبج الطامع الطامح أن يقنع بالبصل والباذنجان ، دون اللؤلؤ والمرجان ، وهو الذى مرر منذ صباه على الفقر وقضى العمر كله فى جهاده . جاهده بسلاح الشعر وحده لا بالعلم ولا بالعمل . وسلاح الشعر يدركه الفلول فى بعض الأوقات لإعراض خليفة أو صدود وزير فلا يعمل ، فيضطر إلى التنقل من قصر إلى قصر ،

أو التحول من بلد إلى بلد ، فكانت حياته حياة الطائر الفرد يدقوام عيشه حنجرة رخيمة وجناح خفاق ومنقار لاقط ، يغنى حيث يكون الروض ، و يقع حيث ينتثر الحب . فإذا حل الشتاء وطمر الثلج روضه ، وحطم السيل عشه ، قطع أجواز الفضاء وأثباج المـــــاء إلى جو آخر يتوفر فيه الحب والأمن والدفء ؟

* * *

شخصية البحترى كـكل شخصية إنسانية لها قوامان : قوام مادى مفتاحه حب المال ، وقوام معنوى مفتاحه حب الجمال . وبهذين المفتاحين نستطيع أن نفتح ما استغلق من طباعه ، ونفسر ما استبهم من سلوكه .

كان حديث أحلامه ومنتجع أمانيه أن يقتنى ضيعة فى منبج ، فمدح من مدح من السادة والقادة حتى بلغ فى عهد المتوكل فوق ما تمنىء . ثم صار همه بعد ذلك أن يمدح الولاة والعمال ليعفوا ضياعه من الخراج . قال أحمد بن إسماعيل : كان البحترى يلزم إبراهيم بن المدبر فى كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، فأراد يوما أن يشترى ضيعة جديدة واستماح إبراهيم أن يؤدى عنه بعض ثمنها ، فلامه على طمعه وقال له : يكفيك ما تملك من الضياع فقد كثرت وعظمت ! فأنشده قصيدة كان قد أعدها يقول فى مطلعها : صفاها تمادى لومها ولجاجها حتى بلغ قوله فيها :

وما زالت العيس المراسيل تنبرى فيقضى لدى آل المدبر حاجها

فأمر له بإتمام ماله .

كان البحترى فى سبيل حب المال يبخل به ويحرص عليه . وهل للبخل

معنى غير حب المال ؟ فما رواه أبو الغوث ابنه ، وحكم بن يحيى ، وأبو مسلم محمد بن الأصفهانى ، من حديث شحه على نفسه وتقتيره على خادمه وأخيه ليس بدعا من أخلاق الشعراء فى ذلك العصر ، فقد كان البخل طبعا مكتسبا فيهم لم يخل منه إلا أفراد قلائل غيبتهم نشوة الخمر عن الفكر فى المستقبل فعاشوا فى الحاضر يوما بيوم ، كمسلم بن الوليد وأبى نواس ، والشعراء البخلاء منطقيون مع الحياة . يصنعون ما تصنع النحل والنمل ، يدخرون بعض ما يجدون ليوم لا يجدون . لأن موارد أرزاقهم لم تكن مضمونة ولا مأمونة . كانوا يعيشون على صلات الخلفاء وأولى النعمة ، ينادمونهم على الشراب ، ويفاكهونهم فى السمر ، ويتملقونهم بالمدح ، ويدورون من وراء رضاهم فى السياسة والحكم ، فهم فى خير ما دامت أسبابهم موصولة بالقصر ، فإذا انقطعت انقطع رجاؤهم فى العيش . ولم يكن للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآدب والعلوم جد أعلى فى عصر البحترى يسنى لهم طرق العيش الكريم بالتأليف والترجمة والنشر والمعونة ، فكانوا بين مجدود كالجاحظ ، أو مكدود كالأخفش . أما الجاحظ فقد سئل يوما عن ثروته فتبسم ضاحكا وأجاب : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم ، وحمار . وقد أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد ابن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد .

وأما على بن سليمان الأخفش النحوى الأديب فقد ضاقت به الحال فى أواخر أيامه فسأل أبا على بن مقلة أن يكلم له الوزير على بن عيسى عسى أن يجرى عليه رزقا فى جملة الفقراء . فلما كلمه انتهره الوزير انتهارا شديدا ، وأجابه جوابا غليظا ،

وكان ذلك فى مجلس حافل ، فبلغ ذلك الأخفش فاغتم ، وانتهت به الحال إلى أن عاش على السلاجم النىء(١) . ويقال إنه قبض على قلبه من اليأس فمات فجأة .

* * *

وفى سبيل المال كان البحترى يحتال ويتدنى وينقل شعره من مقام إلى مقام ، ومن ممدوح إلى ممدوح ، بعد تغيير تقتضيه الحال ، قال يتحدث عن نفسه : « دخلت على المتوكل يوما وفى يديه درتان لم أر أنقى منهما بياضا ولا أكبر حجما . فأدمت النظر إليهما ، ولم أصرف طرفى عنهما . ورآنى المتوكل على هذه الحال فرمى إلى بالتى كانت فى يمناه ، فقبلت الأرض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعا فى الأخرى فمن لى أن قلت :

بسر مرّا لنـــــا إمام تغرف من كفه البحار
خليفة يُرتجى ويخشى كأنه جنـــــة ونار
الملك فيــــه وفى بنيه ما اختلف الليل والنهار
يداه فى الجود ضرتان هذى على هـــــذه تغار
وليس تأتى اليمين شيئاً إلا أتت مثله اليسار

فرمى إلى بالدرة التى كانت فى يساره وقال خذها يا عيار ! ، والعيار المحتال . وقال أيضاً يتحدث عن نفسه : كنا فى مجلس المتوكل ومعنا الفتح ابن خاقان ، فاعترت المتوكل للفتح هزة من السرور والرضا فقام يقبله ، ووثب الفتح فقام فقبل رجليه . والتفت الخليفة إلى وقال : قل فى الفتح وفىّ شعرا . فأتى

---

(١) السلاجم : اللفت .

أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ، ولا يفقدني فيذل بعدي ، فقل في هذا المعنى ، فقلت قصيدة منها :

لا أرتني الأيام فقدك يا فتح   ولا عرّفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلي   ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حسدا أن تكون إلفا لغيرى   إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقال المتوكل : أحسنت والله يا أبا عبادة ، وجئت بما في نفسي ، وأمر لي بألف دينار ، وكنت قد عملت هذه الأبيات في غلام كنت أكلف به ، فلما أمرني للمتوكل بما أمر ، انتحيت وقلت الأبيات وأريته أني عملتها في وقتي ، وما غيرت فيها إلا لفظة واحدة ، فإنني كنت قلت : ما أرتني الأيام فقدك ما عشت ، فجعلته يا فتح . وقد قتلا معا وكنت حاضرا فرحت هذه الضربة . (وأومأ إلى ضربة في ظهره) .

وقد قال الصولي إنه نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه ممن قيلت فيهم إلى غيرهم بعد أن غير أسماءهم مع سعة ذرعه في قول الشعر ! وجدوى هذا أن تجاز القصيدة مرتين من غير جهد ولا كلفة .

ويدخل في هذا الباب أمره مع غلامه نسيم ، فقد قال أحمد بن جعفر جحظة: « كان نسيم غلام البحترى روميا ليس بحسن الوجه ، فجعله بابا من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه ممن ينفق عنده الأدب . فإذا صار في ملكه مدحه وتشوق الغلام وشبب به وتحسر عليه بمثل قوله :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد   أظن نسيما قارف الهم من بعدى
خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه   فيا عجبا للدهر ! فقد على فقد

فلا يسع من اشتراه إلا أن يهبه له : ولم تزل تلك حاله حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

* * *

وفى سبيل المال تخلق البحترى بأخلاق التجار فسالم الناس ودعا إلى السلم ، وعايش الأضداد وبرىء من التحيز ، ولابس العقائد والمذاهب والطوائف والعشائر وخلا من التعصب . ولد فى خلافة المأمون ثم تنفس به العمر حتى جاوز الثمانين ، فاستغرقت حياته حياة عشرة من الخلفاء تداولوا العرش العباسى وهو يميد من الفتن والخطوب من تفارس الخصوم وتنافس العناصر وتنازع الرؤساء ، وهو مضطر إلى مصانعة هؤلاء وهؤلاء ليسلم منهم جميعاً ويغنم منهم جميعاً . فمدح العلوى والعباسى والعربى والتركى والسنى والشيعى دون أن يجد غضاضة فى نفسه ولا مشقة على ضميره ، لأنه يتمثل المادح ولا يكونه ، ويتخيل الممدوح ولا يعينه ، ويقول فى المدح مايقول ولا يعتقده ، ومن هنا لم يجد صعوبة ولاحرجا فى أن ينقل القصيدة من ممدوح إلى آخر ، ولعله لم يقل الصدق إلا فى المتوكل لحبه إياه وإخلاصه له وبلوغه الحظوة والثروة فى أيامه حتى قال فيها :

أو ما ترى حسن الزمان وما بدا　　　وأعاد فى أيامـــه المتوكل
أشرقن حتى كاد يقتبس الدجى　　　ورطبن حتى كاد يجرى الجندل

ومن معانى مسايرته ومهاواته أنه لم يتبع سياسة معينة ، ولم يعتقد نحلة خاصة ، وإنما كان يستن سنة الدولة ويذهب مذهب الحاكم . حدث إبراهيم بن عبد الله الكجى قال : قلت للبحترى ويحك ! تقول فى قصيدتك التى رثيت بها أبا سعيد : أأفاق صب من هوى فأفيقا :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدريا معتزليا ؟ فقال لى : كان هذا دينى فى أيام الواثق ، يعنى (أيام كانوا يقولون بخلق القرآن) ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل (أى حين نزعوا عن هذا القول) .

فقلت له يا أبا عبادة : هذا دين سوء يدور مع الدول .

وقد اتهمته العامة بالثنوية فى أيام المعتمد لقوله:

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن لعينيه تطلق
تراها عيانا وهى صنعة واحد فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

(والثنوية يقولون بالهين إله للخير وإله للشر كما تعلمون) فخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغوث وكان مقيما معه : قم يا بنى نطفئ هذه النائرة بخرجة نلم بها شعثنا ثم نعود ، وهى الخرجة التى زار فيها إيوان كسرى وقال فيه قصيدته المعروفة . والحق أن البحترى كان انشأته القروية البدوية بعيداً عن مذاهب الحضريين فى الدين والفلسفة ، فما يستمد شعره إلا من إلهام الخاطر ووحى الطبيعة . ومن قوله يخاطب المناطقة .

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه

وفى سبيل المال ركب البحترى الأسفار وهو فى طور الحداثة يشهد على ذلك قوله:

وقائلة والدمع يصبغ خدها رويدك يا ابن الست عشرة كم تسرى
فقلت أحق الناس بالعزم والسرى طلابَ المعالى صاحب الست والعشر

وقوله :

تقاذفنى بلاد عن بلاد كأنى بينها خبر شرود

فطوف بالشام ، وجول فى العراق ، وأوغل فى الجزيرة ، وبين جنبيه الأمل الحافز ، وفى يديه كتب الوصايا التى زوده بها أستاذه أبو تمام إلى الممدّحين من ذوى المروءات والرياسات فى تلك البلاد . ولكنه كان دائم الحنين الى الشام يستوقد شوقه إليها وافد النسيم من الغرب ، فيقول لنفسه :

حبذا العيش فى دمشـ ـق إذا ليلها برد
حيث يُستقبل الزما ن ويُستحسن البلد

أو يقول للمعتز :

هل أطلعن على الشآم مبجلا فى ظل دولتك الجديد المونق
شهران إن يسرت إذنى فيهما كفلا بألفة شملى المتفرق
قد زاد فى شوقى الغمام وهاجنى زجل الرواعد تحت ليل مطبق

أو يقول لأبى الصقر :

تراك تخلنى فى غير أرضى وإنهاضى . الى بلدى يسير
وأعتقت الزمان فر بعتقى إلى بلدى ، وأنت به جدير

* * *

ذلك بعض ما يفتحه علينا حب المال من شخصية البحترى . أما مايفتحه حب الجمال منها وهو مفتاحها الآخر فكل ماينبثق عن روحه ونفسه وقلبه

وذوقه من الأعمال والخلال ، ولكن هذا المفتاح المعنوى لا يمكن أن يفضى بنا الباب الذى يفتحه إلى جانب مستقل من حياة الشاعر له مميزاته وخصائصه ، فإن العناصر المادية والمعنوية تتقارب وتتضارب وتتفاعل فيؤثر بعضها فى بعض، ويتأثر بعضها ببعض ، فلا يكون هناك حس محض ولا معنى خالص ، فالأناقة التى اشتهر بها البحترى فى تنضيد ألفاظه وتنسيق جمله ، وهى أثر من آثار حب الجمال ، تفارقه فى اختيار هندامه وتأثيث بيته ، فقد كان كما رووا من أوسخ خلق الله ثوبا وأداة ، ووساخة الثوب وقذارة الأداة أثر من آثار حب المال ، وحب الجمال مقتض ، وحب المال مانع ، والمانع أقوى من المقتضى وأولى . على أن صفة القذارة فى الملبس والأثاث تعلل فى أيام الفقر والبداوة والتجوال ولكنها لا تكاد تصدق أيام النعمة السابغة والحياة المترفة أيام المتوكل والفتح ، إلا إذا كانا يحتملان منه ما كان الوزير المهلبى وزير معز الدولة بن بويه يحتمل من أبى الفرج الأصبهانى ، فقد كان المهلبى مترفا متنطسا يأنف من أن يأكل بالملعقة لقمتين فكان له عن يمينه خادم يناوله فى كل لقمة ملعقة ، وعن يساره خادم يأخذها . وكان صاحب الاغانى يجالسه ويؤاكله ؛ وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله ، فيحتمل الوزير ذلك منه لعلمه وحسن حديثه . وحدث يوما أن المهلبى كان يأكل معه لونا من ألوان الحلوى صنع له ونسب إليه وهو المهلبية ، فسعل أبو الفرج سعلة شديدة خرجت معها نخامة غليظة وقعت فى الصحفة ، فلم يزد الوزير على أن أمر برفع الصحفة ووضع أخرى واستأنف الأكل.

* * *

ومن أثر حب البحترى الجمال حبه للطبيعة ، فقد فتن بها منذ الحداثة فى الغيم والصحو ، والجبال والأمواه ، والحقول والرياض ، كما فتن بروائع الصنعة فى القصور الفخمة والابنية العجيبة كإيوان كسرى وبركة المتوكل وقصر المعتز بالله ،

وقصائده فى وصف هذه البنى أمثلة فريدة فى الشعر العالمى . وهل تجدون أبدع وأرق من قوله فى وصف ليلة صافية ساجية تلألأت نجومها وتطلق دجاها :

كاد دجى الليل من طلاقته   يقمر ، والافق ساقط قمره

ومن أثر حبه للجمال كلفه بالجوارى والغلمان ، فقد أحب وهو يافع علوة الحلبية وهى من قيان الشام ، وكان حبه إياها صبوة من صبوات المراهقة فانتهى بالجفاء مرهاو بالهجاء منه . ثم رحل إلى العراق فشارك شعراءه فى حياة اللهو والمتاع ، وتتبع الجمال فى مظهريه المؤنث والمذكر : ووصف الحب فى حاليه الخيالى والواقع . ولكن حب البحترى كان حب الشهوان العابث لا حب الولهان المتيم . أحب المرأة بحسه لا بنفسه ، وتغزل فيها بلسانه لا بقلبه . فمذهبه فى الغزل كمذهبه فى المدح : يصور أحوال المحبوب ، كما يحلل أخلاق الممدوح ، من ذاكرته وخياله ، لا من وجدانه وواقعه ، والفضل فى إخفاء هذا الزيف عن القارىء إنما هو لبراعة ذهنه ، وعبقرية فنه ، وواقعية خياله ، وقدرته على تصوير النفس الإنسانية تصويرا مجردا يصدق جوهره على كل نفس . اسمعوا مثلا قوله يتغزل :

أصبا الأصائل إن لبرقة ثهمد   تشكر اختلافك بالهبوب السرمد
لاتتعبى عرصاتها ، إن الهوى   ملقى على تلك الرسوم الهمد
دمن موائل كالنجوم فإن عفت   فبأى أنجم فى الصبابة يهتدى

فهل تجدون فيما قرأتم أبدع من هذا التصوير وأرق من هذا الوصف وأصدق من هذا الشعور ؟ ولكن الذى يكشفه هو أن نسأله : مالك ولبرقة ثهمد وليس لك فيها خولة ؟ ! (١)

---

(١) إشارة إلى قول طرفة بن العبد فى مطلع معلقته:
لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

إن زيف الغزل البحترى جاء من زيف حبه ، وبعيد أن يحب المرأة الحب الصادق من لا يحترم جنسها ولا يثق به ، أليس هو القائل فى النساء ؟

وعلى غيرهن أحزن يعقو ب وقد جاءه بنوه عشاء
وشعيب من أجلهن رأى الوحدة ضعفا فاستأجر الأنبياء
واستزل الشيطان آدم فى الجنة لما أغرى به حواء
وتلفت إلى القبائل وانظر أمهات ينسين أم آباء
ولعمرى ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبكى النساء ؟

ومن أثر حبه للجمال النفسى حبه للصداقة والصديق . فقد كان لطبيعته المسالمة ونفسيته الشاعرة وحاجته إلى المعونة يطلب الصديق ويحرص عليه ويتعهده وكثرة أشعاره فى العتاب والإعتاب تدل على استبقاء الأصدقاء ومعاودتهم . وقصائده فى رثاء من ذهب منهم تنبىء عن الحزن عليهم والوفاء لهم . ولقد صادق أبا تمام ودعبلا والفتح بن خاقان وأبا العيناء والمبرد ومحمد بن بسام وإبراهيم الصولى والفضل اليزيدى وغيرهم من نوابغ العصر فما ذموا عهده ولا أنكروا وده على الرغم مما يكون بين الأنداد من التنافس والتحاسد . ولكنه كان يقول أحيانا لمثل المبرد : أحبك ولكن الفن أحب إلى منك !

حدّث البحترى نفسه قال : خرجت من منزل أبى الصقر (أحد وزراء المعتمد) نصف النهار فى تموز ، فقلت ليس بقربى منزل أقرب من منزل المبرد ، وكان منزلى بعيداً بباب الشام ؛ فجئته ، فأدخلنى إلى حويشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين وسقانى ماء باردا ، وقال لى : أحدثك إلى أن تنام ، فجعل يحدثنى

أحسن حديث ، فخضرنى لشؤمى وقلة شكرى بيتان ، فسألته أن أنشدهما ، فقال ذلك إليك ، وهو يظن أنى مدحته بهما ، فقلت :

ويوم كحر الشوق فى صدر عاشق   على أنه منه أحر وأومد
ظللت به عند المبرد قافلا[1]   فما زلت فى ألفاظه أتبرد

فقال لى : قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تذم : ومالك عندى جزاء إلا أن أخرجك . والفكتة التى اصطادها من الحر ومن معنى المبرد هى التى ورطته هذه الورطة .

كذلك كان من أثر حبه للجمال النفسى حبه العباقرة من كل جنس ، يشهد بذلك قوله فى سينيته التى وصف بها إيوان كسرى .

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ   ـراف طرا من كل أس وجنس

وكذلك اعترافه بالجميل لأهله ، وذلك واضح فى قوله من هذه القصيدة نفسها .

عمرت للسرور دهراً فصارت   للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع   موقفات على الصبابة حُبس
ذاك عندى وليست الدار دارى   باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى   غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه   بكماة تحت السنوّر حُمس

وأمره مع أبى تمام شاهد آخر على أصالة هذا الخلق فيه . فقد رووا أن بعض الناس سمع شعره فقال له : أنت والله أشعر من أبى تمام ، فقال والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به . ولوددت أن الأمر

(١) قافلا من القيلولة لا من القول .

كما قلت ، ولكنى والله تابع له آخذ منه لأنذ به . نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه . والاعتراف بالجميل والحق دليل على الاعتداد بالنفس والثقة بالقدرة .

* * *

أما مانسب إليه مما ينافى حب الجمال ويجافى سلامة الذوق ففيه نظر وله تأويل قالوا إنه كان بغيض الإنشاد ، يتشادق ويتزاور فى مشيته جانبا أو القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين قائلا : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله .

وهذه الحادثة إن صحت لم تقع إلا مرة واحدة كانت فى مجلس المتوكل ، ولم يروها إلا رجل واحد كان أبا العنبس الصيمرى ، وهو رجل ماجن مزاح كان ينادم رضَّاع الكأس فيخترع لهم الأضاحيك ويروى الأفاكيه ، قال يروى هذا الخبر لجحظة : « كنت عند المتوكل والبحترى ينشده :

عن أى ثغر تبتسم وبأى طرف تحتكم

فكان يتشادق ويتزاور إلى آخر ما وصف . فضجر المتوكل من ذلك وقال لى بحياتى اهجه على هذا الذى أنشدنيه . فقلت :

من أى سَلح تلتقم وبأى كف تلتطم

إلى آخر ما أنشد من ركة وقحة ، فالحادثة إذا قبلنا فى إثباتها خبر الواحد وهو مجروح بمجونه ، مهزلة فى مجلس شراب زالت فيه الكلفة وذابت التفرقة وانطلق المكبوت من الوعى الباطن ، فما كان من البحترى كان سور كأس ونشوة طرب ، وما كان من الصيمرى كان فرصة تهريج ونهزة دعابة ، وما كان

من المتوكل كان عبثاً بالشاعر ولهوا بالنديم ، « والملوك كما قال له الفتح تمزح بأكثر من هذا » على أن المرة الواحدة وإن وقعت فى الصحو لا تكسب خَلقا ولا تنشىء عادة ولا تثبت نقيصة .

* * *

هذه أيها السادة صورة تقريبية لشخصية الشاعر الأكبر رسمتها فى إطار الزمن المقدر لعرضها عليكم ، فإذا أَضفت إليها بعض الصفات الخَلقية التى تجمعت كل صفة منها عن طريق ، كقول أبى الفرج إن لحيته كانت سمراء طويلة ، وقول ابن الرومى إن وجهه كان منسوبا ذنوبا(١) ، وقول أبى العلاء إن قدميه كانتا كقدمى ديك(٢) ، وقول الصولى إن جسمه كان قصدا بين الطول والقصر وبين السمن والهزال ، وإن بدنه كان معافى طول عمره لاعتداله ، فلم يشك علة فى جسمه ، ولا عقدة فى نفسه ، استطعنا أن نتبين من خلالها على اختلاطها وإجمالها ، معارف هذا الفنان العظيم الذى حمل قيثارة الشعر بعد أبى تمام فزاد فى أوتارها وتر الوصف الدقيق المصور ، وفى ألحانها لحن الغزل الرقيق المعبر ، فكان خليقا بقول صاحب المثل السائر فيه : « **أما البحترى فأراد أن يشعر فغنى** » ، والفضل فى فضله إنما كان لأمه الشام مثابة الأدب الخالص والعروبة النقية والإسلام الصحيح ، فإنها بفضل ما حباها به الله من زكاوة التربة وأصالة الفطرة وفنون الطبيعة قدمت إلى هيكل الشعر فى حبيب والوليد وأحمد (عُزَّاه ولاته ومَناته) كما قال ابن الأثير ، وأعادت إلى العرب الخلص سبق الشعر ممن غلبهم عليه من الشعراء الموالى بإنجابها العباقرة الخمسة : أبا تمام ، وأبا عبادة ، وأبا الطيب ، وأبا فراس ، وأبا العلاء . فالإحتفال بالبحترى إحتفال بها ، وتكريم البحترى تكريم لها ، والله سبحانه يخلد فى رحمته وجنته روح الابن ، ويكلأ بعينه وعونه حياة الأم

---

(١) قال ابن الرومى يهجوه .

البحترى ذنوب الوجه نعرفه ولن يكون ذنوب الوجه ذا أدب

(٢) مفرطحة منفرجة الأصابع .

محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان

(يناير سنة ١٩٦٠)

في اليوم التاسع من شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ وفي فورة من فورات النفاق الدولي ، أعلن الساسة في هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان ، ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الحادية عشرة لهذا الإعلان منذ اثنين وعشرين يوما ، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم ، ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها في سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١ .

ومن السهل على الذهن الاجتماعي أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد الكهنة ، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت حوت الشيوعية معترضا في خضم الحياة وقد فغرفاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ ؛ ولكن من الصعب على الذهن المنطقي أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذي أعلنوا له هذه الحقوق ، وظاهروا عليه هذا العطف ! أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذي تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ! أما الإنسان الأحمر في أمريكا فهو في رأي أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق ، عليه كل واجب وليس له أي حق . وهذا الوجود المعدوم في بلاد الديمقراطيين الأحرار لايزال في رأي المسلمين أغلظ كذبة في دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على تمثال الحرية في (نيويورك) ، وأما الإنسان الأسمر والأسود في أفريقيا ، أو الأخضر والأصفر في آسيا ، فهو في نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من

بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخَّر ، ويروَّض ليستثمر ، ويفتج ليستهلك ، وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب . وهذا الحق المهضوم بين أمم العلم والدستور لايزال فى نظر المسلمين اتهاما لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان إنجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير ، فلكل جنس وزنه ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب هو على قدرة الإنسان وعجزه ، لاعلى إنسانيته وفضله ، فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ؛ والجهل والفقر والضعف سبيل العبوديه . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق .

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد ، ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله . والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيَّن ، ولا من وطن معين : إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو شرع الإسلام ، وتحت تاج واحد هو تاج الخلافة ! والإسلام الذى يقول شارعه العظيم «ولقد كرمنا بنى آدم» لم يخص بالتكريم لوناً دون لون ، ولاطبقة دون طبقة ، إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم . وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض ومن سواهم خدم ، وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان ومن عداهم عجم . وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى العالمى قائماً كله على الامتياز بالجنس أو بالدين ، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال ، حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه « إنما المؤمنون إخوة » : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأكدها بقوله صلوات الله عليه : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء يملكان ولا يتصرفان ، فضيَّق الإسلام حدود الرق ، وجعل كفارة الذنوب بالصدقة والعتق ، وسوّى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب .

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى «لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » واحترم عقائد أهل الكتاب وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء ، وأمر الولاة أن يرعوهم و يعطفوا عليهم ، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم .

ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد ، وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض . ووسع صدره لأهل السياسة حتى

تعددت الآحزاب ، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق ، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب . وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبيع ،ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن.

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول ، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل وهذه هى جماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأديانه وألسنته . أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن والأمر يومئذ للجهالة، والرأى للضلالة ، والحكم للطغيان،فأنقذ الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة ؛ ثم أكرمها ونعمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد . ولكن الإنسانية وأسفاه ، ضلت هذ السبيل، أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق ، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق .

من المهود المظلمة أشرق نورُ الله

ولد الكليم موسى بن عمران فى مهد قلق يساوره الخوف والترقب ، ثم أخفته أمه عن عيون فرعون فى تنور . ثم ألقته فى الماء وتركته للأقدار فى صندوق ، ثم نجاه الله من الحرق والغرق والتيه ليتلقى الألواح منه على جبل الطور .

وولد المسيح عيسى بن مريم فى العراء تحت جذع النخلة على الثرى المرمل ، ثم وضعته أمه الهاربة فى مهد خشن من مذود بهيم ، ثم آتاه الله الكتاب والنبوة والبركة فنشرها فى المشرقين من فوق جبل الزيتون !

وولد المصطفى محمد بن عبد الله فى مهد اليتم والعُدم لا يجد الدفء كمن له أم ، ولا العطف كمن له أب ، و لا اللبن كمن له مال ، ثم رعى على بعض أهله ، وسعى بمال زوجه ، ودعا إلى سبيل ربه ، ثم نزل عليه الروح الأمين بالرسالة الخالدة فى غار حراء من جبل النور !

* * *

تبارك الله ما أجل شأنه وأعز حكمه ! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا من هذه المهود المتواضعة ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذه النفوس الوادعة ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع فى العقول ، وكلمته أعلق بالأفئدة . ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة ، والتبس على الناس فعل القدرة .

من المهود الفقيرة النابية اختار الله — وهو أعلم حيث يجعل رسالته — أنبياءه ورسله ، ثم أيدهم بالمعجزات إيجاباً للحق ، وأمدهم بالآيات إرهاباً للباطل ، فجاهدوا الشرك ، وحاربوا الفساد ، وهيأوا الأرض لغراس الخير ، ووجهوا الإنسان إلى

طريق الكمال ، وأعدوا الأذهان لتقبل الرسالة الأخيرة والدعوة العامة : رسالة الحقائق والبراهين ، لا رسالة الخوارق والقرابين . ودعوة العالم المعمور والزمان المؤبد ، لا دعوة المكان المحصور والزمان المحدد .

والمعجزات إنما كانت الدليل على الحق والسبيل إلى الله أيام كان الحس أقوى من العقل ، والسذاجة أغلب على الفكر ، فلما انجابت عن البصائر أغشية الجهل من طول ما وعظ الأنبياء وعلم الحكماء ومحصت العبر ، أصبح الوحى علما والإلهام حكما والبينات فهما والدعوة منطقا والرسالة شريعة ، وأصبح محمد اليتيم العديم الأمى مثلا للإنسانية الصاعدة فى طورها المفكر المعبر ، يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة والمجادلة اللينة ، ولا برهان إلا كتاب به ، ولا سلطان إلا إيمان قلبه : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه. قل سبحان ربى ! هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ » .

والواقع المأثور أنك تقرأ سير الأنبياء وتواريخ الرسل فلا يروعك فيها إلا سلسلة من المعجزات والآيات تؤيد النبى أو تصدق الرسول فى مواقف إقناعه أو دفاعه أو شدته ؛ إلا محمدا صلوات الله عليه فقد آتاه الله مواهب الكمال الإنسانى فميزه بالخلق العظيم والرجولة الكاملة والشخصية المهيمنة ، فكان فى ذاته معجزة وفى صفاته آية . تألبت عليه عناصر الشرك فأصيب فى بدنه ، واتهم فى عقله ، وأوذى فى أهله ، وعذب فى صحبه ، وحورب فى دعوته ، فما قابل ذلك العدوان الباغى إلا بعزمة الإنسان الأعلى ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ؛ وكل هذه الأمور

إنما تصدر عن براعة الذهن وإعجاز البطولة . وتلك مزيته الظاهرة على أصحاب الرسالات . إذ كان كل نبي وكل رسول إنما يبين شأوه على قومه فى بعض المزايا إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من كمال العبقرية . فكان رسولا فى الدين ، وعلماً فى البلاغة ، ودستوراً فى السياسة ، وإماما فى التشريع وقائداً فى الحرب .

ثم كان فى غار حراء . وفى دار الأرقم ، وفى جبل ثور ، وفى دار أبى أيوب ، وفى المسجد الجامع ، مظهراً صحيحاً لروح الله ، وإعلانا صريحاً لسر الدين ، ومثالا عالياً لصدق الجهاد ، واحتمالا سامياً لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس .

* * *

إن حياة الرسول قانون إلهى خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا ، وإن وسائل الجهاد التى جدد عليها أسلوب العيش ، وأقام بها ميزان المجتمع ، لاتزال عناوين ضخمة فى صفحات العلم والسياسة والخلق .

كانت حياته صلوات الله عليه قائمة على الزهد والجهد ، وزعامته دائرة على التضامن والتعاون . ملك الحجاز ونجدا واليمن ، وجبى الجزيرة كلها ومادناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالى طاوين لايجدون العشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون ناراً ، إن هو إلا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم فى الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، وإذا أقبل على أصحابه فقاموا له إجلالا قال لهم : لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ؛ انما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد . وكان ذات مرة فى سفر ، فأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : على ذبحها . وقال ثان : على سلخها . وقال ثالث : على طبخها ، فقال الرسول عليه صلاة ربه وسلامة : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله ، إنا

تكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفوننى إياه ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم . ولما استعز الله بقاسم الفىء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .

ثم كانت سياسته كنور الله لاتعرف الحدود ولا الخصوص ولاالزمن إنما ؛ هى سر الخالق العظيم استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ؛ ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

أما شخصيته فكانت أبلغ ما فى رجولته . خضعت لها الرءوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ من صناديد العرب ، فكانوا يسمتون سمته فى الخلال ، وينهجون نهجه فى العيش ، ويأخذون أخذه فى المعاملة ، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعا لا يخرقه إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، وأحكامه أقضية تنفذ .

لذلك نذكره فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . نذكر اسمه مع اسم الله لا تعبداً به فإن الشرك معاذ الله لايكون غير هذا إنما نذكر الله ونذكر بعده محمداً كما تذكر القاعدة ومعها المثل . أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحى والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويشرع وهو يطبق . فذكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هى القدرة . وذكر الرسول استحضار لأقواله وأفعاله وتلك هى القدوة .

* * *

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ونبى الحرية والديموقراطية ، ودعاية السلام والوئام والمحبة .

شهر ربيع الأول في حياة الرسول

من الموافقات العجيبة فى حياة الرسول صلوات الله عليه أن شهر ربيع الأول كان شهره من بين الأشهر ، وأن يوم الإثنين كان يومه من بين الأيام .

فيوم الإثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول كان يوم استهلاله فى مكة ؛ ويوم الإثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول كان يوم هجرته إلى المدينة ؛ ويوم الإثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ولهذه الموافقات سر يعلمه من اصطفاه على خلقه واصطنعه لحقه ، واختصه برسالته . ومن همسات هذا السر أن شهر ربيع الأول هو شهر اليمن والخصب والجمال فى العام ، وأن يوم الإثنين هو يوم القمر عند القدامى وللقمر شأن مذكور فى الإسلام . فهو ميقات للناس والصوم والحج ؛ وشعار للأمة والملة والدولة . وعلاقة الأقدار والحظوظ بالفصول والبروج والأيام لا تزال من الأسرار المغيبة فى فطرة الإنسان . فلو أن شهر ربيع الأول جعل بدءا للسنة الهجرية ، وأن يوم الإثنين جعل يوما للراحة الأسبوعية ، لكان ذلك متفقاً مع تاريخ الهجرة ، وجلالة الذكرى ، وسكانة الرسول ، وقداسة الشهر .

— ١ —

ففى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للسنة الثالثة والخمسين قبل الهجرة كان الفضاء الرحب الصافى بين بيت إبراهيم بالمسجد الحرام ، ودار السيدة آمنة بشعب بنى هاشم بمكة ، مسبّحا الأجنحة الملائكة ومسبّحا لأرواح الأنبياء ، يحمدون الله ويشكرونه على أن تدارك الخليقة من جديد ، باستهلال

هذا العربى الوليد . وكان العالم قبل مولد محمد بن عبد الله يضطرب فى الباطل ويتخبط فى الضلال ، ويتبسط فى المنكر .

كبهيمة عميـــــاء قاد زمامها أعمى على عِوَج الطريق الأعوج

كان يسوق هذه البهيمة من الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد ، ويقودها إلى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق . وكان إيوان كسرى وبلاط القيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر . فلما قام بينهما فى مكة مهد العربى اليتيم هزته يد الله فتصدع لهزته الإيوان ، وتطامن لهيبته القصر ، وهتف بالعاهلين الغظيمين من جانب الغيب هاتف يقول : اليوم ينتهى تاريخ ويبتدىء تاريخ . ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد إنما العبادة لله ، والقيادة للرسول ، والسيادة للدين ، والحكومة للعرب ، والدنيا للجميع ! ثم درج يتيم الأبوين فى دروب مكة وشعابها وأوديتها يتمرس بالحياة على أسلوب قريش ، فرعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه ، ثم أتجر بمال زوجه . وكانت عناية الله ترعاه فى كل طور وفى كل مرحلة عاله وهو يتيم فقير وكفله وهو راع صغير ، ووفقه وهو تاجر أجير . ثم شاء الله لأمر يريده أن يصنعه على عينه . فأدبه بأدبه ، وعلمه من علمه ، وعصمه من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل الربا ، ولم يلعب الميسر . ولم يشهد اللهو ، ولم يعنُ وجهه لصنم ، حتى صار اليتيم العديم سيداً للجزيرة ، والراعى الصغير راعيا للعالم ، والتاجر المتجول فاتحا للأرض ، والطاهر النزيه مهيأ لتلقى الوحى وتبليغ الرسالة .

وحينئذ انفتح باب من السماء على غار حراء تنزلت منه الملائكة والروح على أهل الأرض ، وانبثقت فيه الشعاعة الأولى من وحى الله على قلب محمد . فهبط الصادق الأمين من فوق جبل النور يحمل المصباح بالهدى ، ويحمل على الشرك

بالتوحيد ، ويحتمل فى سبيل الدعوة إلى الله أذى أئمة الكفر من قريش .

— ٢ —

وفى يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع الأول للسنة الأولى من حادثة الفيل كان أذى قريش لرسول الله قد بلغ حد الائتمار به ليقتلوه . وكان صلوات الله عليه قد رأى قفار مكة المشركة قد نبتْ على غرس الدعوة فلم يخرج نباته إلا نكدا توشك السموم أن تأتى عليه ، فهاجر به تحت عين الله إلى البلد الطيب الذى اختاره الله ليكون قاعدة لصرحه وحقلا لغرسه ومجما لقوته ومنارا لهداه . وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والثبات والجهاد والخلق والرجولة ، أثمر الغرس وتم النور واتحدت الكلمة واتسعت الرقعة ، فصارت المدينة دنيا ، والقلة ملة ، والقرى الثلاث وهى مكة والطائف ويثرب قارات ثلاثا هى آسيا وأفريقا وأوربا . وأصبح الإسلام الذى بدأ بخديجة وعلى وأبى بكر وزيد دين الناس ودنيا العالم ، يقف به فى آخر المغرب عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسى ويقول وقد خوض جواده فى الماء : « اللهم رب محمد ! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك . اللهم اشهد ! » ويتجه به إلى آخر المشرق قتيبة الباهلى ويأبى إلا أن يوغل فى بلاد الصين فيقول له أحد أصحابه محذراً : « لقد أوغلت فى بلاد الترك ياقتيبة ، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر » فيجيبه قتيبة : « بثقتى بنصر الله أوغلت . وإذا انقضت المدة ، لم تنفع العدة » ؟ فرد عليه المشفق المحذر قائلا : « اسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله » .

* * *

كانت الهجرة المباركة حداً فاصلا من نور الله بين الإسلام والجاهلية ، وبين الوحدانية والوثنية ، وبين القومية والعصبية ، وبين الإنسانية والحيوانية ، وبين

ليل مظلم طال فى الهول والويل والضلال ، وصباح مسفر ضاء بالأمن والسلام والهداية .

تسنى بعدها للرسول بفضل الله أن يفطم المشركين عن الشر بالحكمة والقوة ، وأن يربى المسلمين على الخير بالموعظة والقدوة . فجادل المنكرين بمنطق القرآن ، وجاهد المكابرين بمنطق السيف ، حتى جاء نصر الله والفتح ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربه ، واطمأن على مصير دعوته وشعبه ، وأخذ يسن السنن ويوضح المعالم ويبين للناس ما لو اتبعوه من بعده لما ضلوا ولا ذلوا . فلم تمض عشر سنين على الهجرة حتى كان الدين قد كمل ، والنعمة قد تمت ، والقرآن قد ختم ، والعرب قد تهيأوا لولاية الأرض وحكم الدنيا . فحج صلوات الله عليه حجة التمام ، وخطب فى عرفة خطبة الوداع ، أشهد فيها الله على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وخرج من العهدة .

وفى ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فعلم أن الله قد نعى إليه نفسه واصطفاه لجواره .

— ٣ —

وفى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة لحق بالرفيق الأعلى . وكان قد حم صلوات الله عليه منذ أسبوعين قضاهما فى بُرَحاء الحمى بين وهجها وغشيتها لا يفتر عن ذكر الله ولا يغفل عن أمر دينه . وكان أشد عليه من وجعه أن ينقطع عن المسجد وأن يؤذنه بلال بالصلاة فلا ينهض لها . وفى آخر يوم من أيام المرض وجد الرسول خفة فى جسده فعصب رأسه وخرج من بيت عائشة متثاقلا تخط قدماه الأرض وهو معتمد على على والفضل ابنى عميه ، حتى أتى المسجد والناس يقيمون الصلاة ،

فلم يكادوا يرونه مقبلا حتى أخذتهم هزة الفرح وفرجوا صفوفهم له نخطا بينها حتى جلس إلى يسار أبى بكر وصلى قاعداً وراءه . فلما قضيت الصلاة صعد المنبر ، وكان قد علم أن مرضه الشديد قد جرأ بعض المنافقين على الانتقاض والردة ، فوثب الأسود باليمن ، ومسيلمة باليمامة ، وطليحة فى بنى أسد ، فقال بعد أن حمد الله واستغفر لأهل أحد : « أيها الناس : سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ! ألا وإنكم لا تملكون على شيئا . إنى والله لم أحل لكم إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم الله وإن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، ثم أمسك . فأدرك الصديق أن الرسول يريد نفسه فأجهش بالبكاء وفداه بالأنفس والبنين . ثم خرج من المسجد فدعا لأسامة بن زيد بالخير وأمره أن يسير بجيشه إلى غزو الروم . وارتد إلى بيته فنكس النكسة التى انخزل عنها العلاج ، وانطفأ منها السراج ، وغام بعدها الأفق ، ونجمت فى أرض السقيفة بذور الفرقة . فلم يبق بين أيدى الناس إلا كتاب الله يهتدى عليه الضال ، ويرجع اليه الشارد ، ويستقيم به الطريق .

هذا هو شهر ربيع الأول ، وهذه هى أثانينه الثلاثة ، لخصت حوادثها تاريخ الرسول ، وسجلت مواقيتها أطوار الرسالة . فكانت إطاراً للصورة القدسية التى صاغتها يد البارىء المصور لتكون جمالا للتاريخ ومثالا للإكبار . أو مشكاة للمصباح الإلهى السرمدى الذى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار .

من أجل ذلك وجب الاحتفال بذكرى هذا الشهر وهذا اليوم ، ومن أجل ذلك استحب فى أيام الإثنين الصدقة والصوم .

من ذكريات المحرم: هجرة في سبيل الله وشهادة في سبيل الحق

— ١ —

بعث الله النبي الكريم على فترة من الرسل فى عصر غير ذى دين ، وجيل غير ذى خلق ، وبلد غير ذى زرع : فلقى صلوات الله عليه من سفه الجاهلية وكلب المادية وكيد العصبية وحرمان الفقر وخذلان القلة ما لا يسعه طوق بشر إلا بروح من الله وسند من الإيمان وعون من الخلق .

حمل محمد رسالة الله وهو فقير ضعيف ، وحمل أبو جهل رسالة الشيطان وهو غنى مسلط ، فحول مكة للشركة جبلا من السعير سد على الرسول طريق الدعوة ، فكان يخطو فى طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتفور بالعذاب ، وتفجر عليه فى كل خطوة سفاهة أبى لهب بالأذى والهون والمعاياة والمعارضة — وكل قرشى كان يومئذ أبا جهل أو أبا لهب إلا من حفظ الله . وافتن كفار مكة ومشركو الطائف فى أذى الرسول فعذبوه فى نفسه وفى أهله وفى صحبه ليحملوه على ترك الدعوة فما لان ولا استكان ولا خضع . وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه فى (دار الندوة) فقرر القتل ، وتدخل الله بروحه فى (غار ثور) فقدر النجاة !

كانت ليالى الغار أحلك ليالى الهم فى تاريخ الدعوة : سيوف الغدر مصلتة فى أكف الفتية المختارين من قبائل قريش يرقبون مثوى الرسول بعيون لا تغفل ، وعلى نائم فى فراش ابن عمه متسجيا ببرده يوهم القوم أن طلبتهم بين أيديهم حتى لا يطلبوها فى مكان آخر . والمهاجر الفار بدينه من صولة الكفر لائذ بالغار فى أسفل مكة يحصن نفسه بذكر الله ، ويطامن قلبه بسكينة الصبر ، ويقول

لصاحبه وهو لا يتقارُّ من الخوف ولا يتماسك من الأسى : « لا تحزن إن الله معنا » . والمؤتمرون حين كشف لم الصباح عن وجه الخديعة يطلبونه فى كل مكان ويرصدونه بكل سبيل ، حتى إذا لم يبق بينهم وبين الرسول والصديق إلا نظرة وخطوة ، أراد الله أن تدرك قدرته كلمته فطمس عين الباطل فلم ير ، وزلزل قدم الشرك فلم يلحق ، وانطلق محمد هو وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين فى الطريق الموحش الوعر حتى بلغوا طيبة . وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة وتم نور الله . جمع الرسول شتات الجماعة ، وثق عقدة الدين ، وأعد أهبة الجهاد ، فألف بين الأوس والخزرج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتب فى يثرب جيش الله الذى فتح الدنيا بفتح مكة .

لم تكن هجرة الرسول هربا من وجه الموت كما يسميها كتاب الفرنج . فإن الأمر لو كان أمر الحياة لترك الرسول الدعوة وظل عزيزاً فى قومه آمناً فى سربه ، ولكنه أمر الله الذى قال فيه لعمه أبى طالب : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر الله أو أهلك دونه ما تركته . إنما كانت الهجرة خروجا من أرض نبت على الغراس الالهى فلم تدعه ينبت، وتحولا عن قوم صدوا عن سبيل الله فلم يدعوها تؤدى. وما كانت دعوة الحق فى مكه إلا غيثاً أنزله الله فى يباب القفر ففاض بعضه فى سباخ الأرض واحتبس بعضه فى أصلاد الصخر ، ثم نفس الله عنه من شدة الضيق والحصر فانبثقت عنه الحواجز الصم فجرى سيولا فى السهول والأودية ، وتشعب ينابيع فى القرى والمدائن ، يحمل الخصب والنماء ، ويوزع الرى والغذاء ، فأحيا موات الأرض ، وروى غلة الناس، وكان منه العمارة والحضارة والخير .

كانت هجرة الرسول إلى المدينة هى هذا الانبثاق الذى انساح به الاسلام فى

أقطار الأرض يحمل الهدى للأرواح الحائرة ، والسلام للنفوس المحروبة ، والألفة للقلوب المختلفة ، ويحقق لهذا الانسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه ، من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب بها المدارك .

كان حادث الهجرة الذى جعل عمر الحكيم العظيم عامه تاريخاً للمسلمين عامة يحسبون منه أيامهم ويؤرخون به أحداثهم ، ملحمة من ملاحم البطولة استمدت إلهامها من وحى الله ، وروحها من خلق محمد ، وعملها من صدق العرب ، واستقرت فى مسامع الأجيال والقرون مثلا مضروبا لقواد الانسانية يعلمهم الصبر على مكاره الرأى ، والاستمساك فى مزالق الفتنة ، والاستبسال فى مواقف المحنة ، والاستشهاد فى سبيل المبدأ .

ثم كانت الهجرة أساساً لصرح الوحدة العربية أرساه الرسول فى المدينة ، ثم قواه بفتح مكة ، ثم أعلاه خلفاؤه الراشدون بجمعهم العرب باديهم وحاضرهم على نظام ديمقراطى حر ، وفى حكم تيوقراطى منزه . فأصبحت السيادة للدين لا للنسب ، وللاخاء فى الله لا فى العصب .

— ٢ —

ثم انصدع هذا الصرح بالفتنة الكبرى واشتداد النزاع على الإمامة بين على ومعاوية ، أو بين هاشم وأمية ، وما اقتضته سياسة الأموى الأول من تغليب العصبية القبلية على القومية العربية ، وإيثار السياسة الدنيوية على السياسة الدينية ؛ وجعله ولاية العهد لابنه المستهتر بطريق لا سليم ولا قويم ، واستبداد الهوى المريض بقلب خليفته يزيد . وكان بنو على قد ورثوا عنه ما ورثه هو بحكم مولده ومرباه من مناقب النبوة ومواهب الرسالة ، فتولوا المعارضة بصراحة المؤمن ، وقادوا حركة الاصلاح ببسالة المجاهد ، وساسوا الناس بسياسة أبيهم ،

فما قارفوا الأثرة ، ولا حاولوا الفرقة ، ولا راقبوا الفرصة ، ولا أثاروا العصبية ، ولا استخدموا المال ، ولكن دنيا الفتوح كانت يومئذ قد أخذت تتجاهل دنيا البساطة والزهد ، فلم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بسرف القصر فى الشام وترف العيش فى العراق ، فقسد أمر بنى على بين طغيان الحكومة وخذلان الشعب . وشق على الحسين أن يرى دعوة جده تصير دعاية ، وخلافة أبيه تنقلب ملكا ، ووحدة قومه تصبح شتى ، فنهض بنفسه للأمر وأخذ يستنفر القبائل ويستنصر الأحزاب فما رجع من سعيه لديهم بطائل . ورأى له القدر المقدور أن يلتمس النصرة عند شيعة أبيه فى العراق ، وكانوا قد وعدوه بالرسل ، ومنوه بالرسائل ، أن يرضوا له الأمر ويجمعوا عليه البيعة . فشخص إليهم بقومه ، وكانوا لا يزيدون على الثمانين ، فيهم نساؤه وأولاده ، وهو يردد فى نفسه ما قاله لأخيه محمد فى وصيته : « إنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى أمة جدى ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد على هذا صبرت حتى يقضى الله بينى وبين القوم بالحق ، وهو خير الحاكمين » .

ولكن جيش يزيد وكله من أهل العراق اعترض سبيله إلى الكوفة وفى قلب قائده العدوان وعلى لسانه التحدى ، فقابل ابن زياد الحلم بالسفه ، والمنطق بالعناد ، والإباء بالتحرش ، وحمل الحسين حملا على قتال يائس ، ثم منعه ورد الفرات وأورده ظمآن حوض المنون ، فقتل سبط الرسول ومن معه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر !

— ٣ —

هاتان ذكريان يخطرهما على البال حلول شهر المحرم من كل عام : ذكرى هجرة الرسول ، وهى عيد انطلاق الدعوة المحمدية من حصار مكة ، وانبثاق

الرسالة الإلهية فى أفق المدينة ، وانعتاق الإنسانية كلها من رق الجهالة . وذكرى مصرع الحسين ، وهى مأتم الحق المقتول والحق المخذول والوحدة التى انصدعت فلم تلتئم منذ يومئذ حتى اليوم . لذلك يستقبل المسلمون عامهم الهجرى بوجهين مختلفين ومظهرين متباينين : بعضهم يذكر به انتصار المهاجر العظيم فيلقاه بوجه منبسط وقلب مغتبط ، وبعضهم يذكر به استشهاد المجاهد الكريم فيلقاه بصدر ملتاع ووجه مكتئب . ولو أن وحدتنا ظلت جامعة لاستقبلناه بوجه واحد ورأى جميع ، وتركنا فى ذمة التاريخ تلك المأساة التى شعبت الطريق وفرقت الإخوة وأوهنت العقيدة ، وفوضنا إلى مالك يوم الدين الفصل بين خصوم ذهبوا فى سبيل الغابرين منذ ثلاثة عشر قرنا وربع القرن ، فيسامحهم الله بفضله ، أو يجازيهم بعدله . وذلك هو الأحرى بأمة التوحيد ، وزعماؤها الذين ادخرهم الله لتجديد دعوته وتوحيد كلمته هم اليوم بسبيل التأليف بين القلوب ، والتوحيد بين المذاهب ، والتوفيق بين المصالح ، لينقطع الخلاف ويجتمع الشمل . وليس من الحكمة أن يختلف صحابيان فى صدر الإسلام ثم يظل الناس على اختلافهما يختلفون ، ولا من العدالة أن يأكل الآباء الحصرم والأبناء يضرسون .

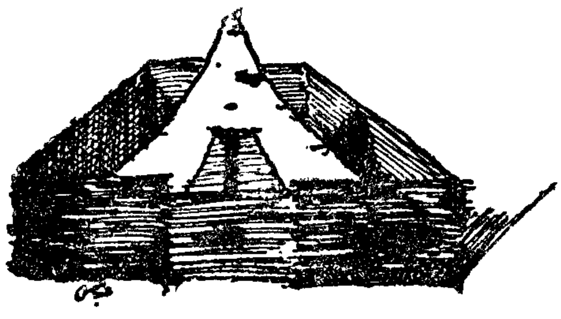

يومان من أيام رمضان : يوم القرآن ويوم الفرقان

يستقبل المؤمنون فى شهر رمضان ربيع القلوب ونعيم الأنفس وصيام الجوارح عن الأذى ، وفطام المشاعر عن الهوى ، بعد أحد عشر شهراً قضوها فى صراع المادة وجهاد العيش ، تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير ، فيجلو صدورهم بالذكر ، ويطهر نفوسهم بالعبادة ، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن فى دنيا الآمال والآلام بقية العام كله .
رمضان هو التمرين الرياضى السنوى للنفس ، يشترك فيه المسلمون فى جميع أقطار الأرض ، يصومون فى وقت واحد ، ويفطرون فى وقت احد ، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله ، فيغضوا أبصارهم عن المنكر . ويكفوا ألسنتهم عن الفحش ، ويصموا آذانهم عن اللغو ، يغلوا أيديهم عن السوء ؛ وتلك هى العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم . وهذه القيود والحدود التى تضمنها معنى الصوم هى المجاهدة التى تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة . وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم ، كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف ، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق . والرياضة الروحية هى حكمة الصيام فى الأديان كلها .

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة . وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » فالخوف من الله هو التقوى ، ونهى النفس عن الهوى هو المجاهدة . أما قول من قال إن حكمة الصوم هى أن يذوق الغنى عذاب الجوع

ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير فقول سطحى توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة ، فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معانى الصوم ، ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد .

خص الله شهر رمضان من بين الشهور بقيام الركن الرابع من أركان الإسلام فيه وهو الصوم ، ليومين من أيامه كان لهما فى تاريخ العالم أرفع الشأن ، وفى مصير الإنسان أبلغ الأثر : يومه السابع عشر من السنة الحادية والأربعين من مولد الرسول وهو يوم القرآن ، ويومه السابع عشر من السنة الثانية لهجرته وهو يوم الفرقان .

فأما يوم القرآن فى ليلته المباركة تجلى الله لجبل النور كما تجلى من قبل لجبل الطور فأنزل الروح الأمين بالإشراقة الأولى من كتابه الكريم على قلب نبيه العظيم ، فاستعلنت منذ تلك الليلة معانى الحق ، واستبانت سبل السلام ، واستقامت موازين العدل ، وخرج الناس من ظلام حالك كانوا يعمهون فيه ، إلى نور ساطع أصبحوا يهتدون به . ولقد كان لصباح هذا اليوم المسفر تباشير كانت تلوح فى حياة محمد صلوات الله عليه فى هذا الشهر من كل عام ، كان كلما أقبل شهر رمضان هجر المهاد اللين، وفارق الزوجة الحنون، وتزود الزاد اليسير ، ثم صعد جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة ، ليستعين بالصوم والاعتكاف والتأمل على استجلاء الحقيقة الإلهية التى خفيت بين جاهلية العرب ووثنية قريش ، وهناك على قمة الجبل المخروطى الشاهق ، وفى صمته الملهم الرائع ، وفى غيابة الفضاء الرهيب ، كان يفكر فى الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى فى الوجود المطلق . فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره فى أشعة القمر أو فى أضواء النجوم ، يستطلع المجهول ويستجلى الغامض ، ويرقب انبثاق النور عن الخالق ، وانكشاف الستور عن الحق ؛ حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة ، أوى

إلى الغار للوحش النابي فيستلقى على صخره سويعات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافى إلى الملأ الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة لتبليغ الرسالة .

ففى الليلة المباركة وهى ليلة القدر رأى وهو نائم فى الغار أن رجلا جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له اقرأ . وكيف يقرأ محمد الأمى ولم يتل من قبل كتابا ولا خطه بيمينه ؟ قال للرجل بعد أن راعه ما سمع منه وآذاه ما صنع به : ماذا أقرأ؟ قال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد انتقشت فى لوح قلبه .

* * *

وأما يوم الفرقان فهو يوم التقى الجمعان : جمع المدينة وجمع مكة فى بدر ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش ، فكان موقف الإسلام من الشرك يومئذ موقف محنة . كان بين العدوتين الدنيا والقصوى فى بدر مفرق الطريق : فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب . فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة . وإله وشيطان ؛ فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله فى هذا القفر . وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذا الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة . وما هى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب البدريون فى إشراق عجيب من الإيمان

لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحور ، ولا يصور فى أعينهم إلا الملائكة ، وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلاثمائة على قرابة ألف !

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها فى تاريخ الحرب ، وإنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم ، لأنها كانت حكماً قاطعاً من أحكام القدر غير مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا ومكن العرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله ويؤدوا أمانة الحضارة ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم .

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق . والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الحب والإيثار ، فلا تبالى المدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر .

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك . وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة ، عمراناً طبق الأرض بالخير ، وملكاً نظم الدنيا بالعدل ، وديناً ألف القلوب بالرحمة .

مكّنوا للأزهر فى إفريقيا الجديدة

أفريقيا التى غاب معظمها عن الوجود الإنسانى فى ظلام الجاهلية والوثنية والاستعمار والرق منذ دحا الله الأرض أخذت تنبعث وتنتعش وتتحرر . وكان هذا الانبعاث وما تلاه استجابة لنفخة الصور التى صدرت عن الثورة الناصرية فى مصر فدوى صداها فى أرجاء الشرق كله فأيقظ الراقد ونبه الغفلان .

وكان الإسلام من قبل ذلك قد أرسل بصيصا من نوره فى خلال هذه الظلمة الغاشية على أيدى المتاجرين من العرب والمهاجرين من المسلمين ، فرأى من هداهم به الله من الأفريقيين أن فوق الأرض التى يخيم عليها الظلام سماء ينبثق منها النور ، وأن للإنسان الذى استضعف واستغل إلها قاهراً فوق عباده يجعلهم إخوة بالإيمان وسواسية بالعدل ، فربأوا بإنسانيتهم عن الذل ، وضنوا بكرامتهم على الهون . إلا أن هذا البصيص ظل خابيا فى قلوبهم لا يشع ولا يشيع لانقطاعه عن مشرق الوحى ، فلم يصله به سبب من لغة الكتاب ، ولا ماتة من حديث الرسول ، فهم يحفظون بعض الآيات عن تلقين لا عن فهم ، ويؤدون كل الشعائر عن تقليد لا عن فقه ، ومع ذلك نفذت أشعة الإسلام من بين أطباق هذا الغمام إلى قلوب الوثنيين الآخرين فى سرعة الدعوة المستجابة ، لأنه دين الفطرة فلا تعقيد فيه ولا عسر ، ولأنه مظهر الوحدانية فلا وساطة فيه ولا سر ، فدان به فى الحبشة ثلاثة ملايين ومائتان وخمسة وأربعون ألفا وثلثمائة وتسعون ؛ وفى أوغندة ثلاثمائة وستون ألفا ؛ وفى الصومال الشمالى والشرقى والأوسط مليون وسبعمائة وستة وأربعون ألفا وثلثمائة وواحد وأربعون ؛ وفى زنجبار ثلاثمائة ألف ؛ وفى كينيا مائتا ألف . وفى تنجانيقا مليون ونصف ؛ وفى روديسيا ونياسالاند مائة وثمانية وثلاثون ألفاً ؛ وفى

موزمبيق ستمائة وخمسون ألفاً . وفى جنوب أفريقيا ثمانية وثمانون ألفا . وفى أفريقيا الغربية الفرنسية سبعة ملايين ونصف . وفى نيجيريا ثلاثة وعشرون مليونا ، وفى توجولند ثلاثون ألفا ، وفى غانا مائة وخمسون ألفا ، وفى غمبيا مائة وعشرون ألفا . وفى ليبريا نصف مليون ، وفى الكمرون نصف مليون ، وفى الكونغو أربعمائة ألف . وذلك إحصاء أتت عليه عشر سنين ، فمن الطبيعى أن يكون قد ازداد بالدخول فى الإسلام وبالولادة من المسلمين .

ولقد دهش لهذه الجاذبية فى الإسلام دعاة المسيحية ورواد الاستعمار من مبشرى الانجليز والفرنسيين والبلجيكيين والطاليان والأمريكان وتساءلوا فيما بينهم : كيف عجزوا عن تنصير الوثنيين بالطرق المؤدية والوسائل المغرية من تعليم وتطبيب وتمدين وإغراء بالمال وإيحاء بالقوة، حيث استطاع الإسلام الصامت الأعزل أن يتسلل ويتغلغل وينتشر من غير حكومات تسنده ولاجمعيات ترفده ولا مغريات تجذب إليه . ثم حاول المتخصصون منهم والمتفلسفون فيهم أن يجيبوا عن هذا السؤال وأن يكشفوا عن هذه الحال بالدرس والتحليل فلم يستطيعوا . فسلموا بالأمر الواقع وقالوا لا حيلة إلا أن نستغل هذه القوة الكامنة فى الإسلام فى إخراج الوثنيين البدائيين من الظلام إلى النور ، حتى إذا فتحوا أعينهم على أضواء مدنيتنا تهافتوا عليها تهافت الفراش . قال أحد مؤرخى الكنيسة وقد صار كردينالا مارجته : « إن الإسلام قنطرة للشعوب الأفريقية يعبرون عليها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فمن حقه أن نعامله بالمياسرة والحسنى ، ومن واجبنا أن نساعده على اتساع نطاقه وامتداد أفقه ، بإجراء الأرزاق على المساجد ، وتوفير الأموال للمعاهد ، ليكون رائداً لمدنية فرنسا فتفتح على يديه البلاد » .

هذه هى قوة الإسلام فى رأى المبشر ، وذلك هو أثره فى رأى المستعمر ، فكيف نعوق هذه القوة ونضعف ذلك الأثر بتركهما إلى الطبيعة ينفذان من

الحواجز والسدود كما ينفذ الماء اللين السلس بين جلاميد الصخر ! سيخرق الماء الحجر على طول الزمن ولا شك فيتدفق الشلال ويفيض النهر وتخصب الحياة . ولكننا لو نسفنا الحجارة من طريقه ، وكشفنا الركام عن منبعه ، اختصرنا الزمن وقربنا المسافة . والأداة التى تنسف وتكشف وتخط وترود هى الأزهر . والأزهر فى القاهرة والكعبة فى مكة هما الكلمتان اللتان تجمعان معنى الإسلام فى ذهن الأفريقى المسلم ، يتجه إلى المسجد الحرام فى معنى عقيدته ، كما يتجه إلى الأزهر الشريف فى معنى شريعته . ولم يقصر الأزهر فى مد القارة المظلمة بالنور على قدر طاقته وفى حدود إمكانه . فأرسل نفرا من فقهائه ووعاظه إلى الصومال والحبشة وبعض جهات أخرى . ثم رأى أن يكون هؤلاء الدعاة والهداة من أهل تلك الشعوب استرشادا بقول الله عزت حكمته : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » فأنشأ مدينة البعوث وآوى إليها طلاب العلم من شباب أفريقيا وآسيا وكفل لهم الغذاء والكساء والمسكن وأخذ يعرب ألسنتهم ويفقه أفئدتهم ، ويزودهم بوسائل الدعوة ليجلوا كلمة الله فى أذهان قوم لبستها عليهم العجمة والجهالة . وإن عدد هؤلاء الطلاب الأغراب ليربى اليوم على ثلاثة آلاف .

ولكنه عدد لا يزال أقل مما يطلبه الجهاد الروحى فى أفريقيا الجديدة : فإن تراجع الاستعمار عن أكثرها يفتح الأبواب ويهيىء الأسباب للمجاهدين فى سبيل الدين واللغة فلابد إذن من تمكين الدولة للأزهر فى هذه الأرض البكر بأن تمده بالمال وتسنده بالقوة ليحقق لها عن طريق الخير والحق ما كانت ترجوه فرنسا منه عن طريق الشر والباطل .

* * *

إن بذل المال والجهد فى معونة الأزهر يحرر أفريقيا الوثنية من عبودية الروح والعقل والجسد . وهو كسب سياسى ضخم حاول المستعمرون طويلا أن ينالوه بالدهاء والاغراء والدماء والزمن فما استطاعوا . ثم كانت عاقبتهم أن اجتثوا من فوق الأرض الطيبة كما يجتث النبات الطفيلى السام من حقول الحنطة ! ذلك بأنهم استعلوا على أصحاب الأرض ، فتميزوا عليهم بالقوة ، واستأثروا دونهم بالثروة ، وتركوهم للعرى والجوع والمرض والجهل والمشقة .

أما الإسلام فسيدخل فيهم دخول النور فى العين والسرور فى القلب والبرء فى السقم والصلاح فى الفساد والنظام فى الفوضى ، فلا يجدون فى مجتمعه سيدا لأنه أبيض ، إلا مسودا لأنه أسود ، وإنما يجدون الناس فيه أحرارا كما ولدوا ، وفاقد على واجد ، ولا يتسلط متساوين أينما وجدوا ، يتقاسمون بينهم طيبات الرزق وفرص العيش ، لا يتسلط قوى على ضعيف .

فإذ استبطنوه بالفهم الصحيح ، واستيقنوه بالإيمان الخالص ،رفعهم إلى أفق الإنسانية الحرة والإسلامية الكريمة ، حيث لا يتميز لون على لون ، ولا يستطار عنصر على عنصر ، وإنما يكون فيه أبو بكر وعمر وعثمان ، بجانب بلال وصهيب وسلمان !

إن الأزهر هو الثكنة المحمدية لجند الله ، اسلحتها المصاحف لا القذائف ، ووسيلتها الحياة لا الموت ، وغايتها التعمير لا التدمير ، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض . فإذا كان أولياء الأمر منا وأصحاب الرأى فينا حراصا على أن يكونوا كما جعلهم الله قوادا لحرية الشعوب ، وروادا لسكينة العالم ، فليضموا إلى ثكنات القوى العسكرية ، ثكنة القوة الأزهرية ، ليجمعوا بين أسلحة المادة وسلاح الروح ، ويوائموا بين مادية العلم وروحية الدين ، ويقيموا فوق أسواق

الرقيق التى أقامها الاستعمار فى إفريقيا المكروبة المنكوبة مآذن للحق ومنائر للهدى وملاجىء للحرية .

إن الفرصة متاحة للعمل ، وإن الأرض مهيأة للزرع ، وإن الأزهر مستعد للبذر ، فما على الدولة إلا أن تسوق السحاب إلى النفوس الظمأى فتروى، وإلى البلاد الميتة فتحيا . ويومئذ تلد أفريقيا الرجال ، وتستغل الاستقلال ،وتبرهن لأوربا البيضاء أن المرء بجوهره لا بمظهره ، وأن جوهر الإنسان واحد لا يختلف باختلاف لونه فى الناس ، ولا يتغير بتغير موقعه من الأرض .

الشعب الذي تحدى حلف الأطلسي

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله »

دلني إن استطعت بالعيان أو بالخبر ، فيمن بقي أو فيمن غبر ، على شعب غير الشعب الجزائري الباسل الحر ألح عليه الاستعمار الفرنسي الكافر الفاجر الأهوج بالقهر والفقر ، والعذاب والخراب ، وسلب الاستقلال ، وسوء الاستغلال ، وفساد التعليم ، ونسخ اللغة ، ومسخ العقيدة ، طوال ثلاثين ومائة عام ، ثم لا تزال في رأسه نخوة العروبة ، وفي نفسه حمية الإسلام ، وفي يده سيف الفتوح يذكر ولا ينسى أن له وطنا يحتله الغريب ويستغله المستعمر ، على ظهره الولد والبلد والرزق والأمل ، وفي بطنه الآباء والأجداد والأمجاد والذكرى ، فجاهد بالسيف ، وصابر بالعزم ، ورابط بالقوة ، ثم ابتلاه العدو في ماله وفي نفسه بالتقتيل والتنكيل والأذى فما وهن لما أصابه في سبيل وطنه ودينه وما ضعف وما استكان !

فلما أراد الله لمأساة الجزائر أن تبلغ فصلها الأخير سول الحمق والطيش لرئيس الحكومة الفرنسية (جي موليه) أن يختطف من الجو زعماء الثورة الجزائرية أحمد بن بيلا ورفاقه وهم في طريقهم إلى تونس ، فهب الجزائريون هبة الإعصار العاتي فزلزلوا الأرض الطيبة تحت أقدام الغزاة والفوازي فطاشوا طيش الفراش وألقوا بأنفسهم في نار الثورة . فلما أكلتهم أمدهم (جي موليه) ومن بعده (ديجول) بثلاثة أرباع المليون من جنود فرنسا ، يشد أزرهم حلف شمال الأطلسي بالسلاح والعتاد والمال ، ويقوي أسرهم خمسمائة مليون من الناس بالتعصب والهوى والرأي . كل هذا المدد وتلك العدد لقتال عشرة ملايين من الجزائريين لم يلق (لاكوست) منهم غير عشرة آلاف من الثوار العزل . فماذا كان مصير الجيش الجرار ، المسلح بالحديد والنار ؟ تخطفته المنايا من كل جانب ، وأدركته الهزائم في كل مكان ، حتى قال قائلهم : لا يمكن أن يكون هؤلاء الشياطين هم الآدميين الذين عرفناهم

هنا منذ قرن وثلث ، فربيناهم على الاستكانة ، ودربناهم على الطاعة ، وقتلنا فى نفوسهم الإسلام ، وأمتنا على ألسنتهم العربية ، وجهدنا بالظهير البربرى أن نجنسهم بالبربرية ، وأن نبشرهم بالمسيحية ، وأن نفصل بينهم وبين العرب فى الاقطار الأخرى ، فمنعنا دخول الكتب والصحف والمجلات ، وقطعنا أسباب المواصلات والمعاملات ، وأردنا أن نجعلهم قلة مستضعفة فى البلاد ، فسهلنا الهجرة للفرنسيين ، وأسكناهم أطيب البلاد ، وأقطعناهم أخصب الأرض ، وملكناهم مقاليد الأمور ، حتى أصبح الجزائريون فى رأينا مسوخا من غير جنس ولا لغة ولا دين ولا تاريخ ولا تقاليد ! لا بد أن يكون هؤلاء المردة من جنس غير الجنس ومن بلد غير البلد ، واتجهت وساوسهم نحو جمال عبد الناصر ، ثم أداروا عيونهم الزائغة فى البحر وفى الجو فرأوا سفينة تحمل السلاح إلى الجزائر فصادروها ، وأبصروا طائرة تقل الأبطال فاقتنصوها ، ثم فركوا أكفهم من السرور وصاحوا : لقد كسبنا المعركة ! عرفنا من أين يأتى السلاح ، وقبضنا على من يضربون به ! لا سلاح ولا ضرب بعد اليوم ! ثم بالغوا فى الحيطة وغالوا فى الحذر ، فنقلوا ابن بيلا وإخوانه الأربعة إلى فرنسا فى حراسة خمسة آلاف من الجنود الشداد كل رجل يحرسه ألف . وحملقت فرنسا فى وجوه المخطوفين المخوفين الذين أصلوها النار والعار وهى تحسبهم من أرض غير الأرض فإذا هم حفدة الأبطال الذين قهروا جيوشها سبعة عشر عاما بقيادة الأمير عبد القادر ، وأربعة عشر عاما أخرى بقيادة من خلفوه ، لا يزالون يحرون على أعراقهم من البطولة والصبر والتضحية لم تستطع أن تقتل فيهم الروح العربية بالتعليم المسموم والإبادة المنظمة والفتنة الشديدة والعزلة التامة والاحتلال الطويل . ولم تستطع أن تفصلهم عن قوميتهم العامة بالحواجز المادية والمعنوية ، ولا أن تخفت فى دمائهم أصوات القرون الأربعة عشر من التاريخ المشرق بأضواء النبوة الهادية والخلافة العادلة والفتوح المحررة والحضارة المعمرة . فما هو إلا أن فعلت فعلتها الحمقاء

باختطافها الزعماء حتى ثارت فى نفوسهم حمية الجنس وطفت فى رءوسهم حفيظة الدم فغضبوا وغضب لهم خمسة وثمانون مليونا من بنى عمومتهم من مراكش إلى الكويت . وكان مظهر هذه الغضبة إضرابا عاماً شل الحركة فى جميع البلاد العربية يوما من الأيام ! ولم نعلم فيما وعاه التاريخ انتفاضة إجماعية كهذه الانتفاضة من أمة زعم الاستعمار أنه مزقها دولا وأوطانا لكل دولة رسوم ولكل وطن تخوم .

إن ثورة الجزائر التى ظلت ست سنين مستعرة الأوار تأكل الأرض وما عليها من إنسان وحيوان وعمران وزرع ، هى كما ذكرت الفصل الختامى لمأساة ظلت تمثلها فرنسا على مشهد من العالم أربعة أجيال كوامل . وعما قريب سينسدل الستار على أشلاء الاستعمار وأطلاله وأوزاره فى أرض الفاتح العربى عقبة بن نافع ، وسيرى الجزائريون أن وطنهم بفضل مابذلوا فى سبيله من أنفس وأموال قد تطهر من المحتلين المتطفلين الذين رتعوا فى مرعاه الخصيب ثلاثين ومائة عام يخضمون أرزاقهم خضم الخنازير ، ويحتلون بلادهم احتلال الصراصير ، ويفسدون أخلاقهم إفساد الجراثيم . على أن النفوس التى قتلت ستعوضها الولادة ، والديار التى هدمت ستجددها العمارة ، والزروع التى أهلكت سيعيدها الغراس ؛ ولكن قتيلين من قتلى هذه الحرب الطحون لن يعوضا لا بالولادة ولا بالعمارة ولا بالغرس ، هما شرف فرنسا وضمير العالم ! أما شرف فرنسا فإنه لو كان باقياً لما استجاز بنوها الذين يزعمون أن آباءهم كانوا أول من ثار على الطغيان وأعلن حقوق الإنسان أن يغيروا بسبعمائة وخمسين ألفاً منهم مسلحين بأفتك الأسلحة وأحدث العتاد على عشرة آلاف منا لا يملكون سلاحا غير الإيمان ، ولا عتاداً غير الصبر ، ولا زاداً غير لقيمات لا تكاد تمسك الرمق . فلما أعياهم النصر على هذه الفئة الصابرة المتفرقة على شعاف الجبال ومخارم الأودية ومكامن الطرق ، عادوا إلى الشيوخ والنساء

والأطفال فسحقوهم بالقنابل ومزقوهم بالرصاص ، ولا ذنب لهؤلاء وأولئك إلا أن لهم كيانا متميزا يحافظون عليه ، ووطناً خاصا يدافعون عنه .

وأما ضمير العالم فإنه لو كان حيا لما سكن سكون الجماد وقر قرار الحجر فى رجفة من الصراع الحيوى الدموى دام ست سنين بين دولة كبيرة تريد أن تسمن وتطيش ، وأمة صغيرة تريد أن تأمن وتعيش !

لقد قتل الفرنسيون فيها مليونا من شباب العرب الأبرار على حين ظل العالم الغربى يتفرج بمشاهد الدماء والأشلاء فى ساحة الجزائر ، كما يتفرج الأطفال بصراع الدمى على مسرح العرائس !

ولكن قل لى بربك : هل كان الضمير العالمى حيا يوم رضى أن يخرج الاستعمار مليون عربى من ديارهم وأموالهم ليمنحها عدوة الله وعدوة الناس اسرائيل ؟

إن ضمير العالم احتضر فى فلسطين ثم قبر فى الجزائر ، فلم يبق المجاهدين الجاهدين إلا روح الله وعون الأحرار ونخوة العرب !

ثوراتنا الثلاث تعوزهن رابعة

تعيش الجمهورية العربية المتحدة اليوم فى ثورات ثلاث كما قال بحق وفمل بصدق مثيرها العظيم جمال عبد الناصر : ثورة سياسية تحقق الحرية وتثبت الاستقلال على الوحدة والحيدة . وثورة اجتماعية تحقق الديمقراطية وتبنى المجتمع على المساواة والتآخى . وثورة اقتصادية تحقق الاشتراكية وتقيم الثروة على العدل والتعاون .

وهذه الثورات الثلاث هى جماع القوى العاقلة العاملة للشعب أخرجتها من السكون والكمون والتعطل يد مصرفة حازمة ، تحكم لتصلح ، وتهدم لتبنى ، وتحرث لتزرع .

فالبلاد كلها من أسوان إلى القامشلى[1] عزمة لاتنى ، وحركة لا تفتر ، وزحف لايقف . ولكن هذه القوى الثائرة المعمرة لا تستطيع وحدها مهما تنشىء وتنتج أن تكفل لابن آدم المجتمع الذى يجدر به إلا إذا اعتبرناه حيوانا له معدة وليس له قلب ، وله شهوة وليس له عقل ، لا إنسانا ينزل بين خلق الله فى المنزلة الوسط بين البهيم والملك ، يكون بماديته مرتبطا بالأرض ، وبروحيته متصلا بالسماء .

نعم ، تستطيع الثورات الثلاث بقواها المادية والفكرية أن تلين الحديد ، وتزرع الصخر ، وتقهر النيل ، وتنشر المعرفة ، وتبسط الرخاء ، وتيسر الأداة والحياة للعامل والفلاح ، وتوفر القوة والعدة للجيش والشرطة ؛ ولكنها لا تستطيع أن تضع التقوى فى القلب الأغلف ، ولا أن تبعث الحياة فى الضمير الميت . اننا أصبحنا فى مدى ثمانى سنوات أمة على وجه الدنيا وفى جبهة الركب ، نقول فنُسمع ، ونطلب فنجاب ، ونعمل فنجد ، ونزرع فنحصد ، فى ظل حكم ديمقراطى عادل ، ونظام

---

(١) القامشلى أقصى بلد فى شمال سورية .

اشتراكى معتدل ، يضمنان للفرد مساعدة الكل ، ويكفلان للكل مساندة الفرد ، ثم لا يزال فينا المرتشى والختاس واللص والمزور والمستهتر والهدام والمنافق والخائن ، ومن يستحب العمى على الهدى ، ويؤثر منفعة نفسه على منفعة الناس . لابد إذن لهذه الثورات الثلاث من ثورة رابعة تقوم لهن مقام الروح الملهم والشعاع الهادى : هى الثورة الدينية ! ولعل الذوق التقى لا يستسيغ ذكر الثورة بجانب الدين ، لأن مفهومها الذى استقر طويلا فى الأذهان يتضمن التمرد والتهور والاستبداد والاضطهاد والقتل ؛ ولكن هذا المفهوم قد غيرته الثورة الناصرية — وهى الثورة الأولى فى بابها من تاريخ الإنسان — فلم يبق منه إلا التحرير والتطهير والتعمير والتطوير والإصلاح . لذلك لم تخضب صحائفها البيض بالبقع الحمر ، ولم تسبل على منكرات العهد الذاهب غير ستار المعروف . وعلى هذا المفهوم الجديد للثورة نريد ثورة الدين . والدين بطبيعته وحقيقته ثورة مستمرة : ثورة على الفساد والشر ، وحرب على البغى والعدوان . وما دامت هذه الكبائر فى الأرض فالثورة دائمة والحرب قائمة ، إنما نريد إذكاء شعلتها وإعلاء سناها لتجد فيها ثورتنا العامة القبس الذى يحييها بحرارته ويهديها بنوره . والمصلح الذى أرسله الله على فترة من المصلحين ليجدد ما اندرس ويبين ما انطمس ويقيم ما انهار ، هو الذى يستطيع أن يرفع الإعجام عن كلمة الله ، ويدفع الإبهام عن رسالة محمد . وهو يدرك فيما أدرك من فساد الحكم وعبث السياسة وبغى الإقطاع أن الوازع الدينى قد ضعف فى نفس المسلم ، لأن نور الإسلام قد انكفأ فى قلبه أو انطفأ فى ضميره ، فلم يعد إسلامه إسلام الصدر الأول الذى فتح الدنيا فى عهده وأضوى العالم إلى كنفه ؛ وإنما أصبح خلطا عجيبا من العقيدة السالفة والصوفية الزائفة والأساطير الموروثة والتقاليد الدخيلة . يوهم معتقديه أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا ، وأن المسلم ليس من همه المادة ، وأن ما هم عليه من رثاثة العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعوب إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة . ثم لا يعدمون أن يجدوا مصدقا لما

يتوهمون فى بعض ما يسمعون أو يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والآراء الملفقة ؛ فإن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة ، وسرت إليه كل علة ، وتراءت فيه كل حالة . فكل امرىء واجد فيه ما يلائم استعداده ويناسب فهمه . فالثورة الدينية بالمعنى الذى ذكرته هى تحرير العقل من الاقتداء العاجز والمتابعة المسلمة ، وتطهير السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة ، وتطور الفقه فى حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول ، ليطابق مقتضيات العصر ، ويجابه مشكلات الحضارة ، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافى على الناس فى معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم .

ذلك ما يجب أن يدخل فى تخطيط الجمهورية للسنين العشر القادمة ؛ فإن النص فى الدستور على أن الإسلام دين الدولة لا يحقق معناه إلا إذا كان للدين الأثر الفعال فى التربية والتعليم والتشريع والسلوك . والأزهر بفضل ما مكن الله له فى التاريخ ، وهيأ له من الموضع ، وأتاح له من الكفاية ، أقدر ورّاث النبوة على تبليغ الرسالة العظمى وتوجيه الأمة الكبرى إذا تسنى له أن يؤدى رسالته على المرسوم الذى رسمته الثورة ، وبالمفهوم الذى أعلنه المؤتمر العام للاتحاد القومى إذ قال : « يعلن المؤتمر - إيمانا بالدور الخطير الذى يؤديه الأزهر الشريف فى معركتنا المقدسة دفاعا عن عروبتنا وقيمنا الروحية - تمسكه بضرورة العمل على دعم هذا المعهد الإسلامى الجليل حتى يستمر منارة ترسل أشعتها العلمية والروحية إلى أرجاء العالم ، - وتمكيننا له من مسايرة تطورنا الحاضر - يوصى المؤتمر بضرورة العمل على أن تؤمن للأزهر الوسائل ليكون أداة صالحة لخدمة أهدافنا الروحية والقومية من تحرير الوطن العربى ، وتحقيق وحدته الشاملة فى إطار مفهومات القومية الحقيقية » .

* * *

أما رسالة الأزهر فجماعها حفظ التراث الإسلامى وتنقيته من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والبدع الضارة ، ثم نشره على العالم عن طريق التعليم والتأليف والترجمة والدعوة .

وسبيله إلى ذلك — فيما أرى — أن يمكن من جمع هـذا التراث المتفرق المشوش فى ثلاثة أسفار : سِفر فى التفسير نشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الرواية الصحيحة والعلم الثابت ، ويجمع بين ما صح من أقوال السلف وما صلح من آراء الخلف . وسفر فى الحديث يدون به ما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة . وسفر فى الفقه يشمل ما تواتر من الأحكام وصح من المذاهب وسلم من الآراء ، ثم يوضع متنه مواد كالقانون ويشرح شرحا فنيا يستوعب أصوله ويستقصى فروعه فى غير حشو ولا استطراد ولا تعمية .

هذه الأسفار الثلاثة ستكون مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى ، ثم يجرد منها مختصرات تدرس فى المدارس وتنشر فى الجمهور وتترجم مع المطولات إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب ، ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه .

أما ما عدا ذلك فما كان صحيحا بقى فى المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ ، وما كان زائفا صنع به ما صنع عثمان فى كل مصحف غير مصحفه ، فإن الإبقاء على الزيف من الأحاديث والآراء لبس للحق بالباطل ، وطمس للنور بالظلام ، وتعمية للطريق على السالك .

أذكر أن أحد الأساتذة الكبار عليه رحمة الله قدم رسالة بالفرنسية إلى (السربون) عن (حال المرأة فى الأسلام) نال فيها من خلق الرسول وشرعه وسلوكه . فلما أنكر عليه من أنكر استدل على كل ما ادعى بأحاديث مروية فى طبقات ابن سعد وفى الشفاء للقاضى عياض . ولما ردوا حجته بأن هذه الأحاديث موضوعة قال : وما يدريني أنها موضوعة والكتب التى نقلت عنها

معتمدة متداولة ؟ وأشباه هذا الأستاذ ممن ضللتهم النقول وخدعتهم الكتب يخرجون على الناس كل حين بالرأى المجازف أو الكتاب المخالف ثم لا ينبههم نقاد الحديث إلى أن ما نقلوه منحول أو مدخول إلا بعد أن يكون الرأى قد سار والكتاب قد انتشر ! فلو أن هذه الأحاديث المفتراة لم تكن منشورة على العيون يقرأها من لا يميز بين ما اتصل منها وما انقطع لما طارت الشبه والظنون حول العقيدة . فالثورة الرابعة غرض من أغراض الثورة ، وضرورة من ضرورات الإصلاح ، ووجيبة من وجائب الأزهر . فإذا شبت مع الثورات الأخرى فكسحت الغثاء ونفت الخبث وطهرت شريعة الله من سموم البدع ، ونقتها من شوائب الفرق والشيع ، فوردها الناس صافية كقطرة المزن خالصة كفطرة الله ، كانت جديرة بأن تبنى للعرب المجتمع المثالى الذى يسير على صراط الله بهداية الحق ورعاية العلم ورقابة الضمير ، فلا تجد فيه متى يكتمل بناؤه المخازى التى تقترف فى الدواوين ، ولا المآسى التى تمثل فى البيوت ، ولا المهازل التى تشاهد فى الطرق ، ولا المساوئ التى تحدث فى التعامل . ويومئذ يغتبط المصلحون بفتح الثورة ، ويعتز المواطنون بعز الوطن ، ويفرح المؤمنون بنصر الله .

الثورة الرابعة تتحقق

كنا على هذا النحو العلمى للمأمول نفكر ، وكان الرئيس جمال على نحوه العملى الواقعى يدبر ، فرأى كما رأى المصلحون من قبل ، أن العالم لا يصلح إلا بالدين ، وأن الدين لا يتجدد إلا بالأزهر ، وان الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر ، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو ، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره .

ثم رأى كما رأى المصلحون من قبل أن خمسة وأربعين ألفاً من شباب الأمة فى الأزهر ، فيهم مواهب وعليهم تكاليف ولهم مستقبل ، فمن حقهم أن يتعلموا ليعيشوا ما دام الإسلام لايتبنى الرهبان ولايبتنى الأديرة . ولن يستطيعوا أن يعيشوا إلا إذا نزعوا بأنفسهم عن معرة التخلف ، وشاركوا فى علوم الحضارة وسايروا عقلية العصر وأرادوا الدين للدنيا وطلبوا العلم للحياة ، ثم وضع على أساس ما رأى وعلم قانون الأزهر الجديد فجعل به الجامع جامعة ، والدين سبيلا ، والعلم دليلا ، والعلماء قادة . ثم مكن له بإنشاء المجمع العلمى للبحوث الإسلامية أن يحرر العقل من التقليد الأعمى والتسليم العاجز ، وأن يطهر السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة ، وأن يطور الشريعة فى حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول ، وأن ينقى العقيدة من المذاهب الباطلة والبدع الضارة ، وأن ينشر الإسلام الصادق الصافى على الناس فى معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم .

ثم أتاح له بما أضاف إلى كلياته الإسلامية والعربية كليات مدنية أخرى للمعاملات والإدارة والهندسة والصناعات والزراعة والطب أن يسند بيد الله

أيدى العاملين فى بناء المجتمع الصالح ، ويشارك بتقوى الله فى تفريج أزمة الضمير ؛ فيخرج العالم المجتهد الذى يجعل من فقهه رسالة ومن بيانه دعوة ، والطبيب الذى يجعل من عيادته عبادة ومن مرضاه إخوة ، والمهندس التقى الذى يجعل من عمله جهاداً ومن خلقه قدوة ، والموظف المتدين الذى يؤثر رضا ربه على رضا نفسه فى كل نزعة أو نزوة . وهذا هو الإصلاح الجوهرى الشامل الذى تمنى بعضه أئمة الأزهر الأربعة المصلحون من الإمام محمد عبده ، إلى الإمام محمود شلتوت ، فلم يجدوا من الحكم والسلطان سبيلا إليه ولا معينا عليه ، وكأن الله رب الأزهر قد ادخر نعمة تحقيقه لرئيس الدولة جمال ، ونعمة تطبيقه لشيخ الأزهر شلتوت . ذاك لإخلاصه وصدقه وجهاده ، وهذا لعلمه وورعه واجتهاده ، وهما نعمتان سيكون لهما فى تاريخ الإسلام شأن أى شأن ، وفى مستقبل العروبة أثر أى أثر . وستكون مشيخة شلتوت للأزهر عنوانا بارزا فى تاريخه ، يفصل بين ماض كان محدود الأفق محصور المجال لا يجد أهله ميسور الرزق ولا موفور الكرامة ، وحاضر سيكون رحب الجوانب واسع المضطرب يتمتع فيه أبناؤه بالمساواة فى الحق والواجب ، ويتكرم به علماؤه بالمشاركة فى الخدمة والإنتاج . يندمجون فى الشعب ولا يعيشون على هامشه ، ويتغلغلون فى البيت ولا يقفون ببابه ، ويتقدمون الركب ولا يسيرون فى ساقته .

لم يعد للمصلحين ما يرجونه ، ولا للأزهريين ما يشكونه . لقد ظفروا لجامعتهم الخالدة فى يوم وليلة بما طالما استرسلوا بآمالهم إليه وحاموا بنفوسهم عليه : ظفروا بالأصل الذى يرسو فى أعماق الغابر ، وبالفرع الذى يتشعب فى آفاق الحاضر ؛ بالقديم الذى يحفظ التراث فلا يتبدد ، وبالجديد الذى ينمى الموروث فلا يتضاءل .

لم يبق إلا أن يثبت الأزهريون — وسيثبتون على ما أعتقد — أنهم أجدر بهذا النظام وأذكر لهذه النعمة وأشكر على هذا الفضل . وخير الذكر والشكر

ماصدرا عن يقين ووردا على فعل . والقول المؤمن إذا صحبه العمل الصالح لا يدع محالا إلا أمكن ، ولا بعيدا إلا دنا ، ولا ناقصا إلا استكمل .

فنجاح هذا النظام أوله وآخره فى أيديهم . هم الذين سيضعون المنهج ويؤلفون الكتاب ، وهم الذين سينفذون القانون ويطبقون اللائحة . فإذا ساروا بالإصلاح الجديد على الخطة القديمة ، فلم يغيروا إلا فى الصور ، ولم يبدلوا إلا فى العناوين ، كان قانون الأزهر بين أيديهم أشبه بدستور ما قبل الثورة بين الأحزاب : جمع أحدث الآراء من دساتير الأمم ثم كان بين حقيقة وضعه وباطل تطبيقه كالمصحف فى بيت الزنديق ، أو كالمصباح فى غرفة الأعمى : « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن قصارى ما أقوله اليوم فى هذا التطوير الشامل الكامل للأزهر أنه يحقق ما تمنيناه وتمناه معنا المخلصون لدين الله ولغة كتابه وسنة نبيه وفقه شريعته : به يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك فى جديد الناس . وبه تمحى الفوارق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب . وبه تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويسهم الأزهر فى شركة المدنية وقيادة العالم .

وطننا يصنع المعجزات

نعم يادكتورة نعمات ! وطننا يصنع المعجزات ، ولـكن متى ؟ لم يصنعها الا وهو حر لنفسه خالص لبنيه . . .

صنعها قبل احتلال قمبيز ، وهو يصنعها اليوم بعد جلاء الانجليز . صنعها قبل الاحتلال الفارسي سنه ٥٢٥ قبل الميلاد فثقف العلم من غير تلقين ، وابتكر الفن من غير مثال ، وشرع الدين من غير وحى ، وأنشأ الحضارة من غير سابقة ، واشتق الكتابة من غير أصل ، ثم اعتقد الخلود فصنع المعجزات لتحقيقه : خلد الجسد بالحنوط والتماثيل والأهرام ، وخلد النفس بالصور والمحاريب والمعابد ، وخلد الذكر بالمسلات والقصور والخط . ثم جعل نفسه رسولا للشمس يرسل أشعتها فى كل أفق ، ويبعث حرارتها فى كل حى . فكان وطنناهو المنارة الأولى التى سرى على هديها ركب الخليقة ، والمنبع الأول الذى نبتت على كوثره حضارة العالم .

وهو اليوم يصنع المعجزات بعد الجلاء البريطانى سنة ١٩٥٦ ، يصنعها باقامة السدين العاليين فى وقت واحد : يقيم السد العالى الاقتصادى فى جنوب أسوان ليحول بيننا وبين الفقر ، فيزيد رقعة الأرض الزراعية مليونى فدان ، ويرفع الدخل القومى السنوى ٣٥٥ مليون جنيه ، ويقيم السد العالى السياسى فى شمال بور سعيد ليحول بيننا وبين الاستعمار ، فلا يدنس ثرى الوادى دخيل ، ولا يكدر ماء النيل واغل .

وكان وطننا الذى تغنيت بمجده يادكتورة نعمات فى مقالك الشعرى الجميل

بين حاول قيمبيز ورحيل الانجليز نهبها للغزاة والمغيرين من كل جنس ومن كل أرض ، تعاقبوا عليه بالقهر والفقر فأخمدوا فى رأسه النبوغ ، وأماتوا فى نفسه العزة ، وربطوا يديه ورجليه وعينيه بالأرض فلم يعرف أن فوقها سماء فيها الروح والرفعة ، ولا أن وراءها حدودا فيها الطموح والامل .

وظل شعبنا الكريم المنصر ٢٤٨٣ سنة على هذه الحال الاليمة ، يعمل بعضله كالعبد ، ولا يتصرف بعقله كالسيد ، حتى تعطلت قواه الروحية والذهنية فلم يستطع فى خلالها أن يخلق بطلا ولا أن يصنع معجزة!

أن أشرق الصفحات فى تاريخنا القديم صفحات الراقد فى (الرمسيوم) الماثل فى ميدان محطة القاهرة رمسيس الثانى ، ومنذ انقضى عهده تضيفت شمسنا الغروب فذب إلينا فى الظلام اللوبيون من الغرب ، ثم الأحباش من الجنوب ، ثم الاشوريون من الشمال ، ثم الفرس من الشرق ، فثلوا عرش فرعون وسلبوه ملك مصر . ثم دجا الليل وطال حتى نسينا النور وضللنا طريق الحياة .

وإن أشرق الصفحات فى تاريخنا الحديث صفحات الجالس على كرسى الجمهورية ، الماثل فى كل قلب من القلوب المصرية ، جمال عبد الناصر ، فمنذ أتاحه الله لمحو ما كتبه المقدور على وطننا من الذل ، ووصل ماقطعه المنير من تاريخنا الحر ، تنفس الصبح ، واستفاض الضوء ، واستبان الطريق، فملأنا الوجود ، وملأنا الصدر ، وشغلنا الناس ، وتهيأت للوطن أسباب القوة لخلق البطل وصنع المعجزة !

من حديث الفدائيين

نشأ ابراهيم (وليس هذا اسمه فقد نسيته) نشأ فى بيت من البيوت الضيقة الخانقة بزقاق من أزقة طنطا المهملة ، وكان أبوه قد نزح من قريتنا الى عاصمه الغربية ابتغاء للرزق ، فعمل حاجبا فى إحدى المحاكم الشرعية ردحا من الزمن ثم انتقل اخيرا الى القاهرة . وكان قد تزوج منذ تيسر له العيش امرأة فقيرة من أسرة كريمة فولدت له على الفراش الخشن ثلاثة بنين وثلاث بنات أكبرهم جميعا ابراهيم .

ومن نكد الدنيا على هذه العائلة الكبيرة الفقيرة أن غلبت على عائلها الوحيد نزوات النفس وشهوات البطن فكان ينفق أكثر مرتبه على هواه . وعجز بالطبع عن تعليم أولاده فوقف بهم وبهن عند المرحلة الالزامية ، ثم نفض يديه من أمورهم وألقى أزمتهم الى أيدى المقادير ! وقتر عليهم فى النقد فذاقوا مرارة الجوع وشكوا رثاثة اللباس .

وجاشت الهموم فى صدر الأم وساورها القلق على حاضر بيتها ومستقبل بنيها . وكان ابراهيم قد جاوز حد الصغر فأجرته صبيا فى مطعم قريب فكان يعود اليها أول الليل ببعض القروش وبعض الطعام فينفرج عن العائلة بعض الضيق .

وتدفق الأب فى لهوه واستهتر فى غيه حتى كان يبيت أكثر الليالى فى غير بيته ! ووجد ابراهيم نفسه رب البيت وعائل الأسرة فأرهف ذلك من نشاطه وضاعف من سعيه ، فزاول أشق الأعمال وتوخى أقرب المكاسب حتى أسبل الستر على فقر اخوته ، وأدخل الطمأنينة على قلب أمه

وكان ابراهيم منذ ترعرع يتبع المظاهرات الوطنية فى طنطا فيهتف للوطن ،

ويشتبك مع الشرطة ، ويبيت أحيانا على الأسفلت بالقسم ، وكلما لقى العنت من جنود الشرطة ورأى الشطط من رجال السياسة امتلأ صدره بالسخط وفار دمه بالحماسة .

اضطرب حينا مع الوفد ، وجاهد حينا مع (الاخوان) ، ثم كفر بهؤلاء وهؤلاء لاختلاف وجهتهم مع الوطن وتعارض غايتهم مع الدين ، وانصرف الى السعى على أهله ، حتى جد الجد وأغار العدو على القناة ودعا داعى الوطن الى الفداء ، فقامت بنفسه رغبة شديدة فى التطوع للجهاد والتبرع بالروح . فقالت له أمه ودموعها تتقاطر على وجهها الشاحب :ـ

الى من تتركنا ياابراهيم وأبوك قد أنكر أولاده وهجر بيته ؟

ـ الى الله ياأماه ! ولاأشك فى أن أبى سيؤويكم الى جناحه بعد رحيلى . فان الضمير مهما تخدره المعصية سيصحو . وإن الدم مهما تعكره القسوة سيروق ، والله الذى خلق لنا الأشداق ، قد ضمن لها الأرزاق . ومصر أمى وأمك ، فاذا دعت فهى أولى بأن تجاب . وسأجيب دعاءها ياأماه ، وسأعود إن شاء الله اليها بالنصر واليك بالفخر !

وعجز نحيب الأم ونشيج البنات وتوسل الجيران عن صرف الفدائى عن وجهته وقطعه عن عزمه ، فانتظم ابراهيم فى كتائب الموت وانقطع خبره عن أهله .

وأبلى الفتى على القناة ثم على الحدود البلاء الحسن مع رفاقه الذين نذروا دماءهم لله ، فأقضوا بالرعب مضاجع الانجليز ، وفزّعوا بالهول مواطن اليهود ، وفلوا بالجيوش المدربة والأسلحة الفتاكة ما تفعله العاصفة الهوجاء بالشجر الفينان الغض !

وفى إحدى الغارات النادرات التى لا تحسن غيرها إسرائيل استشهد إبراهيم

هو ونفر من رفاقه ، فرفرفت فوق أجسادهم الأعلام ، واحتشدت لتحيتهم الكتائب ، وسارت فى جنازتهم الأمة ، وأبنهم على المقبرة المعطرة عبد الناصر ، وأطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع ، ودفعت القيادة الى أسرة كل شهيد مائتى جنيه نفقة على مأتمه .

وكان أبو إبراهيم لهذا المال بالمرصاد فدسه فى جيبه ، وأوهم زوجته وبنيه أنه هو الذى أنفق ! وترامى إلى الأم بعد أيام ما أخذ الأب فشكت إلى قيادة قوة الحرس الوطنى أمرها ، وقصت على القائد خبرها من يوم فارقها الزوج الهاجر الى يوم فارقها الابن الشهيد .

فمحا القائد عنوان الوالد وأثبت عنوان الوالدة ، وأرسل اليها على هذا العنوان التعويض السخى الذى ضمن لها ولابنيها وبناتها العيش الشريف مدى الحياة .

ورأى الزوج أن الخير كله قد أصبح فى يد زوجته فعاد اليها ذليل النفس خاضع الإرادة فالتأم الشمل وصلح الأمر واتسعت الدار

وهكذا كان موت الفدائى حياة لأمته وسعادة لأسرته !

أول ما عرفت جورجي زيدان

كان ذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة من هذا القرن . وكنت حينئذ مدرسا للغة العربية وأدبها بكلية الفرير بالخرنفش من القاهرة . ثم زادونى حصة كل يوم بمدرسة الفرير الابتدائية بالفجالة . وكان تلاميذى بهذه المدرسة من الصبية الذين تختلف أسنانهم بين الثامنة والعاشرة ، وأكثرهم من أبناء الجالية اللبنانية التى تكثر فى هذا الحى ، فكانوا صباح الوجوه حسان الهندام، ولكنهم كانوا من حيوية الطفولة ومرح الحداثة فى حركة دائمة وزقزقة مستمرة ! فكنت أتسع لهم حينا فأنذرهم باللسان ، وأضيق بهم حينا فأزجرهم باليد .

وكان من بينهم صبى خفيف لايكاد يستقر على حال ولا يستمر على وضع . لايكتفى بالعبث فى موضعه ولا بالحديث مع جاره ، وإنما ينتقل من درج الى درج ، ويقوم من تلميذ الى تلميذ : يأخذ من هذا أيقونة أو صورة ، ويعطى ذاك لعبة أو « بلية » . وفى حالى الأخذ والعطاء لابد من كلمة مسموعة أو حركة خشنة أوضحكة مرتفعة . فكنت أستدعيه الى وألويه بالكلمة اللينة وأمنيه « بالعلامة الطيبة » فيسكن قليلا ثم يثقل على أعصابه السكون فينفجر بالحركة انفجارا يزعج هدوء الأطفال ويهوش نظام الفصل . فأستدعيه ثانية وأستبقيه بجوار المنصة ، رجلاه مصفوفتان ويداه مرسلتان ووجهه الى الحائط . فلا يلبث على هذا الوضع الا دقيقة أو أقل ثم يهز كتفيه ويطلق يديه ، ثم يستدير بوجهه ويرسل عينيه فى جوانب الفصل فتشخص اليه الأبصار. وتفتر له الشفاه وينتظر الاطفال ماذا يكون من أمر هذا البطل الذى يتحدى سلطان المعلم . فلم أجد بدا من ضربه « علقة » على يديه بكعب الكتاب . فتلقى الضربات كاظما على جرته حتى انتهيت ، ثم مضى مسرعا الى مقعده وكفأ وجهه على يديه فوق الدرج وأخذ يبكى . وخشع رفاقه من

الخوف فلزموا الهدوء، وأحسنوا السماع حتى دق الجرس.

وفى اليوم التالى أقبل على فى أول الحصة هذا التلميذ المتمرد وقد اتخذ هيئة الرجل الجاد وسمت الغاضب المبتسم فألقى الى رسالة كانت فى يده ، ثم عاد الى مكانه فى هدوء وقعد فى صمت . ففضضت الرسالة فاذا فيها مانصه :

أستاذنا الفاضل

« ولدك وولدى شكرى زيدان يشكو من أن معلمه لايعامله بالعطف الذى يعامل به الآخرين ، وأنه قسا عليه بالأمس قسوة لم يتعودها منه . والأطفال بطبيعتهم يبالغون . ولكن الأستاذ الفاضل يتفق معى على أى حال فى أن أنجع الوسائل فى التربية الحديثة هى تحبيب الأطفال بالنظام والعمل من طريق الملاينة والحيلة . وأرجو مستقبلا أن يجد الأستاذ من تلميذه ما يحب من الطاعة ، وأن يجد التلميذ من استاذه مايرغب من العطف . وأنتهز هذه الفرصه لأقدم إلى الأستاذ تحيتى . . .

المخلص

« جرجى زيدان »

طويت الرسالة ووضعتها فى جيبى لأعيد قراءتها بعد . ونظرت الى شكرى وكان يحاول أن يقرأ أثرها وجوابها فى وجهى ، فابتسمت له وابتسم لى ، وجرت الريح بينى وبينه رخاء بالسلام والحب حتى انقضى العام . وباعدت بيننا مفارق الطريق واتجاهات الحياة فلم أره إلى اليوم !

عدت إلى الرسالة فقرأتها مرة أخرى ، ثم أخذت أصعّد النظر فيها وأصوبه وأنا أقول لنفسى : إذن هذا الصبى المضروب هو ابن جرجى زيدان ، وهذا الكلام المقروء هو كلام صاحب الهلال ، وهذ الأدب الرفيع هو أدب مؤرخ الإسلام ! لقد قرأت لصاحب هذه الرسالة القصيرة ووالد هذا الرسول الصغير ، كل ما كتب من قصص وألف من كتب ونشر من بحوث ، فنشأت بينى وبينه

على البعد تلك الصلة الروحية التي تصل بين الفكر الناشيء والفكر للمنشيء ، وتربط بين الطالب المريد والأستاذ الواصل .

وكان جرجي زيدان يومئذ قد انفرد في العالم الاسلامي كله بالتأليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ العروبة والأدب والحضارة والاسلام بالأسلوب الواضح والتقصي العجيب والعرض الطريف ، فكان ما ألفه من الكتب في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وتاريخ اللغة العربية ، وتاريخ التمدن الاسلامي ، وتاريخ آداب اللغة العربية ، وما أنشأه من القصص التاريخية الاسلامية على نحو ما فعل ولترسكوت ، فتحا مبينا في ميدان الثقافة العربية قرب الموارد لكل باحث ، ومهد السبيل لكل كاتب .

وكنت في هذه السنة نفسها طالبا بالجامعة المصرية الأولى بجانب صديقي طه حسين ومحمود زناتي ، فترامى الينا أن مجلس ادارة الجامعة قد قرر تعيين الأستاذ جرجي زيدان أستاذا لكرسي التاريخ الاسلامي بالجامعة ، فهزنا هذا الخبر وسرّنا أن نكون تلاميذ للمؤرخ الكبير عن طريق المحاضرة، بعد أن تلمذنا اليه طويلا عن طريق القراءة ، ولكن بعض الآراء المتزمتة الرجعية قد ساورت بعض الأذهان المتخلفة الغبية . فحملت الأستاذ الكريم السمح على أن يعتذر من قبول هذا المنصب بعد أن أعد المحاضرات وصور الخرائط ! واستمر الببغاء على الكرسي الجامعي الوثير ، تردد ما قال الطبري وابن الأثير !

ثم عدت الى الرسالة مرة ثالثة أتملاها وأتأملها ثم كتبت الجواب عنها بالاعتذار والشكر وأرسلته مع البريد . ثم رأيت بعد أيام أن أزوره في إدارة الهلال ، فتكشف لي من لقائه الجميل ، وحديثه العف ، واطلاعه الواسع ، وتواضعه الجم ، عن طراز من العلماء فريد لم ألق مثله فيمن لقيت من العلماء في الأزهر ودار العلوم والجامعة

والحق أن جرجى زيدان مدين بعلمه وفضله ونجـاحه لأخلاقه . وأشد أخلاقه أثرا فى حياته صدقه وجده ودأبه ومثابرته .

تخرج فى أكثر العلوم على نفسه ، وشق طريقه فى الصخر بسن قلمه، واختار لجهاده الأدبى الميدان البكر وأعد له ما استطاع من قوة الصبر وصدق العزيمة ، فانتصر انتصارا عز على غيره ، وعاد بالنفع والخير على قومه .

ولزيدان شرف الريادة لمنتجعى الأدب ، وفضل السبق الى فن القصة ، وحسن القدوة فى مهنة الصحافة ، وحق الأستاذية فى الهلال على كل قارىء . وتاريخ الأدب العربى الحديث يعترف الرجل بكل أولئك .

لم أكن حين عرفت صاحب الهلال على حال من السن والثقافة تؤهلنى لصداقته . كنت فى بداية الشباب وكان فى نهاية الكهولة . وكنت من شداة الأدب وكان من أقطاب العلم ، فظلت العلاقة بينى وبينه علاقة طالب بأستاذ وصلة قارىء بمؤلف . فلما قويت أناملى على حمل القلم ، وصلح تفكيرى لتغذية الهلال ، كان قلمه قد جف وذهنه قد انطفأ !

لذلك آثرت أن يكون أول ما أكتب للهلال تحية من القلب المعروف أقدمها لذكراه ، وباقة من الأدب الصدوق أنثرها على قبره .

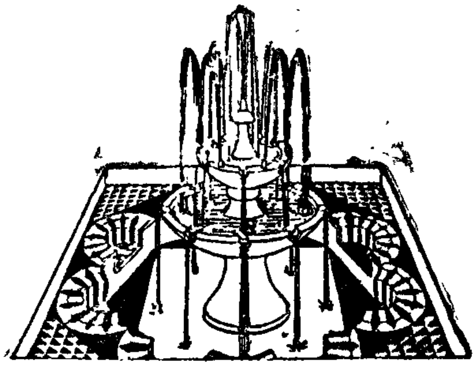

أوّلُ ماعرفتُ الشّنقيطى..

— ١ —

كنت فى مولد هذا القرن غلاما ناشئا أهوى الأدب وأحفظ الشعر وأعالج القريض . وكان مجلسى المختار يقع فى الركن الغربى من الرواق العباسى بالأزهر ، فى رفقة من الطلاب كانوا كأنجم الثريا لا يفترقون لا فى الدرس ولا فى المذاكرة ولا فى الرياضة . وكنا على خلاف إخواننا الأزهريين فى ذلك العهد نقرأ الصحف ونغشى الأندية ونتتبع المعارك الأدبية فى الضياء لليازجى ومصباح الشرق للمويلحى ، و«المؤيد» لعلى يوسف . وكان حديثنا وحديث المتأدبين يدور على ماتتناقله الأفواه وتتداوله الصحف من الجدل المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطى وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر . وكان الشيخ قد هاجر منذ قريب من مدينة الرسول إلى قاهرة المعز فوجد من الإمام محمد عبده لقاء جميلا وعطفا كريما ، فأجرى عليه رزقا من الأوقاف ، ووكل إليه إحياء الأمهات العربية الكبرى ، فنشر المخصص وحرر القاموس وأملى الأراجيز ، وإلى ذلك يشير فى رثائه لنفسه من قصيدته الميمية المطولة :

تذكرت من يبكى على فلم أجد   سوى كتب تختان بعدى أو علمى

وغير الفتى المفتى محمد عبده   صديقى الصدوق الصادق الود والكلم

فعُصم العلوم كنت أنزلها له   إذا اعتاصت ارواها على كل ذى فهم

مخصصها المطبوع يشهد مفصحا   بحفظى عند الحذف والبتر والخرم

بذا يشهد المفتى وأصحاب طبعه   ولا يكتمون الحق كتمان من بكمى

وقاموسها المشهور يشهد فى الضحى   بذاك وفى بيض الليالى وفى الدم

وكان الأزهر قد درج طويلا على إغفال اللغة والأدب من مناهجه حتى أدخلهما الأستاذ الإمام فى الدراسة الحرة ، وجعل دراسة اللغة للشيخ الشنقيطى ، ودراسة الأدب للشيخ المرصفى. وكان ابن التلاميد آية من آيات الله فى حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية . وكان شموس الطبع حاد البادرة قوى العارضة ، يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط .

كان لا ينفك يتحدى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة مستعينا على جهلهم بعلمه ، أو على نسيانهم بحفظه ، حتى هابوا جانبه وكرهوا لقاءه ، وأصبحت حياته سلسلة من الخصومات الأدبية سجلها بالشعر اللاذع والنثر القارص فى كتابه (الحماسة) . وأكثر هذه الخصومات كانت بينه وبين أحمد البرزنجى فى المدينة ، والنبيلى فى تونس [1] ، وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجى وسليم البشرى وعبد الكريم سلمان فى القاهرة .

اجتمع ليلة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى دار السيد عبد الباقى البكرى جماعة من كبار العلماء يتصدرهم إمام المالكية الشيخ سليم البشرى . فخلا لبعضهم أن يتحرش به فسأله سؤال المنكر عن رأيه فى صرف عمر وخروجه على إجماع النحاة ، فقال له : إنما صرفته بالأدلة القاطعة والشواهد الصريحة ، وخطأت جميع النحويين من سيبويه إلى ابن هشام فى قولهم إن عمرا ممنوع من الصرف لأنه

---

(١) كان موضوع الخصومة بينه وبين أديب المدينة وعالم تونس أنهما لحنا الامام مالكا رضى الله عنه فى قوله فى باب النذور من موطئه :(وعليه هدى : بدنة أو بقرة أو شاة انلم يجد الا هى) فهما يقولان : إن مقتضى الظاهر أن يقول : انلم يجد الا اياها ، وهو يقول: إن وجد معنى غنى من الوجد وهو الغنى فلا تحتاج الى مفعول ، وقد أفردوا فى المسألة مؤلفين، مؤلفا لهما ومؤلفا له .

معدول عن عامر ، والحق اليقين أنه جمع لعمرة وهى الحج الأصغر ، وبه سمى عمر ابن الخطاب ومن قبله ومن بعده ، فهو علم منقول عن جمع نكرة ، وما كان كذلك من الأعلام صرف اتباعا لأصله ، ككلاب وضباب وأنصار وأعمار ، وجمعت من الشواهد على صرف عمر مائة شاهد ونيفا ، منها قول كعب الأشقرى :

يا أيها الزارى على عمرٍ قد قلت فيه غير ما تعلم

ومنها قول بشار العقيلى :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

فقال الشيخ عبد الكريم سلمان : ولم لا يكون التنوين فى بيت بشار للضرورة ، وتكون الرواية فى بيت كعب بالفتح الممدود لا بالكسر المنون ؟ فقال له فى حدة عصبية ولهجة مغربية : إنك بالعروض أجهل منك بالنحو ، ومثلك لا يناقش ! .

فهم بالرد الشيخ سلمان، ولكن الشيخ البشرى مال بالنقاش إلى جهة يراه القوم فيها واحد الآحاد وهى السنة . فقال الشنقيطى : إنك تلبس خفين أسودين وذلك من لباس النصارى . فقال له إنما ألبس ما كان يلبس الرسول . أما أنتم فتلبسون الخفاف الحمر وهى لباس نساء المغرب ، والخفاف الصفر وهى لباس نساء المشرق ، فأنكر البشرى أن يكون الرسول صلوات الله عليه قد لبس خفين أسودين ، وقال إن الإجماع منعقد على خلاف ذلك . فرد عليه بأن رواية الأثبات تثبت أن النجاشى أهدى إلى الرسول خفين أسودين فلبسهما . ثم انفجر عليه بما روى الترمذى وابن ماجه وأبو داود والبيهقى ، يؤديه عن ظهر قلبه كأنما كان يتلو من كتاب . فلم يجد الشيخ البشرى رحمه الله درءا لهذا السيل إلا أن يطعن فى الرواية والرواة ، وانتقلت المجادلة من دار البكرى إلى دور الصحف ، فكتب الشيوخ . ورد الشيخ ، واستطار بينهم الخلاف أكثر العام فسماه الناس « عام الخفين الأسودين».

— ٢ —

ترامى إلى مجلسنا بالرواق ذات ليلة أن الشيخ الشنقيطى قد نشر كتابا سماه (الحماسة السنية ، الكاملة المزية ، فى الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية) صدرها بطولة له فى خمسة ومائتى بيت من بحر الطويل وقافية الميم مطلعها :

ألا طرقت مىّ فتى مطلع النجم غريبا عن الأوطان فى أمم العُجم

روى فيها حديث سفره إلى مدينة استوكهلم عاصمة السويد إجابة لدعوة ملكها أسكار الثانى ليشهد مؤتمر المستشرقين الثامن الذى اجتمع بها فى سنة ١٣٠٦ هـ ، فوصف الرحلة ومدح الداعى وذكر جملة من أمر حياته ورحلاته وتحقيقاته ، ثم ختمها برثاء نفسه وسردٍ لأسماء أشهر القبائل العربية جريا على المنهج الذى اقترحه عليه سفير السويد بمصر الكونت كارلودى لندبرج ، وهو مستشرق سمى نفسه (عمر السويدى) ونشر بعض المخطوطات العربية كشرح ديوان زهير للأعلم الأندلسى الشنتمرى . وكان الشيخ يومئذ فى الآستانة فسافر إليها ليلقاه ويدعوه . فشرط عليه الشيخ بعد إذن الخليفة عبد الحميد الثانى أن يصطحب ثلاثة من علماء العربية ومؤذنا من المتعلمين وطاهيا من المسلمين . فأجابه إلى ماشرط . ولكن الرحلة لم تتم لأسباب يعرفها قصر الخلافة .

كان الشيخ لا يبيع هذا الكتاب وإنما كان يهديه إلى من يحسن القراءة فيه من طلاب العلم أمامه . وكنت فى ذلك الحين هش العود لا أظننى أثبت على عجمه ! فتفاديت ذلك الحرج بنظم قصيدة فى مدحه من بحر قصيدته وقافيتها . ثم حملتها متوكلا على الله وذهبت إليه . وكان صديقى الطبيب الدكتور محمود حسن زناتى قد سبقنى إليه فأثبت قدرته وأخذ نسخته . فصحبنى إلى داره وقت الأصيل — وكانت بأول شارع الباطنيــة من حى الأزهر — فدخلناها فإذا هى دويرة ذات طابقين

صغيرين ونصف طابق فوق السطح كان يسكنه هو وزوجه وخادمه . صعدنا إليه في درج براه الزمن وعوجه فلا تستقر عليه قدم . ودخلنا عليه ردهة غير مسقوفة انسدلت على نافذتها ستارة فلا تطّلع على غيبها عين . كان جالسا على فروة بيضاء فوق كليم انبسط على نصف المكان وانتثرت على حواشيه بعض الأدوات المنزلية .

لم أكن رأيت الشيخ من قبل . كان شخصا ينصرُ كما يقولون في صرة : هيكل ضئيل ، وبدن نحيل ، ووجه ضامر ، ولون أخضر ، وصوت خفيض . فمن يره أول مرة لا يصدق أن هذا الجرم الصغير قد جاب البر والبحر ، وطاف الشرق والغرب ، وكافح الأنداد والخصوم ، ووعى صدره الضيق معاجم اللغة وصحاح السنة ودواوين الشعر وعلوم الأدب . وكان يلبس قفطانا أبيض من القطن ، ويرتدي جبة دكناء من الصوف ، ويعتم عمامة مكية قد أرخى لها عذبة على ظهره. فلما رآنا هش بعينه وبش بفمه ، فقبلنا يده ثم جلسنا بين يديه . كان كل ما في الردهة يرف بالهدوء وينشف عن النظافة ، فلا حس ولا حركة ولا هباءة إلا مايقع في أسماعنا من أصوات الباعة على بعد. وكانت الخادم الحبشية العجوز قد أقبلت في سكون وأدب بأكواب الشاي الأخضر فشربنا . ثم أخرجت القصيدة من جيبي وأخذت أتلوها في رجفة خفية وهيبة ظاهرة ، والشيخ يستمع ولا يظهر على مخايل وجهه البرنزي ماينم على استحسانه أو استهجانه ؛ حتى بلغت إلى قولي منها :

رفعتَ دِرَفْس الدين بالعلم والتقى   وصنت لسان العُرب بالحفظ والفهم

فقال : ما الدرفس ؟ قلت : الراية . فقال : أتحفظ شاهدا عليها ؟ قلت : نعم ، قول البحترى :

والمنايا موائل وأنو شر   وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

فقال : أحسنت ، بارك الله فيك . وانتهت التلاوة والزيارة بأخذ النسخة . ثم لزمته بعد ذلك إلى أن فارقنا إلى لقاء ربه .

لزمته أنا وأربعة أو خمسة من الرفاق فكنا نصلى معه الجمعة من كل أسبوع فى الجامع الأزهر . ثم نجلس أمامه بالجانب الأيمن من المنبر فنقرأ عليه ساعة وبعض الساعة ثم ينصرف إلى داره ، قرأنا عليه كتابه (الحماسة) ثم ديوان المعلقات . وكانت طريقته فى التلقين أن يعنى بدقة الضبط وصحة الرواية ، فلا يشرح لفظا ولا يفسر معنى إلا إذا سألناه .

ومن النوادر التى أذكرها أن طالبا ممن كانوا معنا كانت فيه سذاجة وغفلة . وكانت إحدى عينيه مظلمة . وكان أحدنا يقرأ مطولة الشيخ الأولى وفيها قوله :

إلى مثلها يصبو الحليم صبابة

فقال الطالب : إن هذه الشطرة مسروقة من معلقة امرىء القيس . فقال الشيخ فى غضب وحدة : المسروقة عينك العوراء ! إن للعرب أبياتا وأشطارا شاعت شيوع الأمثال فلكل شاعر أن يستعملها كقولهم .

وقوفا بها صحبى على مطيهم . وقولهم ، تبصر خليلى هل ترى من ظعائن . وقولهم : فدعها وسل الهم عنك بجسرة ، وهذا من ذاك .

كذلك أذكر أن الشيخ كان كلما انفلت من صلاة الجمعة دعا بالشيخ إمام السقا خطيب الجامع الأزهر فى تلك الأيام ،وكان رجلا طاهر القلب ظاهر الورع . فإذا جاءه أخذ يعنفه أشد التعنيف على اقترافه الكذب على الرسول بما أورد من الأحاديث الموضوعة فى خطبته . ثم لا يخليه حتى يستغفر الله ويتوب .

فلما تكرر هذا الموقف كان الشيخ السقا يتحاشاه فلا يكاد يخرج من الصلاة بالتسليم حتى يخرج من المسجد بالركض !

رحم الله الشيخ ومن جرى ذكرهم معه من الشيوخ ، وجزاه الخير وجزاهم على ما قدموا للغة القرآن وفقه السنة وعلم العربية من حسن القول وإخلاص العمل وصدق النيرة .

على بئر أريس

من ذكريات ربيع الأول في طيبة

في غداة ضاحية من غدوات ربيع الأول ، وفي درب هادىء من دروب طيبة المقدسة ، خرج الرسول صلوات الله عليه إلى ظاهر المدينة يطلب الخلوة إلى نفسه ، والجلوة عند ربه .

وكان صاحب الغار المهجور من جبل النور لا يزال يستحب العزلة ، ويستطيب الوحدة ، إمعانا في القرب من الله بالفكر والذكر والتأمل ، فجعل وجهه إلى غربي المدينة تلقاء مسجد قباء ، ومشى وحده تحوم عليه العيون وتهفو إليه القلوب من وراء الجدر وعلى حواشي الطريق وهو مطأطىء الرأس مطمئن النفس حتى بلغ بئر أريس[1] .

وكانت هذه البئر العذبة الرحبة تستكن من الريح والشمس بظلة من جريد النخل لها باب منه ، وتنظر إلى حقول خضر وبساتين فيح تستمد من مائها المعين النماء والخصب ، فهي مستراض ومستراح ومنظر . دخلها الرسول على عادته في كل يوم اثنين دخول المعتكف المسجد ، فتوضأ وصلى ثم جلس على قفها[2] وكان طوله ثلاثة أذرع ، واستغرق في عبادة صامتة لا يتخالجها أمر من أمور الدنيا ولا شأن من شئون الناس . ومثل هذه العبادة الروحية النبوية التي تصل الرسول بالله والأرض بالسماء والشريعة بالحقيقة والمحدود باللامحدود ، لا يستطيع أن يدرك كنهها العقل القاصر ، ولا أن يبلغ وصفها البيان الناقص .

---

(١) حديث بئر أريس الذي جعلناه لبا لهذا المقال رواه البخاري ومسلم .

(٢) قف البئر : الدكة التي تقام من حول رأسها .

وما كانت عبادة النبي فى بئر أريس بعد الهجرة إلا معنى من عبادة محمد فى غار حراء قبل البعثة ، استيحاء لحكمة الله وقدرته أن يؤيد دعوته بروحه ، وأن يجمع أمته على كتابه .

* * *

وكان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قد أصبح ونيته معقودة على أن يلزم الرسول عامة يومه ، جلاء لصدره من صدأ الدنيا ، وصفاء لنفسه من كدر العيش ، فطلبه فى مسجده فلم يجده ، فسأل عنه فقيل له اتخذ طريقه إلى حى قباء . فما زال يتقصص خبره وأثره حتى تأدى إلى بئر أريس ، فدخلها فوجد الرسول جالسا على قفّها وقد كشف عن ساقيه وأدلاهما فيها . فسلم عليه ، ثم عقدت لسانه الهيبة والجلالة فارتد إلى الباب وهو يقول لنفسه : لأكونن بواب الرسول هذا اليوم .

وما هى إلا هنيهة حتى دفع الباب دافع . فقال البواب الأواب : من بالباب؟ فقال أنا أبو بكر . فقال أبو موسى : يا رسول الله ، هذا أبو بكر يستأذن عليك . وكان صاحب الدعوة حينئذ يستحضر فى ذهنه ما لقى فى سبيلها من البلاء فى نفسه وفى أهله وفى صحبه . وقد تمثل فى خاطره وفاء المهاجرين بعهدهم إلى الله ، واحتمالهم الغربة والفاقة والقلة والأذى ابتغاء مرضاته ، فأكبر ما فعلوه وما بذلوه . وما هو إلا أن سمع أبا موسى يذكر اسم صديقه فى الدار وصاحبه فى الغار حتى قال له ائذن له وبشره بالجنة . فلما أخبره بالإذن والبشرى دخل فجلس عن يمين رسول الله فوق القفّ وحذا حذوه ، فكشف عن ساقيه وأدلاهما فى البئر . ورجع الأشعرى إلى مقامه بالباب ، وكان قد ترك أخاه يتوضأ ليلحق به عند الرسول ، فقال فى نفسه : ان يرد الله خيراً بأخى يأت به . يرجو أن ينال من هذا الفيض النبوى ما ينفعه فى آخرته . ولكن الله أراد هذا الخير لعمر ، فقد كان فى تلك اللحظة وراء الباب يحركه ، فلما قال أبو موسى فى سرعة ولهفة : من هذا ؟

قال أنا عمر بن الخطاب ، فقال له : على رِسلك يا عمر . ومضى إلى الرسول يستأذن فقال له عليه صلوات الله وسلامه : ائذن له وبشره بالجنة ! فدخل عمر وجلس على القف عن يسار الرسول وصنع ما صنع . وعاد الأشعرى إلى الباب يتسمع من ورائه أن تدب رجل أو يند صوت رجاة أن يكون أخوه قد قدم . فلم يمض غير يسير حتى لقلق الباب إنسان ، نخفق فؤاد أبي موسى وضاء بالأمل وجهه ، وصاح من القادم ؟ فقال : أنا عثمان بن عفان . فاستأناه وعاد إلى الرسول يستأذن له . فقال من اصطفاه الله لحمل رسالته وارتضاه لعلم غيبه : إيذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه ، فلما بشره وأنذره دخل الشهيد على الثلاثة فلم يجد معهم مجلسا على القف . فتحول حتى جاء قبالتهم من الشق الآخر وجلس ، ثم كشف عن ساقيه وأدلاهما فى البئر .

وهكذا شاء الله أن يجتمع فى هذه البئر الباضة بالخير النابضة بالحياة ، فى وسط هذه الرمال القاحلة والصخور الصلدة ، خمسة نفر كان لهم فى حياة العروبة أثر بالغ ، وفى تاريخ الإنسانية خطر أبلغ : خليفة الله الذى قاد بنوره ركب البشرية التائه العامه فى الطريق الأقوم الى الغاية الأكرم ؛ وخليفتا الرسول اللذان حملا دعوته من بعده فلأما صدعها يوم السقيفة ، وقوّيا ضعفها سنة الردة ، ونشرا ضوءها وراء الجزيرة ؛ وخليفة الشورى الذى صدقت فيه نبوءة الرسول فأصابته البلوى التى فرقت الكلمة ومزقت الأمة ؛ وقاضى التحكيم الذى داهاه ابن العاص وداوره حتى حكم حكما جعلت نتيجته الخلافة خلافتين والأمة أمتين والدين المحكم القيم اثنتين وسبعين فرقة !

* * *

على أن بئر أريس كانت لها فى حياة الخليفة الثالث دلائل خاصة : فجلوس الرسول والعمرين معاً على شق ، وجلوسه منفردا قبالتهما على شق ، تأوله سعيد بن

المسيب باجتماع قبور الثلاثة فى حجرة عائشة وانفراد قبره هو فى موضع آخر . وإنذار الرسول إياه بالبلوى التى أصابته وأصابت المسلمين معه كان طائفا من الهم يعتاده الحين بعد الحين فلا يصرفه عنه إلا اعتقاده الوثيق بالله ، وإيمانه العميق بالقدر ، وإمضاؤه النية على الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه . ثم سقوط الخاتم النبوى من يده فى هذه البئر كان نذير شؤم ومثار قلق ، فقد كان محمد خاتم النبيين قد اتخذ خاتما من فضة جعله فى يده بقية حياته ، ثم كان فى يد أبى بكر مدة خلافته ، ثم تختم به من بعده عمر ، ثم انتقل من يده بعد مصرعه إلى يد عثمان . فكان معتزاً به حريصا عليه ، حتى ذهب يوما إلى بئر أريس يجلس فى مجلس الرسول وينعم بذكرى يومه فيه . وكانت هذه الزيارة ديدنه كما كانت ديدن الصديق والفاروق منذ اجتمعوا فيه برسول الله . فأخرج الخاتم من إصبعه وجعل يعبث به فسقط فى الماء . واختلف هو والناس إلى البئر ثلاثة أيام ينزحونها ويبحثون فيها فلم تقع يد عليه ، كأنما ضنت به الأرض فابتلعته ، أو تاقت إليه السماء فرفعته. فاكتأب عثمان ووقع فى نفسه أن قوة كانت تسنده غابت فى الماء ، وأن نورا كان يرشده تبدد فى الريح ، وأن الخاتم النبوى كان فى يده عقدة تمسك عليه الناس وتريض له الأمر ، فتمضى خلافته كما مضت خلافتا الشيخين فى وحدة لا تشت وعروة لا تنفصم وسبيل لا تجور . فلما سقط منه فى البئر وأعجزه الحصول عليه لم ييأس من روح الله ، ولكن شكا اختلج فى نفسه الراضية المطمئنة ألا يكون كعمر بطل السقيفة ، وأبى بكر بطل الردة ، صلابة رأى وصرامة عزيمة ، ففوض الأمر إلى بعض أهله فحكموا الناس بالهوى وفرقوهم بالعصبية وساسوهم بالمحاباة ، حتى اضطرب الحبل وشاعت الفتنة وقتله الثوار فى داره وعلى مصلاه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر .

كانت هذه الدلائل رموزا من لغة القدر خطها على صفحة وجهه وفى صحيفة

حياته يوم جلس وحده تجاه الرسول وصاحبيه على بئر أريس ، فسرتها الأحداث رمزاً بعد رمز ، وكابدها ممول جيش العسرة دلالة بعد دلالة . وما كانت فراسة الرسول الكريم فى عثمان ومآله سواء أكانت إعلاماً من الوحى أم إلهاماً من الروح إلا دليلا على ألمعية فى القائد الأعظم تكشف ما استكن من سر الطباع ، وتعلم ما استتر من عقبى الحوادث . ولولا هذه الألمعية المستمدة من علم الله أو من لقانة الرسول لما تسنى لصاحب الرسالة أن يختار أسنادها وأمدادها من هذه الصفوة القليلة من المهاجرين الذين غرس فى قلوبهم البذرة ، ووضع فى أيديهم الشعلة ، وألقى على كواهلهم التبعة ، ثم لحق بالرفيق الأعلى ، وهو ينظر إليهم من ستور النور وهم يرفعون مسجده فوق إيوان كسرى ، وينصبون منبره على عرش قيصر .

صوم رمضان اشتراكية روحية

إن الاشتراكية المادية التى ندعو إليها ونعمل لها ونعيش فيها لا يمكن أن تقوم ولا أن تدوم إلا على ركن شديد من الاشتراكية الروحية . ذلك أن الروح هو سر الله فى كل حى وفى كل نظام وفى كل مجتمع . به يحيا الهامد ويتسق النافر ويجتمع المتفرق . هو الذى نسميه حباً أو جاذبية أو وحدة . وهو الذى يجمع قلوب المواطنين على عبادة إله واحد ، وحب وطن مشترك ، وتقديس شعار متحد ، وطاعة زعيم قائد . فإذا ضعف فى النفوس هذا الروح ، واحتجب عن الأذهان هذا السر ، تناكرت المعارف وتدابرت الإخوة ، فلا يتشاركون فى خير ، ولا يتعاونون على بر ، ولا يتناصرون فى شدة ، وإذن تصبح القوانين الاشتراكية والأنظمة التعاونية كلاماً لا معنى له وعملا لا رجع منه .

إن المجتمع الإنسانى إذا خلا من هذا الروح الإلهى أصبح مجتمعاً حيوانياً لا يعطف الفرد فيه إلا على وليده مدفوعاً بغريزة حفظ النوع . فإذا بلغ الوليد أشده واستوى تقطعت الرحم وتباعدت القرابة وانقلب الولد نداً لأبويه يدافعهما عن نفسه ، ويصارعهما على قوته، وصار الاشتراك أو الإيثار الذى انبثق من الأمومة والأبوة فردية باغية وأثرة شديدة .

على أن هذه الغريزة تتهذب فى بعض أمم الحيوان كالنحل والنمل فتنمو وتسمو وتدوم حتى تصبح اشتراكية مثالية تنتظم فضائل المجتمع الإنسانى المرجو ، من فناء الفرد فى الجمع ، وجهاد الكل للكل ، وما يحقق ذلك من تضامن وتعاون وإخلاص وإيثار وتضحية حتى بلغ من سمو الاشتراكية فى هاتين الأمتين أن النحلة أو النملة تعمل لنوعها كله لا لنفس دون نفس ، ولا لطائفة دون طائفة.

وهذا السمو الاجتماعى فيها لا تجد له نظيراً فى مجامع الذباب والقرود والناس . فلكل فرد من أفراد الإنسان وهو أرقاها شأنه الذى يغنيه ، ورزقه الذى يكفيه . فإن فضل شىء منه عن حاجته فلزوجه و بنيه . .

أما علاقته بغيره وغير أهله فهى علاقة الصائد الخاتل أو اللص القاتل ، يحتال ويغتال ويغتصب ويستأثر ، ولا يبالى أن يهلك العالم وتخرب الدنيا ما دام بدنه معافى وداره عامرة .

هذا السمو فى الاشتراكية المادية لم يجعله الله أصلا فى جِبِلة الإنسان (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) و إنما جعله فى الشرع الذى أوحاه وفى الكتاب الذى أنزله . فمن يرد إصلاح الفاسد من حال المجتمع دون أن يبث فى أعضائه هذا الروح ، و ينشر فى جوانبه هذا النور ، أخطأ الطِّباب الناجع لهذه العلة ، وضل السبيل الجامع لهذه الغاية .

إن دين الله اشتراكى بحكم طبيعته ومقتضى رسالته . شرعه الله نظاماً للدنيا وسلاماً للناس على أساس من علمه وتقدير من فضله ومنهاج من هداه ، فالملك ملكه ، والمال ماله ، والفقراء عياله ، والأغنياء عباده ، والمصير كله إليه .

على هذا الاتصال الروحى بين الخالق والمخلوق اجتمع الشمل فى الأسرة الإسلامية الكبرى فكان الناس فيها سواسية ، والحكم شورى ، والإيمان أخوة ، والرزق شركة ، والجماعة وحدة . وإذا تدبرت الأركان التى بنى عليها الدين والأحكام التى جاء بها الشرع . تجلت لك من مطاويها ومراميها تلك الاشتراكية التى تؤلف القلوب بألفة الروح ، وتجمع الشعوب بجمعة الحب ، وتفرض على الواجد معونة الفاقد ، وتوجب على الجميع نصرة الواحد ، وتجعل من المسلمين جميعاً جسما واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الرسول الأعظم .

خذ مثالا واحداً من ألف : صوم رمضان . أليس هذا الشهر المبارك مظهر الاشتراك الروحى بين المسلمين فى جميع أقطار الأرض ؟ يصومون فى وقت واحد ، ويفطرون فى وقت واحد ، ويكادون يتفقون على طعام واحد ، ثم ينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ، ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله ، فيغضوا أبصارهم عن المنكر ، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش ، ويصمّوا آذانهم عن اللغو ، و يغلوا أيديهم عن الأذى ، ويصدوا أهواءهم عن السوء ، ثم يسمتون جميعاً صائموهم ومفطروهم سمت الصالحين ، فيمسكون السبحة ، ويتقون الشبهة ، ويصنعون المعروف ، ويتقلدون تقاليد رمضان ، فيهجر السكير الكأس ، و يترك المقامر الورق ، ويؤجل الشرير الشر ، و ينسى المجرم الجريمة ، ثم يشركون المساكين فى طعامهم تكافلا ورحمة ، و يؤتون الفقراء من أموالهم تعاطفاً وصدقة ، ويولمون الولائم لإخوانهم تواصلا ومودة ، ويشعرون أن أجسادهم المتفرقة المختلفة يسرى فيها روح واحد يصدر عنه هذا الوجود المتحد وهذا الشعور المشترك .

هذا الروح الإلهى إنما أبقاه وقواه فى نفوس الصائمين عقيدة ووراثة وسنة . ولو أنه وجد فى الوطنية ما وجد فى العقيدة من الإيمان ، وفى النشأة ما وجد فى الوراثة من العمق ، وفى القدوة ما وجد فى السنة من الصلاح ، لشاع فى نفوس المسلمين وجعل منهم مواطنين اشتراكيين يعمل كل أمرىء منهم لوطنه كما يعمل لبيئته ، ويحب لمواطنه ما يحب لنفسه ، ويكون لدولته كما يكون الإنجليزى لأمبراطوريته ، يخلص لها إخلاصه لعقيدته ، و يبر بها بره بأمه ، ويفنى فيها فناءه فى أسرته . ويومئذ ترى المصرى أو العربى كما ترى الإنجليزى ، يقذف بنفسه فى المطرح البعيد والمنزل النابى ، ليعمل لقومه ، أو ليكدح لنفسه ، فلا يضع أمام عينه ولا طى صدره إلا جمهوريته : يمثلها أحسن تمثيل ، ويخدمها أخلص خدمة ، ويدعو إليها أصدق دعوة . يدعو إليها بفعله قبل قوله ، وبقلبه

قبل لسانه ، وبخلقه قبل علمه . ويومئذ لا تعود ترى أو تسمع أن المصرى أو العربى يعيش فى الغربة مقطوع الأسباب عن بلده وقومه ، لا يعرض من وطنه على الناس إلا صورة الباطل ، ولا يتكلم عن أخيه فى الغيب إلا كلمة السوء . ذلك لأن الروح الوطنى الاشتراكى الذى يستمد سناءه وسناه من روح الله إذا سرى فى نفس ابن آدم جعل فرديته قومية ، وأنانيته غيرية ، وعصبيته إنسانية ، وخاصته من الخير لله وفى الله عامّة .

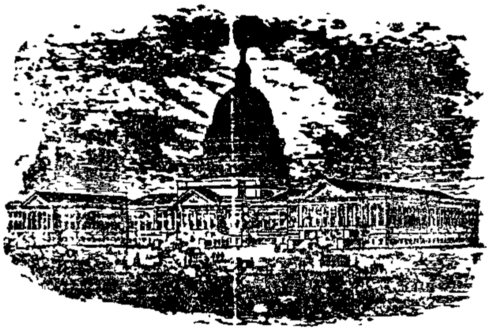

كلماتٌ قِصارٌ

٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ *

كنا فى ذلك اليوم برأس البر، نصبح ونمسى كنزلاء السجن من غير حرية ولا متعة، ونعدو ونروح كدُمى الأراجوز من غير إرادة ولا شعور. وكان الجو الاجتماعى فى كل مكان متأثراً بالجو السياسى فى القاهرة: حرارة عالية، ورطوبة شديدة، وضيق يكرب الصدور، وخُناق يقطع الأنفاس.

وكانت التجارب الوزارية فى عابدينَ ورأس التين كالتجارب الذرية فى روسيا وأمريكا، ترج الوجود المصرى رجاً عنيفاً، وتزلزل الكيان القومى زلزالا مخيفاً.. وكل أولئك وأيدى الحكام والساسة مشلولة لاتتحرك، وأعينهم مطروفة لا تبصر، وألسنتهم معقودة لا تلغو.

وكان الذى قلب نظام الطبيعة وعاق سير الفلك شخصية واحدة! شخصية أخطبوطية من عمل الشيطان مدت خراطيمها المتشعبة القوية إلى كل ناحية من نواحى المجتمع، فكانت فى نوادى القمار جرافة تجرف الفيش، وفى مواخير الفسق ذراعاً تخاصر الدعارة، وفى بيوت المال خطافاً يلم الذهب، وفى أركان اللذة مدية تذبح الفضيلة، وفى أركان الجريمة خنجراً يغتال البراءة، وفى وزارات الحكم قدماً تطمس العدالة، وفى رياسة الوزارة يداً من جسم الخلافة تقبل، وفى مشيخة الأزهر بقية من نسل النبوة تقدس[1]!!.

وكانت الدلة قد غلبت على نفوس الشعب من طول الظلم واستطالة الإرهاب فاستنام للهوان.

فما هو إلا أن ضرب الجيش ضربته حتى انفجر الطاغية المنفوخ، وانطوى

(*) كتبت هذه الكلمات أيام تأميم القناة وعدوانِ انجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر.

(١) إشارة إلى ما أذيع يومئذ من أن فاروقا نبعة من نبعات الرسول.

الأخطبوط المنتشر ، وخشع السلطان القادر ، وخنس الشيطان الغالب ، وتقوض الحكم الذليل ، وعز الشعب المنتصر ، واعتدل الزمان المائل ، وانتظم الفلك الدائر ، وأعادت الثورة مصر لأهلها بعد ٢٤٨٠ سنة قضتها تحت حكم الغريب الواغل ، تمسك الفأس وهو يمسك الكرباج ، وتأكل التراب وهو يأكل الذهب . فأثبتت للشعوب المستذلة أن أغلال العبودية وأثقال الطغيان مهما تهد من بنيانها على تتابع القرون ، وتضعف من إيمانها بتوالى الخطوب ، لا بد أن تشعر يوماً من الأيام أن لها قوة تأتى العجب إذا أرادت ، وأن لها إرادة تحقق المستحيل إذا وعت .

هنالك سمع المصطافون نبأ الثورة من الإذاعة فأخذوا يتعانقون فى الشوارع من غير معرفة ، ويتزاورون فى العشش من غير ميعاد ، ويتقلبون فى الفرح والمرح والتهنئات والتكهنات حتى الصباح !

الصليبية التاسعة

باسم السيد المسيح الذى كفرت به أمريكا فجعلت إسرائيل التى صنعت صليبه ، وتولت تعذيبه ، سادنة لقبره وكاهنة لكنيسته . باسمه غزت فرنسا وانكلترا سورية وفلسطين ومصر ثمانى غزوات صليبية فى مدى قرنين من العصر الوسيط ، كان فيها لويس السابع يقاتل بجانب كونوراد الثالث ، وفيليب أغسطس يجاهد بجانب رتشارد قلب الأسد ، فلقوا من السلطانين نور الدين وصلاح الدين ما أراهم فى النهار نجوم الليل ، وأذاقهم فى الدنيا عذاب جهنم . ثم انخلع قلب الأسد ففر إلى انجلترا ولم يعد ! .

وانفردت بالغزوتين السابعة والثامنة السيدة فرنسا فأقبل ملكها لويس التاسع إلى قبرص ! وقضى بليماسول فصلى الشتاء والربيع يجمع جموعه ويحشد سفنه ويهيىء عتاده ويجهز مؤنه ، ثم أقلع بجيشه الجرار وأسطوله الضخم إلى دمياط فاحتلها . ثم زحف إلى المنصورة فوجد الجيش المصرى ينتظره مع الموت بالحديد والنار ، والشعب المنصورى يترصده بالقتل فى كل شارع وفى كل دار ! فقتل أخو الملك وهلك جيشه ، وارتدت لهزيمة النكراء إلى القديس لويس ومن معه من الأمراء والنبلاء والقادة شرقى (البحر الصغير) فوقع أسيراً فى يد الجيش ، واقتيد صاغراً إلى دار ابن لقمان فلبث فيها سجيناً حتى فدوه بثمانمائة ألف دينار ، ورحل عن مصر مكللا بالخزى والعار !

واليوم ، وبعد سبعة قرون من فرار رتشارد وأسر لويس تعود انجلترا وفرنسا فتنزلان قبرص مرة أخرى لتحاولا باسم الطماعية واللصوصية ، لا باسم المسيحية والفروسية ، أن تشنا الغزوة التاسعة على مصر !

فكيف تطمع الغبيتان فى النصرة على صلاح الدين الثانى ومعهما حمق إيدن وكفر جى موليه ، بعد أن نالتا الهزيمة أمام صلاح الدين الأول وكان معهما بطولة العاهل الفارس وإيمان الملك القديس ؟

فكروا طويلا يا جبناء (دنكرك) ويا أذلاء (سيدان) ! واعلموا أننا فى المنصورة أبدنا جيشكم بالقتل ، ووسمنا ملككم بالذل ، ولم يكن دم المماليك هو دم العرب ، ولا جيش طوران شاه هو جيش عبد الحكيم ، ولا مصر الملك الصالح هى مصر الرئيس عبد الناصر !

لجنة وجيش

لجنة وجيش ، أم حماقة وطيش ؟ ولم لاتكون الأربعة جميعا ؟ لجنة للمداورة تمثل عقلية أمريكا ، وجيش للمناورة يمثل عقليتي انجلترا وفرنسا ، وحماقة تمثل سياسة ايدن ، وطيش يمثل سفاهة جى موليه !

هل سمعت بهذا فى آبائنا الاولين ؟ عصابة من الدخلاء الثقلاء يقتحمون عليك بيتك ليشتروه أو يستأجروه فيفاوضونك فيه باللسان المعسول والوداد الخادع ، ويلوحون لك بالخير العاجل والثمن الربيح ، ويجعلون بينهم وبينك المواثيق والقوانين ، ثم تنظر من النافذة فترى حول البيت نطاقا مضروبا من البنادق المصوبة والخناجر المشرعة ، تطلب منك أن تنزل عن البيت ، والا عرضت نفسك لكيت وكيت !

المنطق غيرهذا : : إما أن تناقش ومعك الحق ،وإما أن تهوش ومعك القوة . أما أن تجمع بين الحلو والمر ،أو بين اللين والخشونة ، أو بين الحلم والسفه ، فذلك منطق لايصدر الا عن قوم أطبق عليهم الجنون ، وسقطت عنهم التكاليف !

إن مهزلة قبرص جعجعة ولاطحن ، وسراب ولا ماء . وإن مصر وسورية ولبنان اليوم غيرهم بالامس : ملمسهم خشن ولحمهم مر !

وإن البيان الذى صرح به الرجل الصموت العمول الجاد عبد الحكيم عامر عن استعداد الجيش المصرى ليخرق الآذان الموقورة وينفذ الى الأذهان الصلدة ! وأن عبد الناصر لايزال يحفظ قول الشاعر العربى الأبى الصادق :

وحارب اذا لم تعط إلا ظلامة ... شبا الحرب خير من قبول المظالم

الاستعمار يأتمر !!

تتعاوى اليوم دول الاستعمار فى لندن ، كما تتعاوى الذئاب الجياع فى الغابة !

يتعاون على الفريسة التى نجت من بين أشداقهم المتحلبة بمعجزة ! ويتباكون على ما أصاب الحق والحرية والسلام من نجاة القناة ! ومعهم فى قاعة المؤتمر أقوام آخرون ، يسمعون ويسخرون ، لأنهم جربوا فى أنفسهم مفعول هذه الكلمات الحلوة المسمومة أيام استضعفهم هؤلاء البربر فاستعبدوهم باسم الحرية ، وظلموهم باسم العدالة ، وأكلوهم باسم الحق ، وجندوهم باسم السلام ، ولم ينقذهم من كلاليب « جون بول » وألاعيب « مريان » إلا أنهم عرفوا كيف يستعملون السكين !

ذلك فى لندن . أما فى القاهرة فيقف منقذ القناة وحده بقوامه الفارع ، ووجهه المتهلل ، وعزمه المشبوب يسمع إلى عوائهم فى هدوء ، وينظر إلى شعبه فى ثقة ، ثم يقول بصوته الجهير المدوى لديدان العلق التى تمتص دم الحى ، وتفسد ماء الحياة ، يقول لهذه الديدان ذوات الخراطيم الدامية ومدافع الأساطيل مصوبة إليه ، وألسنة الأباطيل مؤلبة عليه : كذبتم ! ليس لهذه الكلمات فى لغاتكم مدلول صحيح ! إن الحق هو الذى أفعله ، وإن السلام هو الذى أريده ، وإن الحرية هى ما صرنا إليه لا ما كنا فيه . وسنلقاكم فى إحدى الساحتين : ساحة القانون أو ساحة السيف . والحكم بيننا وبينكم هو الضمير العالمى الذى استيقظ ، والإباء العربى الذى استعد !

إن مؤتمر لندن بقية من مؤامرة الاستعمار على العرب ، وصورة من محاورة

الذئب للحمل ، ولكن العرب بعد أن ثار فى دمائهم تاريخ الفتوح ، وعصفت فى رءوسهم نخوة الجنس ، لم يعودوا غلة للاستعمار ولا فريسة للذئب .

ولعل الله أن يخفف الصمم عن مسامع إيدن ، وجى موليه ، ودلاس ، فيسمعوا صوت الحق فى دوى هذه الرعود ، ويفرقوا بين مأمأة الخراف وزمجرة الأسود ! !

فضـــــوه !!

نعم فضوه ، فض الله أفواه من عقدوه ومن أيدوه !

وفَضّ أفواه الأفاعى أمان من لدغاتها القاتلة ، وضياع لسمومها السائلة . وليست الأفاعى على عدائها الموروث لبنى آدم أضر عليهم من أولئك الساسة الذين يغذون دولهم بلحوم الناس ، ويشوون سمكهم فى حريق العالم !

لقد كان مؤتمر لندن خزياً لعقل الغربى وضميره . عقده من لا يملك عقده بالحق ، ودعا إليه من يشايع رأيه بالباطل ، ثم أسلف له القرار قبل الانعقاد ، وأعد له الحكم قبل المداولة ، وضمن له التصديق بالخوف والطمع ، وطلب له التأييد بالجيش والأسطول !

وكان المتوقع أن يظل الشرق شرقا والغرب غرباً كما قال كبلنج وكما فعلت الهند وروسيا وإندونيسا وسيلان ، ولكن شرقيين مثلنا تتحد قلوبهم وقلوبنا فى العقيدة والقبلة ، وترتبط شعوبهم وشعوبنا بالجوار والمصلحة ، وتتجاور أسماؤهم وأسماؤنا فى قرارات باندونج ، أبوا إلا أن يكونوا أجراساً فى ذيول الأفاعى ، وإبراً فى قرون الشياطين ، وغربيين أكثر من أهل الغرب !

نعم كان مؤتمر لندن خزياً لعقل الإنسان وضميره ، وكان أخزى ما فيه أمران : أولهما أن الإنسان الغربى لا يزال يعيش كما كان يعيش الإنسان البدائى فى الغابة : هواه إلهه ، وشهوته شرعه ، وغريزته دليله ، وقوته عدته .

والآخر أن أكثر الدول الاسلامية لم تتحرر بعدُ من الخوف ولم تتخلص من التبعية : وليست علة ذلك أنها فقيرة فهى غنية ، ولا أنها ضعيفة فهى

تقوية ، وإنما علته أنها لا تعتقد دينها الاعتقاد الحق ، فلو أنها آمنت بقول الله : « إنما المؤمنون اخوة » وبقول رسوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » لما ضمت باكستان وإيران وتركيا أيديها إلى أيدى الذين يسددون الطلقات إلى مصر كنانة الله فى أرضه ! ولكنى أمسك ولا أزيد .

قالت الضفدع قولا   رددته الحكماء
فى فمى ماء وهل   ينطق من فى فيه ماء؟

والماء الذى فى فمى أمل فى أن يؤمن المسلم ، ويتحرر العبد ، ويهتدى الضال إلى طريق الجماعة .

كيف أخذوا امتياز القناة ؟

بطبق « المكرونة » التى كان يعبدها سعيد ، و بحلوى « البلادونه » التى كان يعشقها إسماعيل ، استطاع دلسبس أن يظفر بامتياز القناة !

كان الغبي البطين سعيد يموت فى المكرونة ، وكان طاهى دلسبس يجيد صنع هذا اللون . وكان الشهوان البدين اسماعيل يذوب فى البلادونة ، « المرأة الحسناء » ، وكان نابليون الثالث يحسن تقديم هذا الصنف !

والله الذى جعل عقول الناس فى أنصافهم العليا ، جعل عقول الخديوين فى أنصافهم السفلى ! فبنو آدم يفكرون بما فى الرأس ، وبنو محمد على يفكرون بما فى البطن ! وبهذا المركب الحيوانى الشاذ حكموا مصر قرناً ونصف قرن من الزمان كانت فيه جنة قصف وفسق ولذة للحاكمين ، وجحيم عبودية وسخرة وعذاب للمحكومين !

أما تكاليف هذه القناة التى بيعت بعض الأكلات الدسمة والحفلات الأثيمة فهى مائة ألف عامل سخروا لحفرها من غير أجر ، ومائة وعشرون ألف قتيل ذهبوا ضحاياها من غير تعويض ، وأربعة ملايين من الجنيهات الذهب أنفقت فى افتتاحها على النساء والملوك ، وأربعة وأربعون فى المائة من أسهمها أخذها الانجليز منا من غير ثمن !

ثم كان من جرائر خروج القناة من أيدينا أن كانت هى الباب الخلفى الذى فتحه دلسبس للجيش الانجليزى فدخل منه خلسة إلى التل الكبير ، ثم كانت المحافظة عليها بعد ذلك حجة الذئب فى يد بريطانيا بررت بها احتلالها مصر أربعاً وسبعين سنة !

نكبتان مدمرتان نكبت بهما مصر فى مدى أربع عشرة سنة على أيدى ثلاثة ألواح من الشجرة العلوية الملعونة : احتلال فرنسا للقناة ، واحتلال انجلترا للقاهرة ! سلطتان قاهرتان استبدتا بأمر الدولة ، واستقلتا بخير الوطن ، والتوتا بسير الشعب . ثم اجتمعتا أخيراً بمدن القناة فأقامتا بها حكومة داخل الحكومة ، وسلطاناً فوق السلطان ، وجيشاً ضد الجيش ، حتى أراد الله للنكبتين أن تزولا ، وللدولتين الباغيتين أن تدولا ، فاجتثت قيادة الثورة تلك الشجرة الخبيثة من فوق الأرض حتى لا يكون لهما بين أوكارهـا وكر ، ثم ضربهما عبد الناصر ضربته القاضية فخرتا صريعتين على أرض بور سعيد ، ورفع بيده القوية علم مصر على أقوى حصن من حصون الاستقلال ، كما رفعه من قبل على آخر صرح من صروح الاحتلال .

هذه الضربة القاصمة الحاسمة التى قضت على دولتى الاستعمار فى القنـاة ؛ وفتحت لدول العرب باب النصر على مصراعيـه إلى فلسطين ، تستحق الفرح والفخر والهتاف هنا ، كما تستحق الفزع والهلع والهذيان هناك .

الاستعمار يموت!

من حكايات الريف أن طماعاً من ذوى المكر والخديعة كان يدير عزبة لشاب من أهل البيوت الكريمة ، فكان يحول دائماً بينه و بين المجىء إلى العزبة بما يلقيه فى روعه من فتك الذباب والبعوض ، وسطو القتلة واللصوص ، حتى شب جاهلا بأمور المزرعة ، لا يميز الحمار من البغل ، ولا يفرق بين القمح والرز . وكان الناظر الخبيث يقدم إلى المالك الطيب فى آخر كل عام ميزانية مفصلة بالوارد والمنصرف لايغادر منهما كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، فكان ذلك يزيد فى ثقة الفتى به ويحمله على الاستنامة إليه . وكان يقيد عليه فيما يقيد مائتى جنيه كل سنة ثمناً لكذا بلغاً للجمال (1) ! فيقرأ الشاب هذا الرقم فلا يشك فى أن الجمل ينتعل البلغة كما ينتعل الحصان الحدوة . واستمرت الحال على ذلك أعواماً حتى نضج عقل الفتى وازداد علمه ، فساءل نفسه وسأل الناس : لماذا تنفرد الجمال بانتعال البلغ دون البقر والجاموس ؟ ثم انتهى به التفكير والمعاينة إلى أن فى الأمر جريمة . فدعا الناظر إليه وقال له فى إنكار وتعجب :

يا فلان ! إنى علمت أن الجمال لا تلبس البلغ فكيف ...

فقاطعه الناظر وقال فى استسلام وأسف : الله ! انت عرفت ان الجمال لا تلبس البلغ ؟ ألآن انقطع عيشى من عندك . ولن أخدمك بعد اليوم !

كذلك فعل الاستعمار بالشرق ! حجب عن عينه النور وعن عقله المعرفة . ثم استقل دونه بأمره وخيره . فاحتجز أكثر أمواله لنفسه ثم قيدها فى الميزانية أثماناً لنعال الذهب للجمال ، وعمائم القصب للبغال ، وفساتين الحرير للبقر ! وما كانت الجمال ولا البغال ولا البقر إلا بنيه وموظفيه من بريطانيا وفرنسا

(1) البلغ جمع بلغة وهى ضرب من الأحذية غليظ النعل والجلد ولاعقب له .

وهولندة ، حتى كشف الله الغفلة عن عين الشرق فرأى المستعمر تحت سلطان الحماية والوصاية والاحتلال والانتداب يعيث فى أرضه بالفساد ، ويبذر فى رزقه بالسفه ، فصاح به من كل جانب فى أفريقا وآسيا أن اخرج أيها اللص بالرضا وإلا خرجت بالكره !

فحاول الماكر أن يجعل السرقة شركة والمخالفة محالفة ، ولكن وعينا كان أقوى من مكره ، وعزمنا كان أنفذ من تصميمه . والسكتة الناطقة التى سكتها الشرق مع مصر يوم الإضراب الشامل ساعة افتتح اللصوص مؤتمر لندن كانت أقتل للاستعمار ، من بأس الحديد وقوة النار !

اتفاق سنة ١٩٠٤

كان اتفاق لصوص على سرقة ، وتعاون أشرار على عدوان !

وأصله أن انجلترا وفرنسا اللتين دخلتا فى الدول « العظمى » من باب الغش والتدليس ، أو من نافذة الفحش و « التهليس » ، توهمتا أن موطن العروبة ـــ وهو مصدر الحضارات ومشرق الديانات ـــ قد أصبح بفضل « العبقرية » التركية موطن الثراء المتروك وموضع الرقيق المملوك ، فاتفقتا على اقتسامه أولا بالنفوذ والمال ، ثم على امتلاكه ثانيا بالاحتلال والاستغلال . وبدأتا بتطبيق هذا الاتفاق الجنائى على مصر وشمال أفريقية . وعلى حين فجأة انتفض المارد العربى الراقد انتفاضة قذفت بالمتفقتين خارج الحدود !

فلما نهضتا من السقطة وأفاقتا من الدهشة أقبلتا معا فى رعاية ذلك الاتفاق إلى شواطىء قبرص ترصدان غفوة المارد ، وترقبان سنوح الفرصة !

لا يا مستر إيدن ، ولا ، أن يا مستر جى موليه !! لقد عقدتما ذلك الاتفاق فى سنة ١٩٠٤ حين كان على تراث محمد التركىّ الفاتِح الناطور الذى كنتم تسمونه « الرجل المريض » ، وعلى تراث محمد العربى الرسول الماردُ الذى كنتم تسمونه المارد الحبيس ! ونحن اليوم وأنتم فى سنة ١٩٥٦ ، فهل نسيتم أن الرجل المريض « تركيا » قد مات ، وأن وراثته قد آلت إليكم بطريق التبعية السياسية والعبودية المالية ، وأن المارد الحبيس قد انفض عنه خاتم القمقم فطاول السماء بهيكله ، وحجب الافق بدخانه ، وأرعد العالم بصوته ،

وزلزل الأرض بقـــدمه ، ثم نفخ على وطنه المغصوب من لهيبه ففرت الذؤبان ، وطارت الغربان ، وهلك المكروب ، وخلصت لأهلها الأرض الطيبة !

لقد طال شعر شمشون يادليلة ! فقولى لدولتى الاستعمار ، إذا لم تـكتفيا من شمشون بفك الحمار ، فسيقوض عليـكما الهيكل وينجو !

---

(١) قصة شمشون الجبار ودليلة المحتالة معروفة ، كانت قوته كامنة فى شعره ، فلما جذته ذهبت ، ولما طال عادت . ومن أخباره أنه فتك بجمع من أعدائه وليس فى يده إلا عظم فك حمار .

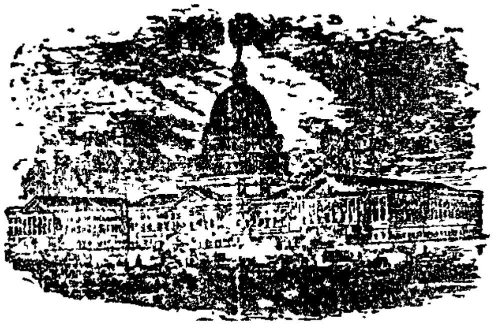

حريّة وجمهوريّة !

اتخذ مقعده فى الدرجة الأولى من السيارة الحافلة العامة ، ومكن لنفسه فى الجلوس بأربع هزات من نصفه الأعلى ضغط بها على قاعدة الكرسى وظهره... ثم قطب من وجهه وشمخ بأنفه ووضع ساقا على ساق . . ثم أخذ نفسا طويلا من سيجارته ونفثه فى الهواء بقوة . . . ثم جعل يتلفت إلى اليمين وإلى الشمال وإلى الخلف ، وينظر إلى جميع الركاب من سيدات وسادة نظر التحدى والاستفزاز ، يريد أن يجرؤ أحدهم فينبهه إلى أنه فى الدرجة الأولى لا فى الدرجة الثانية . وكان من المحتمل أن يصدر هذا التنبيه من أحد ، لأن خشونة الشاب فى لباسه وحركاته كانت تحمل على الظن بأنه أخطأ موضعه .

كان قد خرج لتوّه من الورشة وعليه ثياب العمل : بنطلون من الكاكى الأصفر عليه بقع واسعة من الزيت والشحم ، وقميص من التيل الأبيض فيه خطوط عريضة من الغبار والعرق ، وحذاء من الجلد الغليظ لا تدرى لطول عهده بالصبغ على أى لون كان . . . ولكن الناس كانوا مشغولين بهمومهم عنه فلم يشأ أحد منهم أن يفجر القنبلة التى فى صدره .

وقف المحصل أمامه وفى نظراته إليه بعض الشك والاستفهام ، فصرخ الشاب فى وجهه وقال :

بتبص لى كده ليه ؟ أنا راكب بفلوسى . . دى حرية . . دى جمهورية . . خد . . .

وأخذ المحصل النقود وأعطاه التذكرة .

وأستطيع أن أقول للشاب الآن وأنا بعيد عن مرمى شفتيه ويديه : إن كل ما قلته يا أخى حق ، ولكن الحرية لا تنافى الذوق ، والجمهورية لا تعادى النظافة . وإن دينك وهو دين الجماعة قد سن للاجتماع سننا يجب أن تتبع ، وفرض للسلوك آدابا يحق أن تراعى . وإذا كان من سنن الدين ألا تأكل الثوم ولا البصل ولا الكرات يوم الجمعة ، وأن تغتسل وتتزين وتتعطر قبل الذهاب إلى الصلاة ، فإن من سننه أيضاً ألا تركب مع الراكبين وأنت قذر الثياب ، وألا تجلس مع الجالسين وأنت مريض البدن .

من آثار العبودية

بأمر الثورة وحكم الدستور أصبحنا جميعا سادة ، فلا عبودية لصاحب الحكم ، ولا تبعية لمالك الأرض ، ولا طاعة لغير القانون .

واقتضت المساواة فى السيادة أن تلغى الرتب والالقاب فتحقق بذلك المثل القائل :

كل إنسان ، فى نفسه سلطان !

ولكنك لاتستطيع بالأمر أن تمنع الكلب أن يبصبص لك بذنبه ، ولا القط أن يتمسح فيك بجنبه . وسر الوراثة الذى يعلم الفرخ الخارج من البيضة كيف يلقط الحب وينشر الجناح ، هو الذى يفرض على سلائل المستعبدين أن يحنوا الرأس ويدهنوا اللسان .

لقد ألغيت الرتب والألقاب من سجلات الحكومة وقوانين الدولة ، ولكن لفظى الباشا والبك وتوابعهما من صاحب المعالى وصاحب السعادة وصاحب العزة لاتزال لاصقة بالأفواه لصوق الريق ، تتردد فى الخطاب ، وتتدخل فى الحديث ، وتُنشر بين قوسين فى الصحف . وليس لذلك موجب إلا هوان النفس على النفس ، واعتياد الذليل للذل .

إن الفقير أو الضعيف لايزال ينظر إلى الغنى أو القوى من خلال الهالة التى ضربها هو من حوله بفقره أو بضعفه . فهو بحكم العادة يخاطبه خطاب الأدنى للأعلى ، ويرى من الصعب على نفسه أن يسمى صاحب الطين والعقار ، ورب الدائرة والدوار ، ومالك الحياة والموت عليه بالأجرة أو الإيجار :

(على حمدى) بعد أن ظل أكثر عمره يسميه « على باشا حمدى » .

وابن آدم كما يشهد تاريخه الطويل وضيع بطبعه . يضع لنفسه من الحجر أو الشجر صنما يعبده ، إذا لم يجد فى جنسه من الملوك والطغاة من يستعبده .

وهو يرضى هذه الضعة فيه بلذة الخضوع لذوى المال أو الجاه وإن لم يأته من ناحيتهم نفع .

قال شاعرنا المتنبى :

وقفت يوما على فاكهانى ببغداد أشترى منه بطيخا . فساومته عليه بكذا درهما فأبى أن يبيعنى إياه إلا بضعف ما فصلت . ومر عليه وأنا واقف رجل من ذوى الهيئات فأعطاه فى البطيخ نفسه أقل مما قدمت فقبل ، وأمره أن يحمله إلى داره فأطاع . فلما رجع قلت له : رفضت أن تبيعنى البطيخ بالثمن الأكثر ، وقبلت أن تبيعه ذلك الرجل بالثمن الأقل . وحملته إلى داره بنفسك وكنت إذا اشتريته أنا لا أكلفك هذا الحمل . فما معنى هذا ؟

فقال لى الفاكهانى : أتدرى من هذا ؟ قلت : لا . قال : هذا فلان صاحب الضياع التى لاتحد ، ومالك الأموال التى لاتعد !!

فسلمت لمنطق الطبع وطلبت المال منذ ذلك اليوم !

اى أيامك أروع ياجمال؟

أيوم نفخت فى الصور ياثائر فبعثت شعبنا من رمسه . .

أم يوم قذفت بفاروق فى البحر ياقائد فطهرت أرضنا من رجسه . ؟

أم يوم صرعت الإقطاع يامصلح فأنقذت قومنا من بؤسه . ؟

أم يوم أعلنت الجمهورية ياعظيم فاستخلصت عرشنا من غاصبيه . ؟

أم يوم حققت الجلاء يابطل فاسترجعت استقلالنا من سالبيه .

أم يوم أممت شركة القناة يارئيس فاستردت مالنا من ناهبيه ؟

كل يوم من هذه الأيام الستة ملحمة فريدة فصولها آيات بطولة، وتاريخ حافل صفحاته سجلات مجد ، ومعركة فاصلة تنتهى بعهد وتبتدىء بعهد !

وإن أيامك ياجمال من أيام الله وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون !

سمعتك ياجمال وأنت تخطب فى الاسكندرية خطبتك الأخيرة الخطيرة فتلقى فى سمع الزمان أقوالك الساطعة بالحق ، القاطعة بالعزم ، القوية بالإيمان ، وأقطاب العالم كله سكوت حول الراديو يستمعون لما تقول ، ويهتمون بما تقرر ، ويتخوفون مما ترمى ، ويتشاورون فيما تريد ، فتذكرت رجلين كنت أسمعهما وأنا فى عهد الشباب يتكلمان فينصت الدهر وتميد الأرض وتخشع الدول وتهتز أسلاك البرق وتفيض أنهار الصحف ، أحدهما السير أدوارد جراى فى لندن ، والآخر الامبراطور غليوم فى برلين . وربما كان التصريح الذى أعلنه هذا ، أو الخطاب الذى ألقاه ذاك ، عبثا من العبث .

أو سخفا من السخف ، ولكن قوة الكلام من قوة المتكلم . فالأول كان وراءه أقوى أسطول فى البحر ، والثانى كان وراءه أقوى جيش فى البر .

وأراك يا جمال بلغت اليوم ما بلغ ذانك الرجلان من غير أسطول كان من بعض قواده نلسون ، ولا جيش كان من أقل جنوده هتلر !

فبأى شىء بلغت هذا المبلغ فى أربعة أعوام وقوى الشر كلها فى الداخل وفى الخارج كانت حربا عليك ؟

قل بفضل الله الذى اصطنعك واصطفاك ، و بفضل الله الذى كفاك من السوء ما كفاك ، وبفضل الله الذى أرشدك ورعاك .

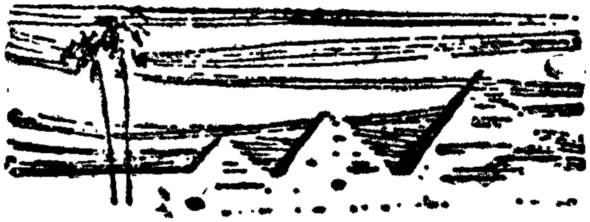

في المصعد

دخلتا المصعد معا . ثم أغلقت السمراء الباب ومدت يدها إلى لوحة الأزرار وعينها إلى الشقراء الجميلة تسألها بالنظر إلى أى طابق تصعد .

الشقراء ـــ العاشر من فضلك .

السمراء ـــ وأنا أيضاً فى العاشر . أظنك زائرة . فإنى لم أرك من قبل فى سكان الشقق السبع .

الشقراء ـــ أنا مدعوة إلى العشاء عند بعض الأصدقاء .

ثم نظرت فى ساعة يدها وعادت تقول :

كان الموعد الساعة الثامنة فتأخرت نصف ساعة بسبب المواصلات البطيئة .

السمراء ـــ أوه ! لعن الله المواصلات ! تصورى أنى قطعت المسافة بين مصر الجديدة وهنا فى ساعة ونصف ! ولولا أن زوجى استأذننى أن يتعشى فى النادى هذا المساء لطلبت إليه أن يجيئنى بالسيارة .

وكنت فى أول النهار قد استأذنته أن أبيت عند أمى المريضة هذه الليلة وأذن فى ألم ظاهر وضيق شديد . فلما وجدت حالتها أحسن فضلت أن أبيت فى بيتى وألا أشق على زوجى ...

وكان المصعد قد وقف على باب الطابق العاشر فخرجت منه السيدتان . ووقفت الشقراء مترددة تلتفت ذات اليمين وذات الشمال وتنظر فى أرقام الشقق فسألتها الشقراء :

عن أى رقم تبحثين ؟

— : عن رقم ٤٥

— : ٤٥ !! عند جلال « بك » ؟

— : نعم :

— إن شقته بجوار شقتى فتعالى معى .

وقفت الدليلة أمام الشقة الخامسة والأربعين وتطوعت بغمز الجرس . فسمع السيدتان من خلف الباب قدمين تقبلان فى سرعة ، ويدين تفتحان فى لهفة . وفتح المصراع الأيمن فإذا جلال أمام زوجته وصديقته وجها لوجه !

دخلت الزائرة الحسناء وهى تحسب أن رفيقة المصعدقد انصرفت إلى شقتها المجاورة ونظرت أمامها فإذا جلال قد تهالك على الكنبة غائب الوعى فاقد الحركة .

ونظرت وراءها فإذا سعاد قد أغلقت الباب وأطبقت يدها على المفتاح . ثم أسرعت إلى التليفون فأدارت الأرقام : ١ ، ٢ ، ٢ ولم يمض غير قليل حتى فتحت الباب ثانية لشرطةالنجدة فأثبتت فىمحضرها الكباب والشراب وحضور العشيقة وغيبة الخدم !

قص على هذا الحادث الأستاذ ، . ك . محامى الزوجة وعقب عليه بقوله : لم يدم هذا الزواج غير ثمانية أشهر ، لأن الزوج كان من طراز إلهامى حسين يتخذ الزواج من الأميرات والغنيات حرفة . يعيش معهن عيش الخادم فيمالق وينافق ويتواضع . ويعيش مع غيرهن عيش السيد فيتأله ويتأبه ويتعالى . وهو فى الحالين يبيع من كرامته ليشترى ملذاته ، ويأخذ من زوجته ليعطى عشيقاته .

خروف العيد

حيوان وديع مطيع ساذج ، كتب الله عليه منذ ولد آدم قابيل وهابيل ، وابتلى الله إبراهيم بذبح إسماعيل ، أن يكون سفك دمه تكفيراً عن خطيئة خاطىء أو فداء عن حياة هالك . والقرابين من الحيوان الضعيف الأليف شعيرة من شعائر الأديان كلها . وكان من هذه القرابين ما يحرق وكان منها ما يذبح . وإذا خفيت عن العقول حكمة الأضحية المحروقة فإن الأضحية المذبوحة نوع من الصدقة ودليل على التقوى . « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

والخاطر الذى استبد بفكرى وأنا أسمع مأمأة الخراف ترتفع ليل نهار من الشوارع والبيوت أن ضعف هذا الحيوان هو الذى قضى عليه بهذا المصير ! فلو أن له مخلباً كالأسد أو ناباً كالنمر لأفتى ابن آدم بعلمه الواسع أنه من الأنواع التى لا يجوز شرعاً أن تقدم قرباناً ولا أن تذبح تضحية .

وقانون الطبيعة الذى لا ينسخ ولا يلغى ولا يعطل . فى البر والبحر ، وفى الغابة أو المدينة ، وفى عصر الحجر وعصر الذرة ، أن الأقوى يفترس القوى ، وأن الأضعف يختل الضعيف .

وبمقتضى هذا القانون الأزلى الأبدى كان فى الأرض قطعان من الإنسان ، كما كان فيها قطعان من الخرفان ، هذه وتلك تؤمّن وتسمن لتقدم طعاماً شهياً على موائد الطغاة ، أو قرباناً زكياً على مذابح الآلهة !

والعاصم الوحيد من مدية الكاهن أو الجزار ، أن تكون من ذوات الانياب والأظفار ، لا من ذوات الأصواف والأوبار .

وإياك أن تغتر بكلمات الإنسانية والمدنية والديمقراطية والأخوة والعدالة فإنها الطعم للصائد الماكر إذا صعب عليه أن يغترف السمك بيديه !

اجتهد دائما أن يكون فى يدك السلاح لا أن يكون فى عنقك الحبل !

كومنولث لعبيد

أول ما خطر ببالى وأنا أفكر فى عنوان مقالى أن أجعله (الكومنولث الإسلامى) ولكن عز على أن أنسب إلى الإسلام وهو دين الحرية والسمو عملا ليس فيه أثارة من وحيه ولا دلالة من معناه ، فقلت أجعله : (الكومنولث المتطوع) ولكن التطوع لا يكون إلا من ذات النفس لذات الخير ، وهذا العمل جبر لا خيار فيه ، وشر لا خير منه .

فقلت أنحت له اسما من أسماء أعضائه الأربعة ، فآخذ من تركيا (تر) ومن باكستان (با) ومن العراق (عر) ومن إيران (أن) وأقول الكومنولث الترباعرانى . . ولكنى وجدتنى آخذ الحرفين من لفظ العراق وكان الحق أن آخذهما من لفظ (نورى) فإن العراق العربى الأبى المسلم لا يخرج على إجماع العروبة وهو مختار . ولا يخالف عن أمر الإسلام وهو حر . فضلا عما فى الإسم المنحوت من الترب والبعر وأدب الحديث عن الدول مهما تسىء ينفر من هذه الحروف . ولذلك عدلت عنه إلى العنوان الذى تراه .

* * *

والأمر الذى أكرهنى على أن أخوض حديث هذا الكومنولث المتطفل أنى رأيت أكثر أعضاء الكومنولث البريطانى قد ضاقوا ذرعا بجرائم (جون بول) فنزعوا إلى الانفصال عنه أو شاركوا الأحرار فى الانكار عليه ، إلا العضو المسلم فيه فقد ازداد إيمانه به واشتد إخلاصه له حتى رأى من شرف الجهاد فى سبيله أن يؤلف هو وثلاث دول أخرى تشهد معه أن لا إله إلا الله كومنولث آخر يشارك الأول فى الولاء لتاج الملكة ، وينفرد

هو بالعبودية لقبعة إيدن ، فيعادى من تعادى ويوالى من توالى ، ولا يجرى فى معاداته أو موالاته على منفعة يجرها إليه أو مضرة يدفعها عنه ، وإنما يجرى فيهما على شعوره العارم بلذة التبعية التى غلبت على غريزة الحرية فيه ، فهو يجافى روسيا لمنفعة غيره ، ويصافى اسرائيل لمضرة نفسه ! ولا أدرى لماذا تنقلب الأوضاع وترتكس الطباع فى هذه الدول التى تعتقد الإسلام دون غيرها من سائر الدول ؟ فهل فى الاسلام مايبرر هذا المسخ النفسى الذى يستحب العبودية على الحرية والتبعية على الاستقلال ؟ حاشا لدين الله الذى كرم بنى آدم وربأ بهم أن يسجدوا لبشر أو حجر أن يكون جرثومة لهذه الآفة الانسانية فى هؤلاء المرضى وهو الذى وضعهم من قبل فى موضع الصدارة من العالم فمكن لرشيد العراق أن يقول للسحابة : أمطرى حيث شئت فإن خراجك لى ، ويسر لفاتح الترك أن يجلس على عرش القيصر فى القسطنطينية ، وهيأ لأسلاف باكستان أن يملكوا الهند ؛ ألم يقل الله لهم فى كتابه الذى يؤمنون بتنزيله ، ويستدلون بدليله : (يا أيها الذين أمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . إلى أن يقول عز قوله : وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعل ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) بلى قال الله ذلك وسمعوه ، ولكنهم لم يطيعوه ، لأن العبودية التى تخللت مشاعرهم وضمائرهم ذلك الدهر الطويل قد أماتت فى نفوسهم روح الحرية ، وطمست فى رءوسهم معنى الاستقلال ، فأصبحوا كالنساء لا يشعرون بالوجود إلا بجانب زوج ، أو كالأرقاء لا ينعمون بالأمان إلا فى حمى سيد !

* *

ولعلك سمعت بخبر ذلك العبد الذى قضى أكثر عمره يخدم سيده بجد ، ويرعى ماله بذمة حتى أراد السيد أن يمن عليه بالحرية ، جزاء على إخلاصه فى العبودية ، فقال له العبد فى ذلة ومسكنة : وماذا أصنع بالحرية يامولاى ؟

أتكسونى حريتى مثل هذا الكساء ،وتغذونى مثل هذا الغذاء . وتسكننى مثل هذا القصر ؟ لا يامولاى ! أنا عبدك ما حييت . تطعمنى فأطعم ، وترعانى فأسلم. وهل العيش إلا شبع وأمن ؟

تلك هى الفلسفة الحيوانية التى عبر عنها أمرؤ القيس بقوله :

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصىُّ
فتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع ورىُّ

والإبل فى لغة حلف بغداد هى أمريكا أو الدولار ، فإذا لم يجدوا السبيل إليها اكتفوا بالمعزى وهى انجلترا أو الجنيه. لذلك لم يكادوا يعلمون أن فى مشروع (ايزنهاور) للشرق الأوسط الإبل الحلوب والعشار حتى كانوا أول من صدق به وصفق له !

ولو أن دول هذا الكومنولث الجديد كانوا أبعد نظرا من ذلك العبد وأسمى فكرا من هذا الشاعر لأدركوا أن وراء الغذاء والأمن ، أو الأقط والسمن ، أو الجنيه والدولار ، حياة سياسية أخرى تليق بالإنسانية الرفيعة ، لا تقتصر على مآرب الجسد ، ولا تنحصر فى مطالب الإقليم ، ولا تستكين للأمير مكيافلى ولا للوزير نورى ، ولا تعمد إلى وحدة العرب فتشتتها بالطمع ، و إلى جماعة المسلمين فتفرقها بالشقاق ، ولا تستغل بلايا الاستعمار فى الشعوب من جهل وفقر ومرض لتحملها على المركب الهاوى فى غيابة اللجة . .
هذه الحياة الخيرة المتحررة المستقلة هى التى تعوز حلف بغداد ! وليتهم سموه حلف أنقرة فإن ساستها به أحق ، وسياستها به أشبه !

* * *

إن الاستعمار الذى يركله الحذاء العربى فى كل مكان يتجمع اليوم بحقده وعناده وجرائمه فى إسرائيل ليهجم هجومه الأخير الحاسم على أرض العرب، وسيجعل الصهيونية فى هذا الهجوم رجليه وحلف بغداد يديه .

فهل يدرى هؤلاء الساسة عاقبة ما يفعلون ؟ وهل تدرى شعوبهم حقيقة ما يبيِّتون ؟ وهل تبلغ بهم لذة العبودية للغرب وشهوة السيادة على الشرق أن يتخلوا فى سبيلهما عن أخوة الجنس وإخوانية الدين وحرمة الجوار ومدافعة الخطر العام واستنقاذ الوطن المشترك ؟ لو أنهم كانوا فقراء لقلنا جياع يجرون وراء الرغيف ، ولكنهم يملكون من موارد الرزق ومصادر الثروة ما تتحلب له أشداق الأمم الأخرى . ولولا ما فى أيديهم من ينابيع النفط لما نشأ استعمار ولا نشبت حرب .

* * *

فإلى متى أيها المسلمون فى تركية والعراق وإيران وباكستان تستكينون لشياطينكم الذين يحاربون بكم إخوانكم فى دين الله وشركاءكم فى تراث محمد وزملاءكم فى جهاد الإنجليز؟ هل تظنون أنه يغنى عنكم فى الدنيا أن تقولوا : إخواننا ! أنا معكم بقلوبنا فلا تؤاخذونا بما يفعل المأجور والدخيل ، ولا يشفع لكم فى الآخرة أن تقولوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل . . لا يا إخواننا ! لا معذرة منا ولا مغفرة من الله ! إن هذا الزمن زمن الشعوب . وما هؤلاء الذين يبيعونكم للاستعمار بالثمن البخس إلا أفراد ضعاف الحول لهم ألسن تعرض وأيد تقبض . أما أنتم فالسيوف التى تضرب والسواعد التى تنتج والقوى التى تنفذ . مالكم تلقون بأنفسكم وأموالكم فى أتون الصراع بين الرأسمالية والشيوعية وقد جعلكم الله أمة وسطا تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤدون رسالة السلام والوئام والمحبة ؟

ما بالكم تتبعون هؤلاء الغواة الذين يريدونكم على أن تظلوا توابع لشمس كسفها الله فلا ضوء ولا حرارة ، وعما قليل سيكوِّرها فلا يكون جرم ولا فلك .

ذكروا هؤلاء الخادعين الطامعين أن شمس المدنية قد أرسلت علينا أول أشعتها فى صبح الوجود ، ثم متع ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ، ثم انحدرت إلى المغيب فى بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق . إنها ستغرب لا محالة ، وإنها ستشرق لا محالة . وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لن يكون إلا هنا . وهاهى ذى تباشير الصباح قد لاحت فى آفاق مصر وسورية وهيهات أن ينكروها بالألسن أو يستروها بالأكف !

الرّسالة والأزهر والميثاق

التجدد والتقدم والاتساع والشمول من طبيعة الرسالة المحمدية لأنها رسالة الدهر كله والناس كله . تضمن أصلها السماوى الخالد سر المجتمع البشرى المثالى كما تتضمن النواة سر النخلة السحوق ، والنطفة معنى الإنسان الكامل ، فهى تسير مع الزمن ، وتتطور مع الناس ، وتتسع مع العمران ، وتتعمق مع العلم ، ليكون فيها لكل غاية منهج ، ولكل أمة دستور ، ولكل علة علاج ، ولكل قضية حكم .

تفطرت هذه النواة عن سرها الإلهى على يد غارسها الأعظم بالمدينة ، فغذاها الوحى ، وسقاها الإيمان ، وتعهدتها النبوة ، حتى قام فى ظلها البادى مجتمع الأنصار والمهاجرين على الوحدة والأخوة والتعاون ، ثم انبسط الظل فى بوادى الجزيرة كلها فجعلها واحة للعدل والإحسان على قدر ما تتقبله الحياة البدوية والطبيعة الجافة ، ثم امتدت الرسالة مع خلافة الراشدين إلى مشارف الشام وأرياف العراق وجنات مصر ، فنفخت فى الحضارتين الرومية والفارسية من روح الله فنفت عنهما الخبيث ، وأبقت منهما الطيب ، وساستهما على نظام فريد من نظم الحضارة الروحية المسلمة . ثم أدركت الخلافةَ الأموية فى دمشق وهى تمد عينيها إلى أبهة البلاط الكسروى وترفه فكسرت من نظراتها الرغيبة ، وشغلتها بالفتح الزاحف ، وأسعفتها بالتشريع المقيد ، وأقرتها على اقتباس النظم السياسية والإدارية والاجتماعية مما لا يخالف أصلا من أصول الإسلام ولا يجافى خلقاً من أخلاق العروبة .

ثم انتقل سلطانها مع بنى العباس إلى العراق وكان العرب قد فتحوا أكثر

المعروف يومئذ من الدنيا القديمة ، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقا إلى جبال البرانس غرباً ، فآوت إلى ظلها الوارف وكنفها الرحب أجناس الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب ، فلم تضق بعلم ولا فن ، ولم تبرم بحضارة ولا عمارة ، ولم تتجهم لزخرف ولا زينة ، ولم تعى عن جواب ولا حل ، ولم تصد عن تطور ولا تقدم ، وإنما أخرجت مما خلفته القرون من العادات والاعتقادات والمذاهب والنظم مزاجا من العقلية العربيـة والمدنية الإسلامية كرم الإنسان وعدل الميزان ومدن العالم .

وها هى ذى تتقبل اليوم النظام الاشتراكى العربى فى مصر كما يتقبل الأصل فرعه الذى اشتق منه لا تتنكره ولا تزورّ عنه . وما كان لرسالة محمد أن تتنكر للاشتراكية العادلة المعتدلة وهى التى جعلت للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى لا يكمل دينه إلا بأدائه ، وعالجت الفقر علاج من يعلم علم الاضطرار أنه أصل كل داء ومصدر كل شر . وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأنا وأكثر أوامره ذكرا وأوفر مقاصده عناية .

ولو ذهبت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث فى الصدقات والبر ، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع . وحسبك أن تعلم أن آى الصيام فى الكتاب أربع ، وآى الحج بضع عشرة ، وآى الصلاة لا تبلغ الثلاثين . أما آى الزكاة والصدقات فإنها تربى على الخمسين .

فأنت ترى أن هذه الرسالة التى نزلت على جبل النور فى واد غير ذى زرع لم تلبث بفضل ما استكن فيها من نور الله وعلمه أن سارت مسير الشمس من مشرقها تتدرج مع طاقة العقل وحاجة الناس فى الارتفاع والاتساع حتى أضاءت

كل مكان وأحيت كل هامد . تدرجت من خلافة عمر فى المدينة إلى ملكية معاوية فى دمشق ، ومن امبراطورية الرشيد فى بغداد إلى جمهورية عبد الناصر فى القاهرة ، لم يخبُ لها نور ، ولم يفتر لهـا حَرور ، ولم تسكن لها حركة . وإذا حدث فى بعض العصور المتخلفة أن احتجبت أشعتها الهادية عن النفوس فأصابها البرود والهمود والغفلة ، فذلك لأن فساد الزمان وذهاب السلطان واستعجام اللسان تنشىء سحابا ثقالا من الجهل والشك تحول بين الأبصار والهدى ، وتفصل بين البصائر والحـكمة .

فى عصر من هـذه العصور التى غامت فيها الآفاق الإسلامية بهذا الركام انقطع الأزهر وهو وريث النبوة عن دنيا الناس فلم يتصل بهـا منه إلا أعلام قلائل كانوا كالصُّوَى فى هذه المفازة يصطفيهم الله من حين إلى حين ليجددوا دعوته ويعلنوا كلمته .

كان الأزهر يعيش حينئذ على بعض التراث الإسـلامى من فقه وحديث وتفسير وما يعين عليها من نحو وصرف وبلاغة . ولم يكن يعنى من الفقـه إلا بالعبادات وهى مناط الصـلة بين العبد وربه . أما المعاملات وهى مناط الصلات بين المرء وغيره فلم يكن يعنى بها ويتفقه فيها إلا رجال القضاء والحـكم فى الدولة . ولا تسل بعـد ذلك عن علوم الدنيا من طب وفلك ورياضة وزراعة وكيمياء وفيزياء وصيدلة ، فقد كانت من الفضول الذى لا يعبأ به أحد ولا يفرغ له بال

زار القاهرة فى عهد محمد على مستشرق أوربى فطلب أن يجتمع بعالم أزهرى له دراية بعلم الفلك فلم يجدوا له بعد طول البحث إلا شيخا واحدا درس هـذا العلم على نفسه هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .

كان ذلك ولا ريب ميـلا عن طريق الرسالة المحمدية التى جاءت لتصل الأرض بالسماء ، وتنظم الدنيا بالدين ، وتحيي المادة بالروح ، وتـكشف الجهالة بالعلم ، وتمحو الضلالة بالهدى ، ولـكنه كان ولا ريب أيضاً عرضا زائلا ومرضا موقوتا لا تلبث علته أن تزول متى انجابت تلك السحب وتجلى من ورائها دين الله نور السموات والأرض لجمع المتفرقين على الوحـدة · وحفز المتخلفين إلى التقدم . لذلك لم تـكد عواصف الثورة تبدد السحب عن وجه الشمس حتى عاد الأزهر إلى مداره من فلك الرسالة وقد بلغت عصر الذرة ، يقتبس منها أشعة الهدى والعلم ليسهم فى بناء الاشتراكية العربية التى وضع قواعدها (ميثاق عبد الناصر) على أسس ثابتة من الدين والخلق والعـلم والعمل والعدل والـكفاية والحرية والسلام والوئام والوحدة ، وهى أسس كانت فى كل عهد مضى وفى كل جيل خـلا أحلاما لا تحقق ومبادىء لا تطبق حتى جمعها الله فى رسالته وأوحاها إلى رسوله فصلح عليها الناس ما داموا على طريقها المستقيم الواضح . فلما توقح المنكر واستهتر البغى واستحكم الجهل انطفأت أضوؤها السماوية فى نفوسهم فآمنوا بها إيماناً أثريا ظاهريا لا يتعـدى تحريك الألسنة والجوارح بالآيات والصلوات للتبرك أو العادة !

ولـكن الثورة التى أطاحت بالطغيان وبطشت بالإقطاع وبشرت بالديمقراطية ودانت بالاشتراكية واتخذت سندها وهداها من كتاب الله وسنة الرسول وإرادة الشعب لن تدع بعد ذلك سبيلا إلى علة تصيب الحـكم ولا آفة تفسد المجتمع .

* * *

قال الأزهر للثورة يوم دخلت عليـه المحراب تستنهضه ليتبوأ الصدر من قيادة الإصلاح وإمامة النهضـة : نعم ونعام عين ! إن الثورة من طبعى ، وإن

الاشتراكية من روحى ، وإن الهداية من واجبى ، وستجدينني فى طورى الجديد إن شاء الله مظهراً لرسالة الثائر الأعظم فأكون كما كنت طباقا من العلم والعمل، ونظاما من الدين والدنيا ، أخرّج العالم المجتهد الذى يجعل من فقهه رسالة ومن بيانه دعوة ، والطبيب الروحى الذى يجعل من عيادته عبادة ومن مرضاه إخوة، والمهندس التقى الذى يجعل من عمله جهادا ومن خلقه قدوة ، والموظف المتدين الذى يؤثر رضا ربه على رضا نفسه فى كل نزعة أو نزوة . وهـذا هو الإصلاح الجوهرى الشامل الذى تمنى بعضه المصلحون فلم يجدوا من أرباب السلطان والحكم معينا عليه ولا سبيلا إليه .

إن (ميثاقك) الذى عاهدت الله على الوفاء به ، وعاهدك الشعب على اللقاء عليه ، حروف من كلمات الله لم يؤلفها أحد من قبلك فى أى عهد ؛ لا فى القديم والحديث ، ولا فى الشرق والغرب . لم يبق شىء فى نفوس المعذبين فى الأرض والمستضعفين من الناس إلا وجدوه فيه . ولو كان واضعه ممن جرب عليه الكذب وعرفت عنه الخديعة لقلنا سراب ولا ماء ، وقعقعة ولا طحن ، ودوحة فينانة من شجر الصفصاف : خضرة فى العين ، ولا ثمر فى اليدين ! ولـكنه عبد الناصر الذى عود العالم فى عشر سنين ألا يقول إلا بعد أن يعمل ويجتهد ، وألا يفعل إلا بعد ان يعلم ويعتقد

فسيرى أيتها الثورة على بركة الله وأنا أسعى بين يديك بكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

الشاعر الصعلوك

كان الشاعر الشاب عبد الحميد الديب غفر الله له نمطاً وحده فى شعراء العصر .
كان ظهوره رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المكدين الذين لم تهيئهم طباعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التبطل وحملوا عجزهم وعوزهم على لؤم الناس وظلم القدر ، من أمثال أبى الشمقمق الذى يقول :

إن العيال تركتهم   بالمصر خبزهم الغضاره
وشرابهم بول الحمار   مزاجه بول الحماره

ويقول :

ولقد أهزلت حتى   محت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى   حل أكلى لعيالى
من رأى شيئا محالا   فأنا عين المحال

وأبى فرعون الذى يقول :

وصبية مثل فراخ الذر   سود الوجوه كسواد القدر
عاد الشتاء وهمُ بشر   بغير قُمص وبغير أُزر
حتى إذا لاح عمود الفجر   وجاءنى الصبح غدوت أسرى
و بعضهم ملتصق بصدرى   وبعضهم منحجر بحجرى
أسبقهم إلى أصول الجدر   هذا جميع قصتى وأمرى
أنا أبو الفقر وأم الفقر

(١) تقديم لكتاب (عبد الحميد الديب) الذى وضعه فيه صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان.

هؤلاء المفاليك المجان الذين جعلوا الشعر وسيلة إلى العيش بالهجاء الفاحش، والمدح المكذوب، والشكوى المستمرة، كانوا طبعيين فى المجتمع العربى القديم الذى كان يفهم الشعر على هذا النحو. فلما ذهبت بقايا هذا النوع بذهاب خليل نظير، وإمام العبد، وأحمد فؤاد، وأضرابهم، وأصبح للشعر فى الأدب الحديث مفهوم آخر وأغراض أخر، كان شعر الديب شذوذا فى نسق مطرد، ونشوزا فى نغم مؤتلف، ولكنه كان ككل شاذ وكل غريب متجه الأسماع ومضطرب الألسن.

ذلك إلى أنه كان يجرى على أسلوب الحطيئة وابن الرومى فى قوة الهجاء، وعلى أسلوب ابن حجاج وابن سكرة فى فحش المجون، وكان يختلف عن هؤلاء جميعاً بألوان من الصور والتشابيه انتزعها من بيئته ونقلها عن واقعه.

نشأ الديب فى أسرته الصغيرة الفقيرة كالنبتة البرية فى الرملة الجافة، لا يمسكها أصل راسخ، ولا يسندها جذع قوى، ثم عاشت على علالة الجدب وبلالة الندى فاخضرت من غير نضارة، وأشوكت من غير زهر، وظلت فى العراء تقاسى السموم والقيظ، وتكابد السغوب والظمأ، حتى اقتلعتها الريح وألقت بها هشيماً فى أخدود من أخاديد الأرض.

قست الطبيعة على الديب فلم تزوده بما تزود به الحى الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنىء، فكان رغبة جامحة لا تحققها قدرة، وشهوة عارمة لا تضبطها إرادة. ورأى نعم الله تفيض من حوله على من يراهم مثله أو دونه، وليس له منها مورد ولا فضل، فأطال لسانه الحقد، ورفع عقيرته الجوع، وألهب شعوره الألم، وأمض نفسه الحرمان، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح، والصراخ عن المظلوم، والزمجرة عن الساخط. ولم يفهم الشعر على أنه فن يلذ أو رسالة تؤدى، وإنما فهمه على أنه

سلاح يحمى ، أو شص يصيد . وكان منشأ ذلك الفهم القديم للشعر الحديث أنه كان كأكثر الشعراء القدماء لم يعرف الحياة على أنها جد وكد ، وإنما عرفها على أنها لهو وصعلكة ، ولذلك قضى حياته البوهيمية البهيمية شهوان لا ينام إلا على المسكر والمخدر ، ولا يتيقظ إلا على الجوع والظمأ .

ولعل حظه العاثر المتخلف لم ينهض به فى حياته وبعد مماته إلا مرة واحدة ، تلك المرة هى التى أتاح له فيها قلم صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان ، فخلد ذكره بهذا الكتاب القيم ، ذلك الكتاب الذى لم يظفر بمثله شوقى ولا حافظ .

رسم الكاتب فيه صورة الديب فأقام هيكلها من شعره ، ثم جعل فيها اللون والظل والبروز مما عرف من سيرته ، واكتنه من سريرته ، وكشف من أموره ، فجاءت الصورة واضحة الملامح ، بينة الحدود ، واقعية الدلالة ، يترجم عنها بيان مشرق ، ويدلل عليها منطق صائب . فإذا تأملت هذه الصورة أو قرأت هذا الكتاب بدا لك الديب عريان على الفطرة بعُجره وبُجَره ، بنابه وقرمه ، بعوائه وجولانه ، بسره وعلنه . وذلك غاية ما ترجوه من كاتب يكتب للتاريخ ، ومن كتاب يترجم لشاعر .

ابراهيم مصطفى

لم يكد الخالدون[1] الفانون يكفكفون دموعهم على فقد زميلين عزيزين هما المؤرخ شفيق غربال ، والعالم إسماعيل مظهر ، حتى عادت فتقاطرت على فقد زميل عزيز ثالث هو الأديب إبراهيم مصطفى . والأسرة المجمعية يحزنها أمض الحزن أن ترى المنايا السود يتخطفن أبناءها واحدا بعد واحد فى أزمان متقاربة وهى لا تملك لهم إلا عبرات تجف على حر الأسى ، وذكريات تمّحى على كر السنين .

نعم إن المجمعيين كالأنواء فى السماء كلما سقط نجم منها فى المغرب طلع بحياله نجم آخر فى المشرق ، فلا يزال العالم الأدبى منهم فى ضوء مستمر وغيث متصل ، ولكن غروب الغارب ينسى شروق الشارق و يسلم النفس إلى ليل من الحزن طويل موحش · والناس أمواج فى خضم الحياة ، تتولد من بعيد ، ثم تتعاقب رتتدافع فترتفع وتنخفض ، وتضطرب وتصطفق ، وترغى وتزيد ، حتى تبلغ الساحل فتنكسر على صخوره أو تغيب فى رماله ! ونحن الشيوخ نرى بأعيننا الكليلة صخور الشاطىء ورمال القفر على مدى قريب ، فنجد فى أنفسنا الرضا بحلول أصدق المواعيد لأنه العاقبة التى لا مفر منها والغاية التى لا معدى عنها . وسنة الله فى خلقه أن يشيخ الشاب ويهيج الزرع ويجىء الأجل ويموت الحى ، ولكن الإيمان بيقين الموت والاطمئنان إلى نهاية الحياة لم يستطيعا أن يحبسا فى العين دمعة الحزن . ولا أن يخففا عن القلب لوعة الفراق .

نص الكلمة التى ألقيت فى حفل التأبين الذى أقامه مجمع اللغة العربية بداره للفقيد فى يوم ٢٨ مارس من سنة ١٩٦٢ .

(١) لقب يطلق على أعضاء مجمع اللغة العربية وأمثاله فى كل بلد :

والحزن على نوابغ الشيوخ هادىء ولـكنه عميق ، لأن مبعثه فـكرة والفكرة ولود . أما الحزن على نواضر الشباب فهو ثائر ولـكنه ضحل ، لأن مبعثه عاطفة والعاطفة عقيم .

الحزن على فقد الشاب الجميل حزن على زهر ذوى وزرع آف وأمل خاب وسند تحطم ، ولـكن الحزن على الشيخ العظيم حزن على ثروة ضخمة من العلم والخلق والمواهب والتجارب والمرانة ، عمل فى تـكوينها مع الطبيعة الحرة والزمان الطويل عوامل جمة وأحوال مختلفة حتى أصبحت قوة فى طاقة الإنسانية وقطعة من ثروة العالم ، يحدث فقدها فى سير الحياة من الخلل ما يحدثه فقد الضرس الصغير فى الدولاب الـكبير .

وإذا قال أبو تمام :

إن الفجيعة فى الرياض نواضرا　　　لأشد منها فى الرياض ذوابلا

فقد صور الحزن العاطفى على جميل فقد ، ولم يصور الحزن العقلى على نافع ذهب . إن فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار ألوفا من الأنفس تبتلعها القبور فلا يعقب فقدهم فراغا ولا دهشة ، ولـكن فقد عظيم واحد فى العلم أو الأدب أو الفن أو السياسة أو الإصـلاح يحـدث فى العالم من الخسران ما عبر عنه عبدة ابن الطبيب بقوله فى قيس بن عاصم :

فما كان قيس هلـكه هلك واحد　　　ولـكنه بنيان قوم تهـدما

* * *

لم يكن إبراهيم مصطفى علما على شخص وإنما كان علما على ثروة . كان ثروة ضخمة من علوم القرآن وفنون اللسان تجمعت بالحفظ والدرس والتحصيل والتمحيص والدأب والصبر والإيمان فى خمس وسبعين سنة من يوم مولده إلى يوم وفاته .

نشأ الفقيد فى بيت من بيوت القرآن ، فقد كان أبوه رحمه الله قارئاً لكتاب الله مقرئاً إياه ، فأخذه منذ الحداثة بحفظه وتجويد لفظه وقراءته على الأحرف السبعة التى أنزل عليها . ثم غرس فى ذهنه البكر أصول العلوم . فحفظه الألفية فى النحو والتلخيص فى البلاغة والكنز فى الفقه والشاطبية فى القراءات . عرف ذلك منه لِدَته فى العمر ورفيقه فى الدرس المرحوم أحمد أمين حين تلاقيا أول مرة بأحد المساجد الكبرى فى السنة الأولى من هذا القرن ، وكانا مجاورين بالأزهر : أحمد فى سن الخامسة عشرة ، وإبراهيم يصغره بسنة . فعجم كل منهما عود صاحبه بسؤاله عما يحفظ وعما يعلم . فلما وقف أحمد أمين على مقدار تحصيله قال : « فأكبرته واستصغرت نفسى . ومن ذلك الحين تصادفنا ، وكان موطن الصداقة أول الأمر هذا المسجد لسعته وهدوئه . وكنا نجتمع لمذاكرة الأدب نحفظ من مقامات بديع الزمان ومما نختار من رسائله ، ونستظهر ما نختار من أمالى القالى ، ونقرأ فى بلوغ الأرب من أحوال العرب للألوسى ، وأمثال الميدانى ، ولا مرشد يرشدنا إلى ما نقرأ ومالا نقرأ . ثم تفرقت بنا السبل وإن لم تتفرق صداقتنا . فاتجه إلى مدرسة اللغة والأدب والصرف والنحو وهى مدرسة دار العلوم . واتجهت إلى مدرسة الفقه والقانون وهى مدرسة القضاء الشرعى ، ولكننا كنا نجتمع فى الإجازات الصيفية فنتمم ما بدأناه من دراسة الأدب » .

من هذا الجذع الغليظ العميق من فنون العلم تفرعت فى ذهن إبراهيم شجرة المعرفة . وبهذه الحصيلة الأولية القوية من مختلف المحفوظ دخل إبراهيم دار العلوم ،فلم يكد يظفر لملكاته الموهوبة بالمعلم الصالح والجو الملائم والمنهج المؤدى حتى نمت فى ذهنه تلك البذور ، وانشعبت من أصلها هذه الفروع ، وأصبح إبراهيم بين أقرانه ورفاقه الغصن الذى يطول ، للزهرة التى تعد .

قال زميله وزميلنا الأستاذ زكى المهندس — مد الله فى عمره — :

« كان من حظى أن أزامل الفقيد فى الدراسة خمس سنوات كوامل ، يضمنا فصل واحد ، وتجمعنا آمال مشتركة . وأشهد أنه كان أجودنا حفظا لمتون اللغة وفن التجويد وعلم القراءات ، وأشدنا شغفا بالبحث فى كتب النحو والصرف ، وأكثرنا إلماما بنصوصها وشواهدها وشروحها وحواشيها . فما من مسألة لغوية عويصة عرض لها الأساتذة إلا كان له فيها جولة تنم عن اطلاع واسع وذكاء ملحوظ حتى دعاه أستاذنا المرحوم سلطان محمد بسيبويه الصغير . ولقد ظهرت فى الفقيد بواكير الحرية فى التفكير والنزعة إلى التجديد فى هذه الفترة من حياته ، فلم يكن كغيره من الطلاب يسلم بما يقوله الأساتذة من غير نقاش ولا بحث ، وما زلت أذكر نقاشا حادا جرى بينه وبين أستاذ الأدب المرحوم الشيخ علام سلامة حين قرر أن أمدح بيت قالته العرب قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فقد فند هذا الرأى المأثور وأخذ يدلل على خطئه بأبيات من شعر حسان وغيره »

* * *

وكذلك كان أمره مع سائر الأساتذة فى قضايا النحو والصرف . ولعل صوت الطالب إبراهيم مصطفى كان أول صوت ارتفع فى دار العلوم بالدعوة إلى تحقيق المأثور عن القدامى من هذه التعليلات الفاسدة والأقوال الخاطئة . وكان من أعز أمانيه وهو فى دار العلوم أن يكون يوما مدرسا بها . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل هذه الغاية أن تبعثه الدار إلى انجلترا ليستفيد ويستزيد . وقد رشحته فعلا للبعثة ، ولكن فشله فى الفحص الطبى حال بينه وبين ما تمنى

لم يرض لنفسه أن يكون هذا التخلف القهرى عن الدراسة فى الخارج سبيلا إلى تخلفه عن أنداده المبعوثين فى العلم والمكانة .

وإنما رضى لها أن يكون حافزا ألهب طموحه إلى التفوق وأرهف عزمه على التكمل فأنف أن يسلك سبيل المتخرج العادى البادىء فلم يعمل فى المدارس الأميرية وإنما عمل فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون الأفق من أمامه أرحب ، والأرض من تحت أقدامه أثبت ، والحرية فى تطبيق أحكامه أطلق ، والمكافأة على جهوده أجزل ، فكان معلما فناظرا فمفتشا ، حتى إذا عاد أقرانه من انجلترا وجدوه فى المنصب المرموق بالمرتب المضاعف . ثم سمت به كفايته إلى كرسى الأستاذية بكلية الآداب من جامعة القاهرة ، فسطع فيها نجمه وتجلى بها نبوغه . تخصص فى تدريس النحو فاستقصى أطرافه واستجلى غوامضه ، وأولع بقراءة كتاب الحجة لأبى على الفارسى فى القراءات يستوعبه و يستوحيه ويجد فيه جلاء لما تخالج فى صدره منذ صغره من اختلاف القراءات وتعدد اللهجات وتنوع العلل . فجره ذلك إلى النظر فى فلسفة النحو وإصلاح ما أفسده النحاة المناطقة منه فبدأ بالعامل . والعامل كما تعلمون هو المحرك لسكون الكلمات ولا محرك غيره . فالإسم مثلا يرفع لعامل وينصب لعامل ويخفض لعامل ويجزم لعامل . فإذا لم يكن العامل ظاهراً قدروه ، وإذا لم يكن موجودا أولوه . ولما سئلوا عن العامل فى رفع المبتدأ قالوا إنه الابتداء ، وعن العامل فى رفع المضارع قالوا إنه التجرد من الناصب والجازم . فقيل لهم إن فى جعل الابتداء عاملا فى رفع المبتدأ تكلف لا يسيغه ذوق ولا يسوغه منطق ، وإن تجرد المضارع من الناصب والجازم عدم والعدم لا يعمل ، فردوا على ذلك بكلام لا غناء فيه ولا طائل من ورائه .

هدم الفقيد هذه القاعدة وأنكر أن يكون الرفع والنصب والجر أثر العامل وقرر أن العربى حين يرفع الإسم يلحظ فيه أنه مسند إليه أو مخبر عنه وأنه أساس الجملة . فإذا جره لحظ فيه الإضافة إما بأداة أو بغير أداة ، أما إذا نصبه فلأن الفتحة هى الحركة المستحبة عند العرب يستخفونها إذا لم يدعهم داع إلى الرفع أو الجزم

وعلى هذا الأساس بنى نظريته فى إعراب الاسم ، وعلى هذه النظرية وضع كتابه (إحياء النحو) .

ولم يجد هذا الرأى مساغا فى عقول النحاة العصريين فردوه وفندوه ، ولكنه كان صيحة فيهم لإصلاح هذا النحو وتيسيره لا يزال رجْعها يدّوى فى دار العلوم والأزهر والمجمع اللغوى حتى اليوم .

مضى إبراهيم فى جهاده اللغوى المرهق المثمر ، يحاضر الطلاب ويوجه المعلمين و يعاون فى وضع الكتب ، ويشارك فى رسم المناهج ، حتى تولى العمادة فى دار العلوم فأعطاها أكثر مما أخذ منها ، وأبلغها فوق ما بلغ بها . وفى سنة ١٩٤٩ انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية ليجلس على كرسى المرحوم على الجارم فاستوى عليه استواء الند الكريم والخلف الصالح ، واضطلع بأعبائه فى لجنة الأصول وفى لجنة المعجم الوسيط وفى لجنة تيسير الإملاء وفى لجنة معجم ألفاظ القرآن فنهض بها نهوض الكفىّ الضليع لا يتخفف منها لأنها رسالة حياته ، ولا يتبرم بها لأنها حاجة نفسه . ولقد قال فى خطبة استقباله بالمجمع : « لقد أمضيت سنوات فى مسألة من النحو قيل إنى رأيت فيها رأيا واتخذت فى دربها نهجا . والآن أستبشر أنى فى ظل المجمع أستطيع أن أخطو خطوة ثانية ، وأن أجد ما أحتاج من التسديد والإرشاد والعون » . وكانت هذه الخطوة الثانية أن تبنىَّ فى المجمع المشروع الذى وضع قواعده فى لجنة تيسير النحو بوزارة التربية والتعليم وكانت مؤلفة منه ومن زملائه طه حسين وأحمد أمين وعلى الجارم فجادل عنه بالحجة ، ودعا إليه بالحكمة ، حتى أقره المجمع ومؤتمره .

وكان لهذا التيسير أثره فى تعديل المنهج وتأليف الكتاب وتوجيه المعلم ، فأخذته صيحة من النقد العاصف فى القاهرة وفى دمشق ، وكان وهو وليه ونصيره

يومئذ يقاسى دورا من أدوار علته المزمنة ، فلم يستطع رد الكيد عنه ولا صد الهجوم عليه ، فقتل فى القاعة التى ولد فيها من قاعات (دار العلوم) .

ثم وجه همه إلى تيسير الكتابة العربية ، وهى المشكلة الثانية من مشكلات اللغة بعد النحو ، فكان له رأى فى رسم الهمزة واقتراح فى كتابة الألف اللينة واشتراك فى اختصار حروف الطباعة . أما فى لجنة المعجم الوسيط فقد عمل فيها على هدى ما تأصل فى نفسه من هوى الإصلاح والتجديد . كان يبالغ فى حذف المهجور من الألفاظ والتراكيب ، ويغير من بعض المأثور من الأمثلة والتعاريف ، ويرانا نقف فى إثبات الجديد من الألفاظ عند قرارات المجمع وإجماع الناس وضرورة الحاجة ، فيثبت هو إذا ما انفرد بالعمل فى بعض الحروف ، بعض الكلمات الخالصة فى العجمة : كالبكس والتياترو والتايبريتر ، وكان الكتاب قد ارتضوا من قبل ذلك اللاكمة والمسرح والآلة الكاتبة ، ولكنها النزعة الطاغية التى استبدت بالفقيد فى مجال التقريب بين الفصحى والعامية .

وفى لجنة معجم ألفاظ القرآن كان قطبا من أقطابها الذين يدور عليهم البحث ويرجع إليهم الحكم . وبحسبكم دليلا على مكانته منها وحسن بلائه فيها أن الشيخين الأكبرين إبراهيم حمروش ، ومحمود شلتوت ، وهما ماهما بين أعضاء هذه اللجنة ، جاءاه يوما وهو جالس معى فى قاعة المجلس يعتبان عليه أن ينقطع عن العمل معهم فى المعجم لخلاف فى الرأى لا يصعب الاتفاق فيه ، ويرجوان منه فى إلحاح أن يصل ما انقطع من مشاركته . وكان إبراهيم يلقى المعاذير ويظهر التأبى ، فقال لى الشيخ شلتوت عافاه الله : ما الحكم فيمن يهجر مجلس القرآن ويصر على الهجر ؟ فقلت له مازحا : يدخل فى منطوق حكم الله الذى قضاه بقوله : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » فأخذ الشيخان يدفعان

بيديهما فى صدره ويقرآن بقية الآية الكريمةويرددانهاوهو يستغيث بى و يقول : أفتيتهما بقتلى وتضحك ؟ .

وحِرْص الفقيهين الكبيرين على بقائه معهما فى لجنة المعجم القرآنى شاهد على طول باعه فى تفسير الكتاب وانفساح ذرعه فى فقه مراميه ، ولهاتين الفضيلتين من فضائله اختاره الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عضواً فى مجمع البحوث الإسلامية .

أما اختلافه معهما فى النظر إلى حد الاعتزال فدليل على استقلاله فى الرأى ، واجتهاده فى الفهم . والاستقلال والاجتهاد كانا من أخص صفات الفقيد ، فقد كان له فى كل مسألة رأى ، وعلى كل رأى اعتراض ، ومن هنا كانت حياته العامة كلها حياة تجديد ومعارضة .

* * *

سيداتى : سادتى ! كان إبراهيم مصطفى رجلا ظاهر الرجولية بارز الشخصية فى كل رأى رآه وفى كل عمل تولاه ، وكان مظهر رجوليته ومبرز شخصيته فى اعتداده برأيه ، واعتزازه بنفسه ، وامتيازه فى علمه .

كان من أثر اعتداده برأيه إنعتاقه من عبودية النص وانطلاقه من إسار التقليد ، فهو فى الدين مجتهد ، وفى اللغه متطور ، وفى النحو متحرر .

كان على تبحره فى النحو وتخصصه فيه وتعيشه عليه لا يتعصب له ولايتزمت فيه ، كان فى لجنة وضع المناهج للمدارس الابتدائية والثانوية يصر على حذف بعض الأبواب والأعضاء يخالفونه فى هذا الحذف .

وكان فى لجنة المعجم الوسيط يسرف فى إغفال بعض المواد والأعضاء يراجعونه فى هذا الإغفال .

وكان فى لجنة معجم ألفاظ القرآن يجتهـــد فى فهم معنى اللفظ

والأعضاء يعارضانه فى هذا الاجتهاد .

وكان غالبا ما يسفر الجدل بين التقيد والانطلاق عن رأى سليم يقف من المسألة عند حد الوسط .

على أن اعتداده برأيه كان يحمله أحيانا على أن يصطنع لهجة الأستاذية فى خطاب بعض زملائه فيكدر ذلك من صفو المودة بينهم و بينه .

وكان من أثر اعتزازه بنفسه أن اعتراه ما يشبه الحساسية المرضية لكل ما يجافى شعوره أو ينافى كرامته . توثقت عرى المودة بينه و بين سرى من أعيان السراة كان وليا على شئون الجمعية الخيرية الإسلامية حين كان هو موظفا بها ، فأظله السرى بعطفه ، ورعاه بجاهه ، وأزال الكلفة بينه و بينه . فما هو إلا أن بدرت من الرئيس المسلط كلمة تنم عن سراوته أو رياسته حتى ملكته سورة العزة فانصرف عن مجلسه وصد عن لقائه ، وكانت الحظوة لدى هذا الرئيس مطمح كل نفس ومطمع كل واصل . ولا أزال أذكر تلك القصة الرمزية التى شيع بها هذه الصداقة ونشرها فى مجلة (السفور) بعنوان (وفاء كلب) .

كذلك تأكدت بينه وبين الأستاذ أحمد أمين عقدة الحب فتساهما الإخاء منذ الصبا ، وتقاسما الوفاء أكثر العمر ، وخاط نفسه بنفسه حتى بلغ من حبه إياه أن سمى أحد ولديه باسميهما معا ليتحدا فى اللسان لفظا كما اتحدا فى القلب معنى : سماه أحمد أمين إبراهيم مصطفى . ولكن هذه المخالصة الشديدة لم تستطع أن تقاوم عزة نفسه حين حك فى صدره شىء من تعالى صديقه ، ولعل ذلك كان توهما منه ولدته الحساسية من اختلاف المنصب وذيوع الشهرة ، ففتر الحب المضطرم، وفرغ القلب المشغول ، وجرى الأمر بين الرجلين مجرى الزمالة المألوفة والصداقة العادية .

ثم كان من أثر امتيازه فى علمه أنه وصل ما انقطع من زعامة المصريين للنحو

بعد ابن هشام وكانت هذه الزعامة قد انعقدت لمصر فى القرنين السابع والثامن من الهجرة بمن نبغ فيها من أخلاف سيبويه كطاهر بن بابشاد ، وابن الحاجب وابن منظور وابن هشام والدمامينى والأشمونى والصبان . ولكننا إذا استثنينا من هؤلاء جمال الدين هشام الذى قال فيه ابن خلدون : إنه أنحى من سيبويه لانجد فى الباقين من نظر فى النحو نظرة إبراهيم مصطفى . نظر القدامى فى النحو على أنه غاية لاوسيلة ونظر لاتطبق ، جعلوا النحو للنحو كما جعل قوم الفن للفن ، وعالجوه معالجة المنطقى الفيلسوف لا معالجة اللغوى الأديب ، فوسعوا أبوابه وعددوا مذاهبه وشرحوا غوامضه ومحصوا حقائقه وفلسفوا علله ، وبحثوا فى كل شىء إلا فى الموضوع الذى دار عليه والغرض الذى وضع من أجله . لم ينظروا فيه نظر الناقد المصلح الذى يرى المبهم فيوضحه والمعوج فيقيمه والمشوش فيرتبه ، وإنما اتخذوا منه رياضة ذهنية ومتعة جدلية تتسابق فيها الأفهام بالتقديرات الغريبة والتعليلات الباطلة . إبراهيم وحده هو أول من تمرد على هذا المنهج القديم وحاول أن يجعل من النحو وسيلة مباشرة لإحسان الكلام والكتابة بأيسر جهد وفى أقصر وقت . فقضى أكثر عمره يخطط هذا النحو على النحو الذى يريد ، وإلى الوجه الذى يقصد . فإذا أعجله الموت عن تنفيذ ما أمل فإن الفكرة الطيبة كالبذرة الطيبة تتعهدها الطبيعة بالغذاء والرى حتى تخرج بإذن ربها نامية باقية .

كان رحمه الله عمليا يضع أمام عينيه الهدف الذى يعينه ثم يرميه من أقرب الجهات وأقصد السبل . ففكر مرة أن يلغى النحو والصرف من مناهج التعليم الابتدائى والثانوى اكتفاء بتنشئة التلاميذ على النطق الفصيح والكتابة الصحيحة بالسليقة والمحاكاة كما كان يصنع العرب الأولون ، فطلب من وزارة التربية والتعليم لهذه التجربة فصلا من فصول المدرسة النموذجية وكانت تسمى يومئذ

الفصول التجريبية ، وظل يمارس هذه التجربة عاما بطوله ، ولا أدرى ماذا كانت النتيجة .

كان إبراهيم إذن من نحاة الطابع لا من نحاة الصنعة ، وكان علمه بالأدب وأساليبه لا يقل عن علمه بالنحو ومذاهبه . كان من النحاة الأدباء كالمبرد والزمخشرى وابن جنى ، يكتب فيجيد ، وينقد فيصيب ، ويحاضر فيمتع . ولكنه أوتى اللسان الذلق والبديهة الحاضرة والقريحة الطيّعة فطغت فيه ملكة الخطابة على ملكة الكتابة .

ذلكم أيها السادة بعض الكلام فى جانب من جوانب الرجل الذى فقدناه ، وإن جوانبه الأخرى لأرحب وأخصب . وإذا جل الخطب بفقده اليوم فإنه سيكون غداً بافتقاده أجل ؛ لأن الغنى عن مثله عسير ، والعوض عن كفايته أعسر . واللغة العربية فى محنتها الحاضرة يوهى من دفاعها ومنعتها أن تصاب فى أبنائها الأحرار الأبرار الذين وقفوا جهودهم عليها ، واستنزفوا أعمارهم فيها ، وكانوا لها وزرا فى الشدائد وجُنة .

أخانا إبراهيم !

إن إخوانك لا يزالون بعد أربعين يوما من انصرافك إلى جوار ربك يغالبون الجزع عليك ويراودون العزاء عنك ، ولكن كرسيك الذى لن يشغل فى المجمع ، ومكانك الذى لن يحتل فى المجتمع ، وجهادك الذى لن يعوض فى الأدب ، يجعل الصبر على مصابك أمراً لا يدرك إلا بالزمن الطويل .

أخى إبراهيم !

دخلنا المجمع معا فى يوم واحد وخرجت منه قبلى . والبابَ الذى خرجت

منه مفتوح أبداً ، لا يضيق ولا ينغلق . إنه الباب الوحيد الذى فتحه الله على حدود الدنيا ليجتازه كل حى إلى حيث يفنى كالبهيم ، أو إلى حيث يبقى كالملك .

وأنت يا إبراهيم فى الحياتين خالد : خالد فى دنيا الناس بالذكر الحسن ، وخالد فى جنة الله بالعمل الصالح .

إن من بكاك فسوف يُبكى ؛ وإن من رثاك فعما قريب يُرثى :

لا يُلبث القرناء أن يتفرقوا   ليل يكر عليهمُ ونهار
فاذهب كما ذهبت غوادى مزنة   أثنى عليها السهل والأوعار

وسلام الله عليك يوم فقدناك .

وسلام الله عليك يوم نلقاك .

الجزيرة تنتفض مرة أخرى

تنتفض الجزيرة العربية اليوم انتفاضتها الأخرى ، وكانت الأولى منذ أربعة عشر قرنا حين شاء الله أن تخفق على الجبال الصهب ، وفوق الرمال الصفر ، أجنحة الوحى نازلة بنور السماء وعبير الجنة وسلام الروح ووحدانية الله وحرية الإنسان وعدالة الحق ، على بلد أو بقته الوثنية وأهلكته العصبية وأكلته الحروب واستعبده الطغيان واستذله الحرمان وهان على الدنيا حتى أكل القذر وشرب الكدر وعبد الحجر وشرد عن ركب الحياة .

فلما أصابه الغيث الإلهى اهتز القفر ، وربا الصخر ، وأنبت هذا البلد الجديد أخصب العقول بالرأى الحكيم ، وأرطب القلوب بالإيمان الصادق ، وأثبت الأيدى بالسيف الرادع وهؤلاء هم أصحاب محمد الذين بسطوا ظلال الله على صحارى الجزيرة ؛ فنبضت بالحياة ورتعت فى النعيم واطمأنت بالأمن ثم انتقل منها طلعها الخصب مع الرياح اللواقح إلى كل أرض ! . . .

* * *

تلك كانت الانتفاضة الأولى للجزيرة التى وضع فيها أول بيت للناس ، وبعث بها آخر رسول لله ، انتفضتها بروح من عند الله ما شاء أن تنتفض ، ثم انقبض عن صحاريها الظل ، وخبا فى أرجائها النور ، فعادت كما كانت بالأمس قطعة منبتة متروكة ، لا هى فى عداد الناس ولا هى فى حساب الزمن !

جمدت الجبال فلا توحى ، وصمتت الرمال فلا تهمس ، واستـ

فلم تعد له فى النفوس معانى الوحى ، واستعجم العرب فلم يعودوا يتدبررن آى القرآن . وقضت الجزيرة شمالها وجنوبها ألفا ومائتى سنة فى رِدة عامة ورقدة شاملة ، لا يسعى فيها إلا ملك يطغى ، وإمام يجور ، وفاتك يلص ، وشارد يهيم ، وجائع يتضور . وانطمست آثار العمرين والخالدين[1] تحت أقدام الطغاة الفجرة من آل الحسين وآل سعود وآل حميد الدين ، وتحطمت أصنام الشرك فى مكة لتعود حية ناطقة فى قصور الحجاز ونجد واليمن .

جثمت هذه الأصنام الثلاثة بصدورها الحجرية على إنسانية الشعب العربى وكرامته وإرادته وثروته لا تتحلحل ولا تريم ، يشربون ويسكى انجلترا وهو يشرب أبوال الإبل ، ويأكلون خنازير أمريكا وهو يأكل دواب الأرض ، وينفقون أمواله على حسان الترك والانجليز وهو عارى الجسد خاوى الجوف لا يشعر بالحياة ولا تشعر به الحياة ؛ حتى جاء عصر الذرة الذى راد السماء وزلزل الأرض وبلبل الأنفس وزعزع العروش فصاح بالنائم أن يستيقظ ، وبالغافل أن يعى ، وبالمتخلف أن يلحق .

وهبت على العالم العربى هبة من جانب مصر فيها ريح النبوة ، ولها صوت الحق ، يقول للشعوب الخانعة : إنكم مسلمون والمسلم لا يدين إلا لله ، وإنكم عرب والعربى لا يستكين للذل ، وإنكم أصحاب الأرض وما فوقها من زرع وضرع ، وما تحتها من بترول وركاز ، فليس من شهامة العربى ولا من كرامة المسلم أن تدعوا هؤلاء الطفيليين الفضوليين يستأثرون بخيرها دونكم ، وما قوتهم إلا منكم ولا سطوتهم إلا بكم .

فإذا جردوا من الألقاب المزيفة ، وأزيلوا عن العروش المستعارة ، عادوا

---

(١) العمران : أبو بكر وعمر . والخالدان : خالد وسعد .

ناسا أقل من الناس ؛ لأنهم كما قلت أصنام ينطق فى أفواههم الشيطان ، ويوسوس فى صدورهم المستعمر . ورحم الله شاعرنا الذى قال :

عجبت لقـــوم يخضعون لدولة   يسوسهمُ فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها   وأموالها منهم ومنهم جنودها

هنالك استجاب المستضعفون فى الأرض والمعذبون فى الناس لدعاء عبد الناصر إلى المبادىء الخالدة التى نزلت من عند الله على محمد رسوله ، وأدركوا بعد لأى أن الأمر شورى ، وأن الرزق شركة ، وأن الحكم عدالة ، فتحرك الأردن فصرخ الطفل ، وتمردت السعودية فكش الملك ، وثارت اليمن فطاح الإمام ! .

وعى عرب الجزيرة أن بواديهم لم تعد رملا ولا صخراً ، ولا آباراً تبض بالماء ، ولا مراعى تضن بالعشب ، وإنما أصبحت بفضل الأبحر السود التى تعج من تحتها بالنفط ، مناجم تقذف بالتبر ، وقصوراً تضج بالجوارى ، وجنانا تفيض بالنعيم . ولكنهم رأوا أن أولئك كله احتوشته فئة باغية لتكنزه فى مصارف سويسرا ولندن ، وتنفقه فى مواخير كبرى وباريس ، فقالوا للمارق السارق : حسبك ! إن الراعى الفرد يستطيع أن يسوق القطيع الضخم بعصاه فيجتز صوفه ويبتز لبنه ويحتز رأسه ما دام لا يعرف أن له قروناً تبقر البطون ، وتقلق الرءوس ، فإذا عرف ذلك — ولا بد أن يعرف — انقلبت قرونه دبابات تحطم ، وحوافره مقذوفات تبيد .

بهذا الوعى الذى أيقظته سَورة تاريخ ، وأنضجته عبقرية جنس ، وأكملته عقيدة دين ، سرت فى العالم العربى روح من قلق الروح لا يصبر على الهون ولا يرضى بالدون ولا يعنو وجهه لغير ربه .

وبهذا الروح القلق الذى ملك الجزيرة كلها رأسها وقلبها وأطرافها ، تلاقت العدنانية فى الشمال والقحطانية فى الجنوب على موعد من مواعيد الحق ، ليضعوا الأغلال التى عليهم فى أعناق من استعبدوهم باسم الدين ، واستذلوهم بقوة الجهل ، ولينطلقوا خفافا إلى حياة أفضل ومكان أكرم يليقان بالجيل الجديد فى الوجود الجديد .

* * *

ظلت اليمن حقبا طوالا معرة العالم المتحضر المتحرر ، تجرى عليها حركات الدهر وهى ساكنة سكون الجماد لا تشعر بالفلك وهو دائر ، ولا بالعالم وهو سائر ، لأن (الأئمة) — أخذهم الله بما صنعوا — استعانوا على عزلها عن الوجود بالفقر والجهل والمرض والقات .[1] والترهات والشعوذة ، فما كان يظن ظان أن من ألح عليه الخدر يفيق ، ولا أن من استبد به الضرر يطيق . . ولكن حدثت المعجزة وانشقت أرض صنعاء وتعز عن أبناء التبابعة والأذواء ، يتساءلون فى تباشير الفجر : من الذى أطبق على نفوسنا الليل ، وأطفأ فى عيوننا النهار ، حتى حسبنا أن الظلام سرمد ؟ . وكان الجواب دويا كنفخة الصور انبعث من مصر يقول : ومَن غير الأئمة من آل حميد الدين يستطيع أن يجعل آية النهار عمياء ولسان الحق أبكم ؟ وتكاتفت الثورتان : ثورة السلال وثورة عبد الناصر على أن تحطما السد الذى حجز الماء والنماء والتقدم عن اليمن السعيدة . فألقى الملكان الضئيلان سعود وحسين بجثتيهما النخرتين أمام السد المنهار ليؤخرا ساعة انقضاضه ، فما زاداه إلا ضعفا على ضعف !

أعلمت كيف كانت تحكم اليمن ؟ .

إليك مثالا واحداً من آلاف : حدثنى المغفور له صديق الدكتور

(١) القات نبات مخدر يمضغ أوراقه أهل اليمن فينتشون .

عبد الوهاب عزام وكان سفيراً لنا فى السعودية واليمن ، أنه بات ليلة من ليالى الشتاء فى ضيافة الإمام يحيي هو وبعض صحبه ، وكان البرد قارسا ، وكانوا قد وضعوا على كل سرير بطانية واحدة من غير لحاف . فاستعان كل منهم على الدفء بمعطفه إلا واحداً لم يكن عليه معطف ، فطلب السفير من القيم على دار الضيافة بطانية أخرى للضيف المقرور ، فحك القيم قفاه وقال إن فى هذه المسألة مشكلة : لابد أن يرفع إلى الإمام طلب بهذا الطلب تشرح فيه الحال الداعية إلى هذه البطانية ، فإذا اقتنع بالأسباب ــ وقليلا ما كان يقتنع ــ أخرج مفتاح المخزن من سلسلة فى عنقه ، ودفعه إلى أمينه الخاص فيخرج المطلوب إلى المتعهد ثم يعود به إليه . والإمام قد دخل مخدعه الآن فلا سبيل إلى الدخول عليه ! !

بماذا تريد أن أعلق على هذه الواقعة ، واستبداد الإمام قد تغلغل إلى خيط الإبرة وشرك النعل وسير اللجام ؟ أليس هذا الفرعون الصغير واقعا فى مرمى قول الله تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم (أئمة) ونجعلهم الوارثين » . صدق الله العظيم .

صديقى الأول
من ذكريات العيد فى القرية

سأترك العيد الذى بزغ سناه اليوم فى هلال شهر شوال إلى الناعمين الغارّين من براعم الصبا وأزهار الشباب ، فإن العيد صحة وزينة وبهجة ومتعة ، والشيوخ لم يعد لهم من كل أولئك شىء . لم يعد لهم الا الذكريات الحلوة تعاودهم من عيد إلى عيد . وقد عاودتنى فى صباح يوم الفطر وأنا انظر بعينى الكليلة من شرفة البيت إلى زمر الأطفال يمرحون فى أثوابهم الجديدة ، ويلهون بألعابهم المختلفة ، ذكرى من ذكريات القلب فى الطفولة ، وصورة من صور العيد فى القرية ، لا أزال أجد أثرهما فى النفس حيا على موت الذاكرة ، جديدا على بلى العمر . فأنا اتخيلهما اليوم كما أتخيل حقيقة الواقع ، وأمثلهما الساعة كما أتمثل حوادث الأمس .

كان ذلك وأنا فى العاشرة من عمرى ، أغدو إلى الكتاب فى الصباح وأروح إلى البيت فى المساء ، ومعى فى الغدو والرواح رفيق من لداتى فى السن ومن جيرتى فى الحارة ، لا نكاد نفترق بياض النهار وقليلا من سواد الليل . . . كان هذا الرفيق هو صديقى الأول فى المرحلة الأولى من مراحل العمر . وكنت أحبه دون سائر الرفاق لمشابه بينى وبينه فى الخلق والطبع والهيئة ، فضلا عما كان يتميز به من وسامة تلوح على وجهه ، ووداعة تشع من عينه ، ورقة تشيع على فمه ، وطيبة تنبعث من قلبه . كان رفيقا فى لعبه فلا يعمد إلى الخشونة ، عفًّا فى حديثه فلا يميل إلى الفحش ، مؤثرا لإخوانه فلا يخص نفسه بلعبة أو متعة ، فكُرته لكل لاعب ، وكتابه لكل قارىء ، وعونه لكل محتاج . وكان مقيما للصلاة فى أوقاتها الخمسة . فإذا أقبل شهر رمضان تعاقبنا التبليغ وراء سيدنا ، وهو يصلى

التراويح إماما فى بيت الله ، وتناوبنا تلاوة القرآن معه وهو يحيى رمضان قارئا فى بيت العمدة .

كان أبوه الفلاح النجار من الأجراء (التملية) فى تفتيش على باشا شريف ، لا تزيد يوميته على ثلاثة أرباع القرش ، ولا سنويته على فدان من أرض الدائرة يزرعه شعيرا أو ذرة . لذلك كان لايملك من الثياب الا جلبابا واحدا يشتريه له أبوه فى العيد الصغير فيلبسه على اللحم العام كله لايبدله . وكان يحرص على صيانة هذا الجلباب أشد الحرص ، فلا يمزقه باللعب العنيف ولا يبليه بالغسل البالغ . ومع ذلك كان راضيا مطمئنا لا يمد عينه إلى متعة ولا يحسد غيره على نعمة .

* * *

ذهبت أيام رمضان الغر ولياليه الطهر من تلك السنة ذهاب النسمات الرخية هبت على الدنيا من رياض الجنة فعطر الأنفاس ولطفت الطباع وقربت مابين السماء والأرض . وأصبح يوم (الوقفة) فاذا الكهول والشباب من القرية يمتطون حميرهم فى نشاط ، ويسلكون طريق السوق فى زياط ، ليشتروا من المنصورة حاجة العيد من لحم و(فطرة) . وكان أكثر الفطرة التمر والخروب وأقلها البندق وعين الجمل .وكان ضعاف الدين يسمون يوم (الوقفة) عيد الشباب ، لأنهم كانوا يستميحون فيه الإفطار ليملأوا بطونهم بالمجان من أصناف الفطرة بحجة انتقاء الأجود منها قبل الشراء . وكان تجار النقل يتسامحون فى هذا الاختبار — وإن اسرفوا فيه — استمالة لهواهم واجتلابا لسواهم . وكان من تخلف فى القرية من النساء والأطفال ينتظرون رجوع العير بالأخراج الموقرة على صبر نافد وشوق شديد . فاذا ما رجعوا نفحوا المتشوفين المتشوفين بقبضات

مختلفات من التمر أو الزبيب فيزقزق البنون ويزغرد البنات ويقع البيت كله فى زياط شديد . ولكنهم يتذكرون أن رمضان الحبيب يلفظ انفاسه الأخيرة مع الشمس الغاربة فتخشع الأصوات وتنهمل العبرات ويخامر الناس الخوف من انطلاق الشياطين المقيدة ، فيجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة ويضربون حديداً بحديد ، حفظاً للبيت من دخول شيطان مريد .

فاذا دوى مدفع الإفطار الأخير من البندر ورفعت صوانى الطعام من الحارة ، وقضيت صلاة المغرب فى المسجد ، خرج أهل القرية جميعاً إلى المقبرة ومع كل أسرة فانوس يحمله الرجل وسبت من الفطير تحمله المرأة ، حتى إذا بلغوها وضعوا المصابيح على أوجه القبور وجلسوا أمامها يستذكرون ويستعبرون وقد اختلط ندب النساء بتلاوة الفقهاء : أولئك يعددون مناقب الموتى بمراثيهن الموقعة ، وهؤلاء يقرأون على كل قبر سورة يس بتلاوتهم المسرعة . ثم تعود القرية الحية من القرية الميتة ليتجهزوا للعيد بجهازه فيقضون الهزيع الثانى من الليل فى طسوت الاستحمام إو فى دكان المزين . والاغتسال بالماء الحار لا يعرفه الفلاحون إلا ليلة العيد وليلة العرس ويوم الموت ؛ إنم يعدون زينتهم فيكورون العمائم و يصبغون الأحذية . ومن لا يحسن لوث العمامة أو لا يملك علبة (الورنيش) ذهب بطربوشه أو حذائه إلى قريبه أو جاره ، والقرية كلها أسرة واحدة يكمل بعضها نقص بعض . فإذا فرغوا من ذلك ناموا بقية الليل على هدهدة الأحلام ومناغاة المنى ، وتركوا النساء آمام الأفران والكوانين ينضجن الخبز ويطهون اللحم ويصنعن الحلوى حتى الصباح .

* * *

فرغت أنا وصديقى عبد الحافظ النجار من قراءة ما تيسر من كتاب الله على أرواح موتانا ورأينا الناس ينصرفون فانصرفنا ولم يبق من شمعة فانوسى

إلا عقب لا يكاد يبلغ بنا الدار . وفى أثناء الطريق قال لى رفيقى بصوت خافت ولهجة حزينة : ربما لا أراك غدا فكل عام وأنت طيب . فقلت له وأنا أحدجه بنظرى فى استغراب ودهشة : ولم لا ترانى ياعبده ؟ لقد أعددت لك الكرة لتلعب والحبل لنتأرجح . فقال : لا أحب أن يرانى الصبيان وليس على جسدى جديد ولا فى رجلى حذاء ولا فى يدى قرش ولا فى جيبى فطرة . لم يستطع أبى أن يحقق لى شيئا من ذلك لأنه مرض منذ ستة أشهر فانقطعت أجرته من وسية الباشا بإنقطاع عمله .

فقلت له وأنا أربت على كتفه : هون عليك ياعبده فإن أكثر الأطفال على مثل هذه الحال . وما دمنا معا فكل شىء جديد ، وكل يوم عيد . فقال لى بلهجة العزوم الصارم : لن أجعل الصبيان يشعرون أنى أصغر منهم شأنا وأن أبى أضعف من آبائهم قدرة . وسأقضى مع أبى المريض وأمى البائسة وجدتى العجوز العيد الذى اختاره لنا القدر . فقلت له وقد يئست من صرفه عن عزمه : ليكن ما تريد . وسأعيد معهم ومعك .

وغدوت عليه فى داره بعد صلاة العيد وزيارة المقبرة ووجبة الإفطار ومعى نصيبى كله من النقل والكعك ، وقضينا يوما من أسعد الأيام نلعب بالآت النجارة ، ونلهو بأوراق اللعب ، ونستذكر ما حفظنا من السور القصيرة ، ثم نركض وراء الكرة من الفناء إلى الحظيرة ، ومن الحظيرة إلى الفناء . وذهبت فجئت بحبل المحراث وشددناه من طرفيه إلى عرق غليظ فى سقف الزريبة وأخذنا نتأرجح . وكأن كل شىء فى الدار مبتهجا بابتهاجنا مغتبطا لاغتباطنا . فالأب قد نسى مرضه وقعد القرفصاء يرامقنا بعين قريرة ونفس مطمئنة ؛ والأم قد تركت عملها وجعلت تبارك مرحنا بالنظر الحنون والقلب العطوف ، وتحمدالله على أن جاء العيد لابنها فى الدار حين رفض أن يذهب إليه فى القرية ؛ والكلب الأليف كاد

يتبع خطواتنا من مكان إلى مكان ، وهو ينبح كأنه يضحك ، ويبصبص بذيله كأنه يجامل . والدجاجات قد أخلت لنا صحن الدارفجثمت تحت الجدار القصير وأخلدت إلى السكون إلا إذا حركتها طبيعة الحياة فيصيح ديك أو تنوق دجاجة . حتى إذا قضينا حاجتنا من متع العيد كلها جلسنا عن جانبي الجدة الطيبة وألقينا إليها السمع لتساقط فيه الكلم العذاب من (حدوتة) طويلة مشوقة حتى بدت في جفنينا فترة النعاس فغفونا على حصيرتها إلى أن انطلقت مدافع الغروب على شاطىء المنصورة ، ولعلع صوت أبي عامر على سطح الزاوية .

* * *

كان هذا العيد المحصور بين صحن الدار وحظيرة البقرة ومجلس الجدة أسعد من عيد الآخرين الطليق بين ساحة القرية ومجالي الحقول وملاهي البندر ، لأنه كان عيد قلبين صغيرين لم تترسب فيهما أكدار الحياة بعد ، فخلوا من الهم والحقد ، وامتلآ بالرضا والغبطة . والأرض على رحبها تختصر أحيانا في مكان ، والسعادة على تفرقها تجتمع كلها في وجودك مع إنسان . والصداقة الطفلية الأولى عميقة لأنها احتلت القلب على خلو ، لاصقة لأنها خالطت الشعور عن جاذبية ، باقية لأن حدثان الدهر تجرى عليها وهي راسخة في القاع .

* * *

ظلت صداقتنا البريئة الحلوة تنمو مع مشاعرنا وعواطفنا ثلاث سنين طبعنا آثارها في المكتب وفي الملعب وعلى ضفاف بحر شبين حتى دها مصر وباء الكولرا سنة ١٩٠٢ فصحا أهل القرية يوما فإذا كل قرية فيها مريض ، وإذا كل ساعة فيها جنازة . فهان الموت ورخصت الأموات حتى لا يعاد محتضر

ولا يشيع ميت ولا يعزى حى . كان الموت الوحى الذريع يتخطف جيرتى فى الحارة واحدا بعد واحد ، نخلت الملاعب من الأطفـــال والمصاطب من الرجال والمكاتب من الصبية . وهجم الو باء الهندى الأصفر على دار عبدالحافظ فاختطف والديه فى أسبوع و بقيت الجدة على حصيرتها الخشنة تبكى الابن وتندب الكنة وتحنوا بأضلاعها الهشة على الحفيد ؛ ولـكن حنوها الشديد لم يدفع قضاء الله فأصبح عبد الحافظ يشكو ظمأ لا ينقعه ماء ، وقيئاً لا يمنعه دواء و إسهالا لا يقطعه شىء ، فعلمت جدته أنه الموت ! فضجت بالصراخ ورنت بالعويل . وسمع الجيران جزعها فشاركوها من بعيد . وكان أبى قد حرم علينا غشيان الدور ومخالطة الناس ، ولـكنى تسللت إلى دار المريض العزيز فوجدته يكابد هول الداء وحده ، فلا أبوه يخفف عن كبده سعار العطش ، ولا أمه تمسح عن ثوبه رجع القىء ، فانهلت بوادر دمعى ، وأحسست حرقة الحزن فى صدرى . وكان بيتنا يشرب الماء مغلى فلم يُصب أحد منا بسوء . فظننت أن الدواء فى هذا الماء ، فحملت منه قلة إليه كما حملت مثلها بالأمس إلى (زهرة) بنت الحارة صديقتى وصديقته . فلما رآها فى يدى افترت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة غائمة فجرعته منها جرعات . ثم جلست بجانبه أرطب حلقه اليابس بالقلة من لحظة إلى لحظة حتى وقف الماء فيه فلم يستطع أن يسيغه . ثم شخص بصره وحشرج صدره وأخذه فُواق ضعيف ثم لفه سكون شامل !

أبداً لن أنسى هذين اليومين من حياة صديقى الأول : يوم قضيت معه يوم العيد وهو يقاسى هم الوحشة ، و يوم قضيت معه يوم الموت وهو يكابد ألم الوحدة ! ! .

وا حسرتاه على قريتى الصغيرة ؟ لقد أقبل عليها عيد الفطر فى تلك السنة الحزينة والموت قد ختم على أكثر الدور ، ونقل نصف أهليها من الدور إلى القبور .

أدب المرأة

تقديم لكتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (فى بلادى الجميلة)

الأدب العربى — وإن شئت قلت الأدب العالمى — فقير فى أدب المرأة . ومعنى الفقر هنا يقترب كثيراً من معنى الخلو ، لأنك إذا عدت إلى مراصد التاريخ ترقب منها سماوات الأدب فى الشرق والغرب لا تجد فى آفاقها الرحب إلا نجمة تلمع من حقبة إلى حقبة لمعان السُّها تظهر من بعيد لتختفى من قريب !

وهذه الأنجم النوادر يلمعن فى الأدب لا فى العلم ، وفى النظم لا فى النثر ، وفى فن الرجل لا فى فن المرأة ! .

تستطيع إذن أن تضرب الأمثال على ضآلة الأدب الحوائى بجانب الأدب الآدمى من كل أدب فى كل بلد وفى كل زمن ؛ لأن هذه الظاهرة تكاد ترجع إلى الاستعداد أكثر مما ترجع إلى الاستبداد والجهالة . . . وفعل المقاربة (تكاد) يمنع من إطلاق الحكم على شاعرية المرأة ؛ لأن المفهوم الشائع أنها انفعال مجسد وإحساس مرهف وتعبير بارز . وربما يصحح هذا المفهوم أنها على الجملة لم ترزق الخيال المجنح ولا التأمل العميق ولا التصوير المجرد ولا التفكير المستقل . إنها منذ خلقها الله من ضلع آدم مصابة بالتبعية للرجل . فالحب مثلا وهو أخص صفاتها الطبيعية تشعر به أشد الشعور ، ولكن حياءها الذى تأصل فى طبعها من حياطة الرجل لها ورقابته عليها يمنعها من التعبير الحر عن هذا الحب فتتركه للرجل . ولو أنها تغلبت يوما على هذا الحياء بجرأة الحرية وضعف الوازع ففعلت ما فعلته الكاتبة الفرنسية فرنسواز ساجان ، أو الكاتبة العربية خولة الخورى (١) لكان ذلك بدعا فى المجتمع يسترعى النظر ويستدعى الفضول .

---

(١) سماها جدها فارس الخورى (خولة) وأبت هى إلا أن تسمى نفسها (كوليت) ! .

والبغض أيضاً يساير الحب فى طبيعة المرأة ، فهى تبغض ولكن بغضها من نوع خاص لا يطلب التعبير العلنى وإنما يكتفى بزفرة فى الصدر أو بعبرة فى العين . وهى لا تخطر ببالها أن تمدح لتستجدى أو تهجو لتستعدى ، فإن الرجل قد آمنها من الجوع والخوف بكفه وسيفه .

دنيا المرأة هى عش الزوجية الذى تحلم به وهى فى رعاية الأب ، ثم تستكن فيه وهى فى حماية الزوج . وكل آلتها لهذا العش جمال وحب تمسك بهما الرجل ، وحنان وعطف ترأم بهما على الولد . والتعبير عن هذه العواطف الطبيعية يكون بالفعل لا بالقول ، وبالشعور لا بالشعر . فإذا خرجت عن دنياها الخاصة إلى الدنيا العامة فتفاعلت مع الأحداث وتأثرت بأحوال الناس حملت نصيبها من أمانة الأدب ورسالة الفكر .

فى هذه النواحى العضوية والنفسية والاجتماعية يجب أن نتلمس الأسباب الجوهرية لندرة الأدب النسوى فى العالم قديمه وحديثه وشرقيه وغربيه ، فإن تلمس هذه الأسباب فى حرمان المرأة من الحرية وتخلفها فى الثقافة وانعزالها عن المجتمع لا يعلل هذه الندرة فى الغرب ، وإن تلمسها فى انكبابها على العمل وانغمارها فى المادة وانطلاقها من القيد لا يعلل هذه الندرة فى الشرق . وإذا تذكرت أن هذه الندرة ملحوظة فى أدب اليونان والرومان ، وفى أدب الهند والفرس ، وفى أدب اللاتين والسكسون ، أدركت أن هذه الظاهرة المحيرة أعمق من أن تحلل فى كلمة موجزة ، وأوسع من أن ترد إلى سبب واحد .

خذ الأدب العربى مثلا : شغل هذا الأدب العريق الزمن من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن العشرين ، وطبق الأرض من أقصى بلاد الشرق إلى أقصى بلاد الغرب ، ووسع آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال

الحضارة العربية . وأنت مع ذلك إذا عرضت عصوره الخمسة على ذاكرتك لا تجد فيها من نوابغ النساء فى الأدب إلا الخنساء وتوابعها من خِرْنِق بنت بدر ، وليلى بنت لكيز ، وجليلة بنت مرة ، فى العصر الجاهلى ، وإلا سكينة وليلى الأخيلية بين تسعين شاعراً فى العصر الأموى ، وإلا عُليه بنت المهدى فى العصر العباسى ، وإلا ولادة بنت المستكفى وحمدونة فى العصر الأندلسى؛ ثم تنتظر طويلا لتعثر فى طوايا ذاكرتك على السيدة عائشة الباعونية تتنقل بين دمشق والقاهرة فى أوائل القرن العاشر الهجرى !

نعم أوافقك على أن فى الآفاق السحيقة نجيمات دقاقا لا يدرك ضوأهن المرصد ، ولكن ذلك على صحته لا ينفى الندرة ولا يغير النسبة ، فإن فى الرجال أيضا آلافا غمرهم الخمول فلم يقعوا فى سمع الزمان وبصره لا بالرواية ولا بالرؤية .

أما ما روى عن أبى نواس من أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة ، وما روى عن الخوارزمى من أنه قصد الصاحب بن عباد بأرَّجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال : إن بالباب أديبا يستأذن فى الدخول . فقال الوزير : قل له قد ألزمت نفسى ألا يدخل على إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب . فقال أبو بكر للحاجب ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أو من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال هذا أبو بكر الخوارزمى ، فإن ذلك وشبهه إذا أطفأت لمعة التمويه والتهويل فيه لا يبقى تحت النظر منه إلا تلك المقطعات التى جمعها الرواة واللغويون من شعر أعرابيات مجهولات كن ينشدنه إلهاء لأنفسهن وهن يهدهدن الطفل أو يدرن المغزل أو يرعين القطيع .

* * *

قلت إن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس ، ومن بيتها

إلى المجتمع ، فشعرت بالشعور العام وأسهمت فى الوجود المشترك ، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهى المكنون فى كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم . مصداق ذلك تجده فى أدبنا النسوى فى هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربعه الأول وربعه الثانى .

تيقظت المرأة المصرية على صيحة قاسم أمين ، ولم تكد تمسح عن جفنيها فتور الكرى الثقيل الطويل حتى ضاقت بالحجاب وبرمت بالقيد وتطلعت من خصاص الأبواب وثقوب النوافذ إلى المرَاد الرحب والفضاء الفسيح والشارع اللجب ، فقررت أن تحطم القيد وتكسر الباب وتهصر الستار وتخرج إلى الدنيا لتشارك الرجل فى العلم والعمل والأمل ، فتفعل كما يفعل وتقول كما يقول وترجو كما يرجو . وساعدها على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة فى مصر عقب الحرب العالمية الأولى . وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة . وكانت البواكير الأدبية بالحقل النسائى قد أخذت أكمامها تنشق عنها فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فظهرت وردة اليازجية وعائشة التيمورية وزينب فواز وأنيسة وعفيفة الشرتونيتان ولبيبة هاشم وملك ناصف ومى زيادة .

ثم اكتمل شباب الربيع واكتهل غراس النهضة فظهرت الطبقة الثانية من الأديبات وكانت أنضر عوداً وأذكى أريجا وأعلى ثمراً وأغلى فائدة . طبقة سهير القلماوى وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد ووداد سكاكينى وفدوى طوقان وملك عبد العزيز ونازك الملائكة وروحية القلينى وشريفة فتحى ولطيفة الزيات ثم جاذبيه صدقى ، وقد تقسمن الفنون الأدبية على حسب استعدادهن واجتهادهن ، فمنهن الناقدة البصيرة والباحثة المحققة والكاتبة البليغة والأديبة الموفقة والشاعرة الرقيقة والقصصية المجيدة . ولكل واحدة منهن أسلوب فى النثر أو النظم صاغته من طبيعتها ونشأتها وثقافتها واستعدادها ، فيه الغموض والاختلاط ، وفيه الوضوح والتميز ؛ ومنه الوصفى الرصين السليم ومنه

التقريرى السقيم المهلهل . ولست هنا بسبيل البحث الموضوعى فى هاتين الطبقتين فأبين العوامل المؤثرة فيهما ، والخصائص المميزة بينهما ، وأحلل الأعمال الصادرة منهما ، فإن ذلك موضعه تاريخ الأدب . إنما أنا فى هذه الكلمة بسبيل كاتبة وكتاب . الكاتبة هى الدكتورة نعمات فؤاد ، والكتاب هو كتابها الحادى عشر (فى بلادى الجميلة) ، وما أريد أن أعرض لنعمات هنا إلا من جهة الفن ، ولا لفنها اليوم إلا من جهة الأسلوب . ومن يعرض لفن الكاتب وأسلوبه بالكشف والوصف والتحليل فقد عرض لكل شىء فيه . وهل الأسلوب كما قيل بحق إلا الكاتب أو الكاتبة فى صورة مؤتلفة من عقله وفكره وشعوره وخلقه وذوقه وطابعه ؟

لقد كتبت نعمات فى البحث والنقد والوصف والتراجم ، ولكن هذه الفنون المختلفة يؤلف بينها أسلوب واحد إذا عرفته عرفت طريقتها فى هذه الفنون وحقيقتها من هذه المعانى .

إن الأسلوب مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هى الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة والموسيقية المعبره . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلى فى صورة محسة ، و بالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبرعنه أو لتنفر منه . والأسلوب بهذا المعنى لا يكتسب بالتعليم ولا بالتقليد . وإنما هو هندسة روحية وملكه ذهنية تتمثلان فى قالب معنوى غير موصوف ولا معروف تخرج منه الفكرة والعاطفة والخيال والصورة متسقة على الوضع الذى ارتضاه الذوق الرفيع فى الإنسان الذى علمه الله البيان وآتاه الحكمة .

ولعلنا إذا استثنينا النساء الشواعر فى القديم والحديث لا نجد فى

الـكاتبات العربيات من ينطبق على أسلوبهن هذا الوصف إلا كاتبتين إثنتين فى هاتين الطبقتين : الأولى فى الأولى مى زيادة ، والأخرى فى الأخرى نعمات فؤاد . ذلك لأن أسلوبهما يتميز من سائر الأساليب النسوية بالشاعرية والأناقة والتنويع والتلوين والحركة . وتزيد نعمات على صاحبتها بالعمق والدقة والسلامة وتوليد المعنى من المعنى ومزاوجة اللفظ للفظ واستبطان دخائل الموضوع واستقصاء أطرافه حتى لا تدع فيه معنى يخطر على بال . وكل ذلك فى غير تـكرار ولا إملال ولا سقط ، وكل ذلك فى حسن نسق وجمال إيقاع من غير تـكلف ولا شطط .

وموسيقى نعمات ألحان من المعنى وأنغام من اللفظ لا يبلغ بدونها الـكلام ولا يقوى بغيرها الأثر . وهى موسيقى معبرة لأنها من بنية الأسلوب فى باطنه لا من حلية التركيب فى ظاهره . وهى فى بعض الـكتاب والـكواتب سجية وطبع ، فـكما لا يستطيع البلبل أن يكون غراباً ينعب ولا ضفدعا تنق كذلك لا يستطيع الفنان الصادق أن يكون فجاً على الذوق ولا ثقيلا على الأذن .

أذكر أن نعمات كانت فى بعض أعمالها أمينة للجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فـكانت تـكتب محاضر الجلسات بالأسلوب الرفيع تختار له اللفظ الملائم ، وتنتقى له التعبير المؤدى ، ولـكن أعضاء اللجنة وهم من أقطاب الـكتاب أنـكروا عليها أن تستبدل بأسلوب الدواوين أسلوب البيان والتبيين . فآثرت أن تظل بلبلا يطرب على أن تصير غراباً ينعب ، وانصرفت عن هذا العمل إلى غيره .

إن أسلوب نعمات أصيل صادق لأنه ينم عن طبيعة المرأة ويكشف عن جوهر الأنوثة . ولا يشاركها فى هذه الخصيصة إلا الآنسة مى . أما غيرها

من الكاتبات النوابغ فقد تقرأ لهن الأسلوب الجزل والبيان المحكم والرأى النصيح ، ولكنك تستشف من وراء ذلك محاكاة الرجل فى فحولة منطقه وطريقة فنه .

أنت من نعمات بين زوج وفية وأم رءوم وأخت مواسية ومواطنة مخلصة وعاشقة للنيل تنشد على ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس ، وضحكات كليو بطره ، وصلوات عمرو ، وغزوات صلاح الدين .

ونعمات منك بمثابة بياتريس من دانتى تطوف بك فى مجالى الطبيعة ومشاهد الكون (فى الورد) و (فى الريف) و (فى الليل) و (فى المقطم) و (الهرم) و (فى الفرح) كما طافت بالشاعر الإيطالى حبيبته الروحية الملهمة مجالى الفردوس ومشاهد عدن :

حاشاك أن تحمل كلامى عن نعمات على المجاملة والمهاواة لأنها امرأة . وللنساء على الرجال لين القول وحسن المصانعة ، إنى أقول وبين يدى الدليل وأحكم وأمام عينى السند .

إقرأ على سبيل المثال مقالها فى (البيت) أو فى (الريف) أو فى (المدرسة) أو فى (الطريق) أو أى مقال شئت ، ثم حاول من طريق الفن أو من طريق الذوق أن تطبق ما وصفت لك من أسلوبها على ما قرأت أنت من كلامها ، فإذا لم تخرج من التصور إلى التصديق ، ومن التطبيق إلى التحقيق ، جاز لك أن تقول إنى رجل يقول على الأدب بغير علم ، ويحكم على الأدباء من غير بينة .

* * *

ذلك بعض القول فى الكاتبة ، أما الكلام عن الكتاب فقد تضمنه الكلام عن أمه . وإن الثمرة فيها سر الشجرة كله ، فمهما أقل لك إن الشجرة ريانة الأصول فينانة الفروع رفافة الورق وارفة الظل حلوة الجنى ، لا تجد فى هذا القول على صدقه من الكفاية والرضا ما تجده فى الثمرة حين تقطفها بيديك ، وترمقها طويلا بعينيك ، ثم تدسها فى فمك ، فتذوق من حلاوة العصير ، وتشم من فوحة العبير ، ما يقنعك أن النبعة كريمة وأن الشجرة مباركة:

لقد حدثتك عن الكاتبة لأنها لا تتحدث عن نفسها ، أما الكتاب فسأدعه وإياك ليحدثك عن نفسه .

عصرنا الذهبي الرابع

سيدي الرئيس :

إن العصور الذهبية العربية التي تقدم فيها العلم وازدهر الأدب وارتقت الحضارة وتطورت الحياه ، ثلاثة :

عصر الرشيد وابنه المأمون في بغداد ، وعصر العزيز وابنه الحاكم في القاهرة ، وعصر الناصر وابنه الحكم في قرطبة . وهذه الأعصر الثلاثة كانت مراحل للتقدم البشرى في طريق الكمال الممكن، إلا أنها كانت تتسم بسمات الأرستقراطية ، فلا يكاد خيرها يجاوز النطاق الخاص ؛ فقاعات العروش ، وأبهاء القصور ، ودواوين الحكم ، كانت تفيض بالثراء والنعمة ، وتزخر برجال العلم والأدب والحكمة .

أما الشعوب فكانت قطعانا تستغل ، وموارد تستنزف ، وطبقات يعلو بعضها بعضاً بحكم النسب أو السلطان أو الثروة ، فما كان ينالهم من فضل العصر إلا القدر المحتوم من الرخاء العام والخير المشترك ، حتى أراد الله أن يكون للعرب عصر ذهبي رابع يكمل نقص هذه الأعصر جميعاً ، فكان عصرك يا سيدى الرئيس ! عصرك الذى أشرق إشراق الشمس وأقبل إقبال الربيع ؛ فيه الحرارة والنور ، وفيه النضارة والخصب . عصرك الذى طبقت فيه مبادىء الإسلام التى فهمت ولم تعتقد ، أو اعتقدت ولم تطبق ، فالأمر شورى ، والحكم عدل ، والرزق شركة ، والناس سواسية ، والشعب حاكم .

عصرك ياسيدى الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الكريم ،

(*) نص الكلمة التى ألقيت فى عيد العلم نيابة عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية سنة ١٩٦٢ .

والمواطن الحر ، والعامل الكادح ، والعالم المجتهد ، والأديب المستقل ٠ فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقاً يناله ، وواجباً يؤديه ، ورزقاً يكفيه ، ووطناً يعتز به .

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة ، فأنت تسعى دائباً للسلام الدائم بين الدول ، وللوئام الكامل بين الشعوب ، وللوحدة الشاملة بين العرب ، لا تبتغى من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسالات من قبلك .

وسينتشر ضوء ميثاقك المحكم الهادى فى كل نفس ، وفى كل أرض انتشار كلمة الله لأنه الحق الذى وضعه الله فى شرعه ، والمنهج الذى سنه لجميع خلقه .

سيدى الرئيس :

إن الأدب الذى تكرمه الليلة فى أهله قد بشر بك ومهد لك ودعا إليك. ففى أغسطس من عام ١٩٣٥ قالت مجلة الرسالة :

« نحن فى مجموع الناس أوزاع وأتباع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب ، وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) . ثقفوا على مباحث الكتب . ودربوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهى وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والتضحية والشرف » .

وفى أبريل من سنة ١٩٤٠ تنبأت الرسالة بالرجل المنتظر فقالت ما نصه :

« إن الرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه . فمن الآيات

للهيئة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل فى وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب ، وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة .

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ، ولإنسانيته بعد وطنيته . ومصداق تلك الآيات أن تموت (الأنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره . ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ، فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، و يدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قيادته لأنه مظهر إرادته . وهو فى سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أرفع من العصبية ، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده والمبدأ الذى يؤيده والشعب الذى يقوده . ثم هو فى ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده و بعد همته يعظم على الأحداث و يعلو على الحوائل ، فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ، ولا يرمى غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أمداً إلا أدركه » .

ثم ختمت الرسالة مقالها بهذا الدعاء .

« رباه : لقد امتد بنا التيه فى مجاهل الأرض إلى قرون . وفسد فى نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون . فمتى نخرج من التيه يارباه خروج موسى ، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد ؟ اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ، ونوفق بين الدين والدنيا ، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . وكل أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدى المنتظر والمسيح الموعود » .

ذلك يا سيدى الرئيس ما تنبأت به الرسالة قبل قيام ثورتك المباركة بثمانى عشرة سنة . وقد صدقت النبوءة واستجيب الدعاء فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب ؟ .

سيدى الرئيس :

إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحاً من أمضى أسلحتك ، وتشجع جنوداً من أخلص جنودك . وإنى أتقدم بأسمائهم جميعاً و باسمى إلى سيادتك بأصدق الشكر وأعمقه ، ونسأل الله أن يديم عصرك ، و يعز نصرك ، و يتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق .

ياحسرتنا على العراق !

كان العراق يوم كان حكامه ناساً كالناس وعرباً كالعرب مظهراً للقومية العربية ، ومصدراً للقوة الإسلامية ، ومجمعاً للقيادة الروحية والثقافية والحضارية للشرق والغرب . فنى فى وجوده العارم الخصب كل جنس فلم يبق متميزاً غير العرب ، وكل دين فلم يبق ظاهراً غير الإسلام ، وكل لسان فلم يبق حيًّا غير العربية ، وكل سلطان فلم يبق قاهراً غير الخلافة . ثم كان الفلك حينئذ بدور عربياً على ملكوت محمد من شرق آسيا إلى غربى أوربا ، فتشرق شمس الحياة والمعرفة من أفق الرشيد وابنه المأمون فى بغداد ، لتلقى أضواءها المادية على ملك العزيز بالله وابنه الحاكم فى القاهرة . ثم ترسل من هناك أشعتها المحيية على سماء الناصر وابنه الحاكم فى قرطبة ، ومن هذه الخلافات الثلاث التى انبثقت من العراق فى القارات الثلاث ظهرت كلمة الله ، وبهرت حقيقة العلم ، وازدهرت مدنية الإنسان ، واتسعت دنيا العرب .

كذلك كان العراق أيام كان من خلفائه هرون والمأمون ، ومن وزرائه الفضل وجعفر ، ومن فقهائه أبو حنيفة وأبو يوسف ، ومن أدبائه الأصمعى وأبو عبيدة ، ومن شعرائه بشار وابن الرومى ، ومن متصوفيه الحسن البصرى وابن سيرين . فلما غربت الشمس وجزر المد ووهن السلطان واستعجم اللسان وجفت مشارع الرافدين فنقت فوقها الضفادع وسعت حولها الأفاعى ، آل الحكم فيه إلى عبد الإله ونورى . ثم استوخم الأمر واستفحل الشر فآل بعدهما إلى قاسم والمهداوى . ومنذ يومئذ غامت سماء العراق بركام من السحائب الجون ، لا تحمل الماء ولكن تحمل الدم ، ولا ترسل الغيث ولكن ترسل السم . وتحت رعودها القاصفة وبروقها الخاطفة تنساب فى الظلام الداجى

زمر من شياطين الإنس ، يمجُّون الـكفر ، ويشيعون الفحش ، وينشرون الإرهاب ، ويلحون على المؤمنين الآمنين بالقتل والسحل والتعذيب ، ليخرجوهم من الإسلامية إلى الشيوعية ، ومن العربية إلى الشعوبية ، ومن شعب له كون بارز فى الوطن العربى الأكبر ، إلى مجتمع من أخلاط كردية وتركمانيه وعربية لا يجمع بينها لسان ولا مجد ولا تاريخ .

* * *

وارحمتا للعراق الحبيب ؟ بلغ به ذل الحال وسوء المآل أن يستبد بأمره رجلان من الطراز الأدنى أحدهما يحكمه بالنار والدمار والتفريق والفوضى ويزعم أن المجزر حكومة ، والآخر يحاكمه بالطيش والفيش والتهريج والسفه ويزعم أن الملعب محكمة ! ولولا الظلام لما أبصر اليوم ورفرفت الخفافيش ، ولولا الانقسام لما تسلط (الزعر) وحكمت (الحرافيش) :

خلت الرقاع من الرخا خ ففرزنت فيهـــا البيادق !

لقد ابتلى العراق من قبل بالحجاج والقرامطة والزنوج والتتار والترك والإنجليز فما صنعوا به جميعاً ما صنع به قاسم وحده ! لم يستطيعوا بما أوتوا من ملـكوت وجبروت أن يطفئوا نور الإسلام ولا أن يخفتوا صوت العروبة ، ولـكنه استطاع فى أقل من عام أن يحمل بعض المسلمين العرب على أن يصيحوا فى شارع (الرشيد) وفى ساحة (المأمون) : لا إسلام ولا عروبة !

وقوة هذا الرجل إنما أتته من ضعفه ، فلو لم يكن ضعيفاً لما احتلت جسده قوى غيره ، فهو كالصنم . شىء حقير فى ذاته ، ولـكن الصنم — كما كانوا

يتوهمون — تحل فيه الشياطين فينظرون بعينه و ينطقون بلسانه و يبطشون بيده ، ولذلك كان يعبد . وقاسم صورة من الإنس الأنيس ركب كل جارحة فيه عفريت . وللعفاريت أهواء متباينة تظهر آثارها فى قوله وفعله ؛ فهو كافر ومؤمن ، وشيوعى ورأسمالى ، وروسى وانجليزى ، وصهيونى وعربى ؛ وهو أهل لأن يكون أى شىء إلا أن يكون عراقيا ، لأن هذه القوى المتضاربة التى تجمعت فيه إنما كانت إلباً على العراق وحده ! فبفضل هذه القوى عق الابن أباه ، وقتل الأخ أخاه ، وكفر المسلم بربه ، و بغى العربى على قومه . وبفضل هذه القوى قسم القاسم العراق على نفسه ، وزعزع بالفتنة الحمراء (والكراسة الرمادية) الإيمان والاطمئنان فى نفوس أهله ، وقتل الناس بعضهم ببعض حتى زهقت فى سبيل روحه خمسة آلاف روح .

وأصبحت القتلى تمج دماءها   بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ذلك قاسم . أما المهداوى ، أو هامان فرعون ، فعلى النقيض من زعيمه : زعيمه قادر بغيره وهو قادر بنفسه . وزعيمه جهاز تسجيل يستقبل ، وهو محطة إذاعة ترسل ، وزعيمه رأس حكومة « الثورة » سنة و بعض السنة فهدم ولم يبن ، وانفعل ولم يفعل ، ورأس هو محكمة « الشعب » دون هذه المدة ، فأتى بما لم يأت به أحد فى تاريخ الإنسان : اخترع محكمة لم يخطر مثالها على بال عاقل ولا مجنون : مسرح فى ملهى رخيص ، فى صدره منصة جاس عليها العداة والخصوم وقالوا إنهم القضاة ، وعن اليمين منضدة جلس إليها الأفاكون السفاكون وقالوا إنهم المدعون ، وعن الشمال قفص حشر فيه الشرفاء الأبرياء وقالوا إنهم المتهمون ، وفى الساحة مقاعد اقتعدها المجرمون الحقيقيون وقالوا إنهم المتفرجون ! فإذا بدئت المحاكمة افتتحها الرئيس الصخاب السباب بخطبة

حمقاء يسب فيها الخلصاء من ضباط الجيش ، والعلماء من رجال الدين ، والزعماء من قادة العرب . ثم يفرغ للبرىء المتهم فيفرغ عليه كل ما فى فمه من بذاء وكل ما فى صدره من حقد ، ثم يغتصب حق الادعاء فيفند الحق ويؤيد الباطل ويفتعل الوقائع لتتساوق الأسباب إلى تبرير الحكم الذى أعده من قبل أن يفتح الجلسة ويسمع القضية . ثم تنقلب المحكمة سوقاً للمدح والهجاء على نحو ما كان « المربد » فى البصرة ، فينهض الشعراء الحمر فينشدون فى الزعيم « الأوحد » والقاضى الفرد ما تنشده الصراصير القذرة فى المستنقع العفن . وفى الختام يقوم المهداوى فى هوسة من الزمر والرقص والتصفيق والهتاف فيشنق العدل والقانون والخلق فى ساحة المحكمة شنقاً حتى الموت !

* * *

والهفتاه على أبطال العراق وشبابه ! ثاروا على البغى والفساد والاستبداد فى الرابع عشر من تموز فطهروا الأرض وحرروا الناس ، حتى إذا أخذوا يعوضون ما فقد ، ويصلحون ما فسد ، ويجمعون ما شت ، قامت قيامة الشيوعية المحلية فانبعث عبد الإله فى عبد الكريم ، وحلت روح « نورى » فى جسد « فاضل » وآزرتهما عناصر الشر جمعاء ، فأطفأوا الثورة بدماء من شبوها من الضباط الأحرار ، وفجعوا الوطن العربى كله فى صفوة من بنيه الأبرار ، وأغلقوا بيوت الموصل وكركوك وبغداد على أيامى ويتامى وعجزة ، قتلوا عائليهم أو اعتقلوا أهاليهم ، وتركوهم للدموع والجوع والقلق والخوف كالأغصان الأماليد والأزهار النواضر اجتثت أصولها من فوق الأرض فما لها من قرار .

أزمه وتنفرج ، وغمرة وتنجلى ، وأمة يصهرها القدر فى بوتقة الخطوب ، وستنكشف إما عن حديد خبث وإما عن ذهب خالص . وخلوص الجوهر

هو المعهود فى طبع العراق والمعروف من تاريخه لم يغمض أبداً على قذى ، ولم يصبر طويلا على ضيم ، إنما يصبر بمقدار ما يتحفز للوثوب ، فإذا وثب كسر القيود وحطم الأغلال وأدب الطغاة .

إن العراق يعوَّق ولكنه لا يضل . و يستذل ولكنه لا يذل . فالخوف عليه من خطر الانحلال السياسى الذى يفقده الإرادة و يسلبه الاختيار و يحرمه الأمن ليس له سند محقق من ماضيه ؛ إنما الخوف المحقق عليه هو من عقبى هذه الظاهرة المخيفة التى بدت فيه بعد أن قتل الثوار وزيفت الثورة ؛ هذه الظاهرة هى ارتداد فريق منه عن عقيدته وعروبته استجابة إلى دعوة هدامة . ومثل هذه المحنة التى تصيب الشعب فى دينه أو ضميره لا يكشف ضرها غير الله . ولله فى العراق جنود وأولياء يتولاهم علماء السنة وفقهاء الشيعة ، وقد أهاب بهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعلنوا الجهاد الروحى فى سبيل الله والوطن ليردوا الضوال الشوارد إلى القطيع ، ويرجعوا الآراء المتفرقة إلى الرأى الجميع . والله رب العالمين وولى المؤمنين قد تكفل بالحفظ لخير دين أنزل بالحق ، وبالنصر لخير أمة أخرجت للناس .

أحمد لطفي السيّد كما عرفته

بين السَّحر والفجر من يوم الثلاثاء الخامس من شهر مارس لسنة ١٩٦٣ حين ينسلخ النهار من الليل ، وينبثق النور من الظلام ، تخلصت روح لطيفة من قيدها المادى الغليظ وصعدت إلى مصدرها الأول ومرجعها الأخير :

تلك هى روح الأستاذ الفيلسوف أحمد لطفى السيد ، لفظها فى غير قلق ولا ألم كما ينسم الطفل النائم الهادىء . وموت الشيخوخة المطمئنة نقلة روحية سعيدة من فناء منقطع إلى بقاء متصل ، فهو موت وحياة فى وقت معاً . كالشمس تغيب عن قوم فتكون غروبا فى المغرب ، وتطلع فى الوقت نفسه على آخرين فتكون شروقا فى المشرق .

وشيخوخة لطفى السيد كانت ككهولته وشبيبته سلاما وطمأنينة لم يكدر صفوها حقد على أحد ولا طمع فى شىء ، فكانت حياته الوادعة النافعة أشبه بحياة الجدول السلسل الرقراق تفيض على جوانبه الرى والخصب من غير هدير ولا طغيان ولا كدر .

كان فى كل أعماله العلمية والإدارية والسياسية يستار سيرة العلماء ويستن سنة الفلاسفة ، لا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا فى حدود المنطق والخلق والقانون ، وكان لعبقريته و بلاغته يرسل القول فيكون مثلا أو حكمة ، ويفعل الفعل فيكون مثالا وقدوة .

وكان فى رزانة الحكيم ووقار الحليم يتحدث أو يناقش فلا يستفزه نزق جاهل ، ولا يستخفه غضب مكابر . فإذا اشتد الجدل فى حضرته بين اثنين

فى مسألة فعلا الصوت واحتد اللسان قال لهما : علام الخصومة والخلاف ؟ فى المسألة رأيان ، فأحدكما من رأى والآخر من رأى .

وكان على شفوف بدنه باهر الجلالة ظاهر الأبهة ، لا يقبل اللغو فى مجلسه ، ولا يبالغ فى التعبير عن شعوره . فإذا ضحك لا يضحك بملء فمه ، وإذا عبس لا يعبس بكل وجهه ، وإنما هى الابتسامة الحلوة فى كل ما يحب أو يكره .

وكان أظهر مزايا لطفى السيد حديثه ؛ فقد كان آخر طبقة شهروا ببراعة الحديث من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوى ، فأنت فى حضرتهم لا تشتهى الكلام لأن لذتك فى أن تسمع ، ولا تثير الجدال لأن همك فى أن تستفيد . ولطفى السيد كان محدثاً نقى الصوت حلو النغمة متئد الأداء واضح الجرس فكه اللسان متخير اللفظ ، فلو ذهبت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وكان ينثر فى خلال حديثه الكلمة الفرنسية أو اللهجة (الشرقاوية) فتكسبه ظرفاً ورقة .

وكان مجلسه أشبه بمجلس صديقه أرسطو زعيم المشائين فى مماشيه المظللة ، أو شيخه الأفغانى إمام المصلحين فى قهوته المفضلة ، يتوخى فيه الفائدة واللذة ؛ فسامعه لا ينفك راضى العقل ريان العاطفة . وكان بارعا فى سلسلة الحديث سريعاً إلى اقتناص المناسبة ، فلا تخشى على الحديث فى مجلسه أن يبوخ ، ولا على الصموت فى حضرته أن يحرج .

وكان أسبق معاصريه إلى التجديد فلم تعرف قبله فى الشرق كلمات الحرية والديمقراطية والاستقلالية بمعناها المطلق . وأجلى مظهر لهذا التجديد كان فى نزعته السياسية وطريقته الكتابية ؛ ففى صحيفة (الجريدة) التى كانت لساناً

لحزب الأمة وكان هو رئيس تحريرها نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية .

وفى هذه الجريدة ابتكر أسلوبا للكتاب لفظه قدر لمعناه ، ووصفه طبق لموصوفه ، وسبيله قصد لغايته ، فكان مذهباً جديداً جرى عليه الكتاب والصحفيون إلى اليوم . وكان من سبقه إلى التجديد أن دعا إلى إصلاح الخط العربى وإنشاء المجمع اللغوى وتعليم الفتاة المصرية .

* * *

قالوا فيه : إنه أستاذ الجيل ، وكان الأصدق الأحق أن يقولوا : إنه أستاذ أجيال ثلاثة ، فمنذ أن صدرت (الجريدة) فى عام ١٩٠٨ كان فيها وفى ندوتها مصدر توجيه ومشعل هداية . كان يندو إلى مجلسه صفوة الشباب والطلاب فيفتح قلوبهم للآراء الجديدة ، ويهيىء نفوسهم للقيادة الرشيدة ، ويجنبهم مزالق التطرف الجامح والتصرف المرتجل : وقرأ لهم منطق أرسطو وسياسته فتخرج عليه طائفة من الكتاب والمحامين تزعموا الإصلاح وقادوا النهضة . وظلت أستاذيته متصلة الأثر من يوم أن خرجت الجريدة إلى الناس إلى يوم أن دخل هو فى جوار الله .

كان فى السنين الثمانى عشرة الأخيرة من حياته الطويلة الخصبة رئيساً لمجمع اللغة العربية فكان لهذه الأستاذية من قوة الشخصية وحضور الذهن وصدق التوجيه وسعة الإطلاع واستقامة المنطق وحدة النشاط الأثر البالغ فى اضطلاع المجمع بعبء رسالته . كان من أفهم الأعضاء لطبيعة اللغة ووظيفة المجمع وحقيقة التطور ، يرى كما نرى أن اللغة ملك للمتكلمين بها لا للواضعين لها ، فهم أحرياء أن يتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما ورث ، يعدل ويكمل وفقاً لحالته وطبقاً لحاجته .

ففى عهده رد المجمع الاعتبار إلى المولد وقبل السماع من المولدين ، وقرب المسافة بين الفصحى والعامية بقبول ما وضع الصناع والزراع والتجار وغيرهم من كل ذى حرفة .

* * *

كان تفكيره الحر وتجديده الواعى أصيلين فى فطرته ظهر أثرهما على رأيه وهو فى رونق شبابه . حدثنى رحمه الله عن سبب اتصاله بالإمام محمد عبده قال : كان الشيخ ينتدب فى كل عام لامتحان طلاب الحقوق فى السنة النهائية ، وكانوا قد اقترحوا علينا فى امتحان الإنشاء أن نكتب فى هذا الموضوع : (كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم) وجعلوا زمن الإجابة عن هذا السؤال أربع ساعات على ما أذكر ، فكتبت المذاهب الأربعة التى قررها العلماء فى هذه المسألة ثم عقبت عليها فعندتها جميعاً ونفيت أن يكون للحكومة (حق) عقاب المجرم لأنها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت فى التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة . ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما كتبت فاكتأبوا وقرروا جميعاً أنى لا محالة راسب . واشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسى كل أمل فى النجاح . فلما كان يوم الامتحان الشفوى وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع له الدرجة العليا ، ولكنه نصح لى أن أقتصد الآن فى هذه الآراء إشفاقا علىّ . ومنذ ذلك اليوم لزمته .

* * *

كان أول يوم اتصلت فيه أسبابى بالفقيد العظيم يوم زرته فى مكتبه بالجريدة أنا وصديقاى طه حسين ومحمود الزناتى نشكو إليه فصلنا من الأزهر ونحن فى السنة النهائية من الدراسة فيه لخلاف ثار بين الطلاب فى درس أستاذنا المرصفى

حول فقرة من خطبة للحجاج رواها المبرد فى الكامل ، وكان الخطيب الجرىء قد أساء الأدب فى حديثه عن الطواف بقبر الرسول فكفروه لذلك. وكنا نرى أن سوء التعبير يوجب التعذير ولا يوجب التكفير . فلما دخلنا عليه هش بنا وبش لنا وسمع منا وسمعنا منه ، ثم قال بلهجته الرزينة إن الأمر أيسر من ذلك . ورفع سماعة التليفون وقال للشيخ حسونة النواوى وكان شيخ الأزهر يومئذ . إن عندى ثلاثة من طلاب الأزهر فصلتموهم لرأى رأوه . ولعل من الخير ألا تقتلوا فى الشباب حرية الرأى ما دامت لا تخالف أصلا من أصول العقيدة ولا نصاً من نصوص الأحكام . وسأله أن يلغى قرار الفصل ففعل ، وانصرفنا من عنده وليس أحد من رجال الفكر وأصحاب البيان أحب إلينا منه .

* * *

كانت ثقافة لطفى السيد راسخة الأصل متينة القواعد ، أقام ركنها العقلى على فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وركنها الأدبى على كتاب الله وشعر العرب . كان يحمل القرآن على ظهر قلبه وطرف لسانه ، يؤديه آية آية كأنما يتلو فى مصحف منشور . وكان كثير المحفوظ من الشعر يستمده من أوعية شتى ويرويه عن أعصر مختلفة ، فكنا فى مجلس المجمع كلما ندّ عن ذا كراتنا شاهد من القرآن أو الشعر أسعفنا به .

وليس معنى ذلك أنه وقف فى فلسفته عند اليونان وفى أدبه عند العرب ، وإنما كان يساير الفلسفة فى كل مذهب ، ويتابع المعرفة فى كل وجه .

ولطفى السيد بعد أولئك كله كان حليما رحيما يرتاح للخير ويدل عليه ،

ويجنح للسلام ويدعو إليه . وكان لنشأته السرية وبيئته القروية يسمت سمت الأرستقراطيين فى الهندام والمظهر ، ويقصد قصد الديمقراطيين فى المعاملة والسلوك . وهو الوحيد فى علماء العصر الذى طال أجله وحسن عمله ، وجمع بين ثقافة النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

رحمه الله رحمة واسعة وعوضنا من علمه وفضله خير العوض .

أمّة التّوحيد تتوحّد

كان العرب فى جاهليتهم قوى مبعثرة على رمال البوادى ومياه الأنهار يفنى بعضهم بعضاً بالغزو والثأر حتى أراد الله الذى يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس أن يجعل منهم أمة وسطاً بين مادية اليهود وروحانية النصارى تصلح الدنيا بالدين وتصل الأرض بالسماء فألف قلوبهم على حبه ، ووحد شعوبهم على رسالته ، وأخرجهم من الجزيرة يحملون مشاعل الهدى وسيوف الحق ليقيموا الميزان ويحطموا الطغيان ويبينوا للناس معالم الطريق إلى الغاية التى تنتهى إليها الجماعة وتتم عندها الوحدة .

ونفذت إرادة الله على ما سبق من علمه وجرى فى حكمه فتوحد الشتات والتأم الشمل وبلغت وحدة العرب والمسلمين غايتها من الشمول والقوة فى عهد الرشيد حتى قال يوماً لغمامة مرت من فوقه · (أمطرى حيث شئت فإن خراجك لى) . وظلت هذه الوحدة شاملة قوية حتى خلافة المتوكل ، ثم نجمت رءوس الشياطين من الأعاجم فى الدولة تنشر الشعوبية والزندقة والفرقة فانقطع الخيط وانفرط العقد واختلط اللسان وتفرقت الكلمة وانشعبت الخلافة الإسلامية ثلاث شعب : شعبة فى العراق ترفع العلم الأسود ، وشعبة فى مصر ترفع العلم الأخضر . وشعبة فى الأندلس ترفع العلم الأبيض . ثم جف الثرى بين الإخوة فتصارعوا على الحكم وتنازعوا على السلطان :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيهـــا أمير المؤمنين ومنبر

ثم دها العالم العربى الاستعمار الإنجليزى والفرنسى مع الحروب الصليبية

ففرق ليحكم وقسم ليستغل وفجر ليستبد فنشأت العصبية الإقليمية لدرء خطره أو تخفيف ضرره ، ولكنه كان قد استشرى واستضرى وتوقح ، ففسد النظام واختل الميزان وذل الحق وأفلس المنطق وأصبح من فوق الطاقة ووراء الإمكان أن تناضل الأهواء المتفرقة الرأى الجميع ، وأن ينازل الحق الأعزل عدوان الباطل المسلح ، وكان لابد للعرب أن يعالجوا ضعف الفرقة بقوة الجماعة ، وأن يتركوا بنيّات الطريق إلى سواء الجادَّة .

وما كان للعالم العربى وهو يرى الخطوب تتواثب على جوانبه والنوازل تتفاقم فى أحشائه أن تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتكالبون على عرض الدنيا ويتواثبون إلى كراسى الرياسة كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك فهى لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر . وكأن غريزة حب الحياة التى جعلت من ضعاف النمل أمماً متحدة ومن بغاث الطير أسراباً متعاونة لم تكن من غرائز أهله ولا من نحائزحا كميه !

لذلك شعرت كل أمة من أممه فى وسط هذه الكوارث السود التى تتفجر عليها من الداخل والخارج بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع ركبها الغرور والضلال ساعة من الزمن فنسيت أن قرنها الحاد لا يقوى على الناب الأعصل ، وأن عيشها مقيدة مع الراعى خير من عيشها حرة مع الذئب ، وأن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحادا ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ووحدة المصير من أن تبدىء اتحادا صنعه الشيطان من جون بول وحسين ، ومن العم سام وسعود ، ومن السيدة مريان[1] وعشاقها من هنا وهناك ، فإن هذا الاتحاد الذى ألفه الدينار

---

(١) جون بول لقب إنجلترا ، والعم سام لقب أمريكا ، ومريان لقب فرنسا .

والدولار والفرنك من دول ثلاث ومن أفراد ثلاثة لا يدوم إلا ريثما تأنف الشعوب وتغضب . والأنفة والغضب من شيمة الأبى الحر ، والإباء والحرية أصلان فى طبع العربى لا ينفكان عنه إلا بالقهر ، والقهر وما يتبعه من الذل والفقر معناها الاستعمار ، فمتى تحلحل كابوسه الفادح عن صدر الأمة العربية وجدت نفسها الضائعة وأدركت وجودها المتميز فنهضت تجمع أطرافها وتصل أجزاءها وتسأل عن صلة القربى الواشجة كيف قطعها الدخيل ، وعن رقعة الوطن المتصلة كيف مزقها المستعمر ، وعن هذه الأسماء المتعددة لهذه الأمة الواحدة كيف افتعلها الدخلاء والعملاء ليكون لكل اسم منهما دخيل فى يده أصابع قرد ، ولكل دخيل فيها عميل فى أصابعه مخلب قط . وما هذه الثمرات المأكولة بالباطل إلا رزقى ورزقك ورزقه من أبناء هذه الأمة الكادحة المحرومة اقتطعها الملوك بالصوالجة وأغترفوها بالتيجان ليقدموها قرابين غير مقدسة إلى آلهة الخمر والقمر والفسق والرذيلة .

* * *

شعر بمخاطر الاستعمار ومخازيه ضباطنا الأحرار وتبلورت فيهم ثورة الشعب فدكدكوا حصونه عليه ، وكبكبوا سماسرته صرعى من حواليه ، وطهروا من أوزاره وآثاره مصر وسورية والعراق وحطموا من بينها الأسوار والحدود ، وكسروا من حولها الأغلال والقيود ، فتلاقى الإخوة وجهاً لوجه ولساناً للسان ويداً ليد ، وفى أيديهم أعلام العباسية والفاطمية والأموية مصورة فى علم واحد ذى ثلاثة ألوان وثلاث نجوم يتذاكرون أمانى الأخوة ، ويتناشدون أغانى الوحدة ، ويتساقون كؤوس المودة مترعة من كوثر النيل ورحيق بردى

وسلاف دجلة ، ويمثلون الأقطار الثلاثة فى اتحاد عام يوحد فيه الاسم والرئيس والعلم والجيش والدستور والتعليم والاقتصاد والخطة والغاية فلا يبقى وراء ذلك كله إلا شؤون محلية يختص بها إقليم دون اقليم، ويختلف فيها قطر عن قطر .

هذه الأقطار الثلاثة هى أساس الوحدة الشاملة وضعه الثوار على تقوى من الله ورضوان تقوم فوقه الجمهورية العربية المتحدة بأقطارها الثلاثة عشر .

ولو علمت أن كل قطر من هذه الأقطار الأساسية الثلاثة قد قامت فيه خلافة وتمكنت فيه دولة وازدهرت به حضارة ، وأن الأقطار التسعة الباقية إنما كانت أقماراً توابع لها تدور فى فلكها وتجرى لمستقرها ، وأن الحوائل العارضة التى كانت تحول بين الفرع وأصله ، وتفصل بين الجزء وكله ، قد زالت أو كادت ، علمت يقيناً أن الوحدة فى الوطن ستتم وإن بعدت فى بعض أرضه الشقة ، وأن النجوم الثلاثة عشر ستبزغ فى العَلَم وإن تراكمت فى بعض سمائها السحب .

* * *

إن الوحدة السياسية المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول . و إن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول . أما الوحدة الناصرية المقترحة فباقية نامية لأنها تجديد للوحدة المحمدية ؛ فهى باشتراكيتها وحريتها وديمقراطيتها مظهر للاسلام مطبقا بالفعل ، منفذا بالقانون ، مؤيدا بالسلطان . والإشتراكية فى الرزق والحرية فى الرأى والديمقراطية فى الحكم ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل ، وألا تستبد فتطغى ، وألا تحكم فتتحكم . والأثرة والطاعية والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل فى فساد الزمان وهلاك الأمم .

* * *

بعد قرابة ألف سنة من تمزق الوحدة العربية بين الترك والفرس والمغول والكرد والجركس والأسبان والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز والطليان يعود التراث المحمدى إلى أهله ومعه ماضيع الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فيسعى بعضه إلى بعضه ، وينضم قاصيه إلى دانيه ، ويشعر ثمانون مليوناً من العرب يعيشون بين المحيط والخليج بأن لهم كياناً طبيعياً تميز بالجنس واللغة والدين والتاريخ والموطن والمجد والثقافة ، فمن حقهم أن ينزلوا فى مكانهم من صدر الوجود ، وأن يشاركوا بإمكانهم فى سياسة الدنيا ، وأن يقولوا للكتلتين الرأسمالية والشيوعية إن الكتلة العربية هى التى تملك غرس الوئام فى النفوس وإقرار السلام فى العالم ، لأنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتهيمن على الموارد الأولى فى الاقتصاد ، وتدين بالأديان السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ ، فافسحوا لها فى الطريق ، ومدوا إليها يد الصديق ، وأريحوا أنفسكم من الكيد لها والائتمار بها ، فقد جربتم معها كل سلاح ما عدا سلاح الحق فجربوه ولو مرة .

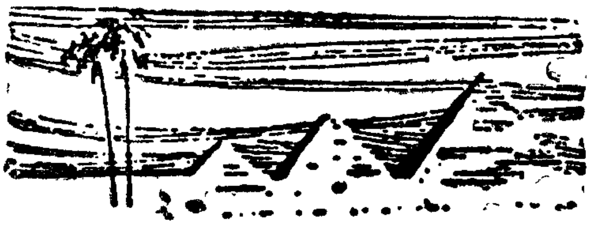

الفهرس

الموضوع	صفحة
قبل أن تقرأ	جـ - ع
أول ما عرفت الأدب	١
قرآن الفجر	٦
المعركة التي أنقذت الإسلام والعروبة	١٠
مثل من الإلحاد الأحمر	١٦
من الفتوة الإسلامية	٢٠
المرابي الذي دخل الجنة	٢٥
آخر فارس في آخر مدينة	٢٩
لماذا يقدس المصريون الخبز!	٣٤
من أمجاد الجيش المصري	٣٨
ساعة حرجة من يوم عصيب	٤٣
صورة من الذاكرة	٤٧
جزيرة الروضة في التاريخ	٥٢
كانت وكنا ، ثم صارت وصرنا	٥٧
بين الواقعية والكلاسية	٦١
الواقعية لا تمادي الفن	٦٦
الأدب يوجه ولا يوجه	٧٠
قصة الشعر المرسل	٧٣
قوى الإسلام الثلاث	٧٨
الإسلام سر الفدائية	٨٢
عاد الشعر في العالم كما بدأ	٨٦
وللأمم أيضاً من رجالها عناوين	٩٠
العميل الأول للاستعمار	٩٤
ناشىء يطارق أبواب الأدب	٩٨
العدوان الثلاثي على مصر	١٠٣
من الوطنية إلى الفدائية	١٠٨
الجهاد فريضة في الدين وفضيلة في العرب	١١٢
الأثافي الثلاث في مطبخ الاستعمار	١١٧
نورا	١٢٢
كيف كان الأزهر حصناً للغة العربية	١٥٣
محمد حافظ إبراهيم	١٧١
شخصية البحتري	١٨٤
محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان	١٩٩
من المهود المظلمة أشرق نور الله	٢٠٣
شهر ربيع الأول في حياة الرسول:	٢٠٧
هجـرة في سبيل الله وشهادة في سبيل الحق	٢١٢
يومان من أيام رمضان : يوم القرآن ويوم الفرقان	٢١٧
مكتبوا الازهر في أفريقيا الجديدة	٢٢١
الشعب الذي تحدى حلف الأطلسي	٢٢٦
ثوراتنا الثلاث تعوزهن رابعة	٢٣٠
الثورة الرابعة تتحقق	٢٣٥
وطننا يصنع المعجزات	٢٣٨
من حديث الفدائيين	٢٤٠
كيف عرفت جورجي زيدان	٢٤٣
أول ما عرفت الشنقيطي	٢٤٧
على بئر أريس	٢٥٣

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
صوم رمضان اشتراكية روحية	٢٥٨	خروف العيد	٢٨٥
٢٣ يوليه سنة ١٩٦٢	٢٦٢	كومنولث العبيد	٢٨٧
الصليبية التاسعة	٢٦٤	الرسالة والأزهر والميثاق	٢٩٢
لجنة وجيش	٢٦٦	الشاعر الصعلوك	٢٩٧
الاستعمار يأتمر	٢٦٧	إبراهيم مصطفى	٣٠٠
فضوه	٢٦٩	الجزيرة تنتفض مرة أخرى	٣١٢
كيف أخذوا امتياز القناة	٢٧١	صديقى الأول من ذكريات الطفولة	٣١٧
الاستعمار يموت	٢٧٣	أدب المرأة	٣٢٣
اتفاق سنة ١٩٠٤	٢٧٥	عصرنا الذهبى الرابع	٣٣١
حرية وجمهورية	٢٧٧	ياحسرتاه على العراق	٣٣٥
من آثار العبودية	٢٧٩	أحمد لطفى السيد	٣٤٠
أى أيامك أروع يا جمال ؟	٢٨١	أمة التوحيد تتوحد	٣٤٦
فى المصعد	٢٨٣		